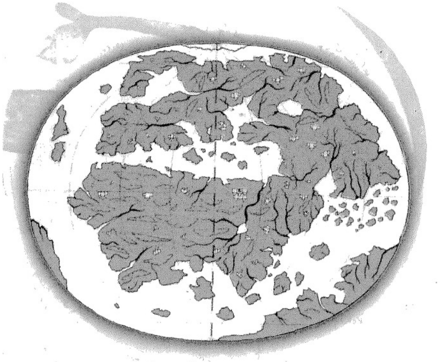
موريس لومبارد

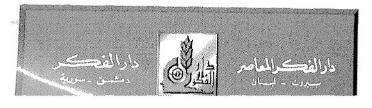


الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي

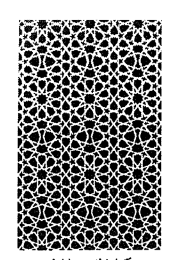
خلال القرون الأربعة الأولى



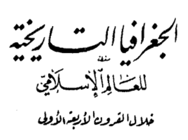
ترجمة
عبد الرحمن حميدة



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية



بسم الله الرحمن الرحيم



الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى/ تأليف موريس لومبارد؛ ترجمة عبد الرحمن حميده. - ط ٢- دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨. - ٣٢٠ص: مص، خرائط؛ ٢٤سم.
بآخره خريطة تاريخية
١- ٩١١,٥٦ ل و م ج ٢- العنوان ٣- لومبارد ٤- حميده
مكتبة الأسد
ع- ١٢٢١/٨/١٩٩٨

الجغرافيا التاريخية

للعالم الإسلامي

خلال القرون الأربعة الأولى

تأليف

موريس لومبارد

أستاذ في المدرسة العملية للدراسات العليا

وفي دار المعلمين العليا في باريس

ترجمة

عبد الرحمن حميده

دكتوراه في الآداب من جامعة باريس

رئيس قسم الجغرافيا بجامعة دمشق سابقاً

أستاذ في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الفكر المعاصر

بيروت - لبنان

دار الفكر

دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ٠٦٩٧,٠١١
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-549-9
الرقم الموضوعي: ٩٦٠
الموضوع: جغرافية العالم/ جغرافية عامة
العنوان: الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي
ترجمة: د. عبد الرحمن حميدة
التأليف: موريس لومبارد
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٣٢٠ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com



إعادة الطبعة الأولى
1419هـ = 1998 م
ط1 : 1982



سنجد في هذا الكتاب ، الذي ظهر للوجود بعد وفاة مؤلفه ، سنجد الأفكار التي ألقاها الاستاذ موريس لومبار على طلابه في القسم السادس من المدرسة العملية للدراسات العليا وفي مدرسة المعلمين العليا بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٠ .

وقد أمكن تجهيز المخطوطة للطباعة بناء على النص الذي تركه المؤلف . أما الخرائط والمخططات فقد تم تنفيذها استناداً الى رسوماته وذلك في مختبر علم الخرائط في القسم السادس من المدرسة العملية للدراسات العليا . وقد راجع العبارات العربية الاستاذ أندريه ميكل ، الاستاذ المحاضر في جامعة باريس ، فانسين ، وهي تنسجم مع المنظومة الموسومة بصفة « المكثفة » الدارجة الاستعمال لدى المختصين بالاستعراب ، ولكنها تحتفظ بالشكل المألوف في كل حالة نكون فيها أمام كلمة أصبحت كتابتها مفرنسة .

وستصدر قائمة المصادر والمراجع مع تأريخ لتاريخ العالم الاسلامي في موعد لاحق .

إذن لم يقدّر لهذا الكتاب ان يراه الاستاذ موريس لومبار في شكله النهائي ، ويرجى من القارىء ان يتذكر ذلك .

تعريف

مؤلف نُشِرَ بمؤازرةٍ من المركز القومي الفرنسي للبحوث العلمية

من بين كل المراحل المتعاقبة التي عرفها العالم الاسلامي ، يتصدّى هـذا الكتاب للأولى ، أي تلك التي كانت مرحلة اكبر اتساع عرفه ، فترة اوج قوته ، وتوسعه التمديني .

وبعد أن تعرض لمختلف « الرقع الأرضية » القديمة التي انضوت تحت راية العالم الاسلامي ، يقوم بتحليل قدرة هذا العالم النقدية ، ومظاهره العمرانيـة وحركية مبادلاته التي كانت اساس نهضته والتي كوّنت عناصر قوته . ويعرض موريس لومبار كيف يمكن تفسير الحقبة الاسلامية في تاريخ العالم عن طريق بناء شبكة اقتصادية عريضة ربطت لأول مرة مناطق كانت معزولة عن بعضها البعض حتى ذلك التاريخ . ويسلط هذا التحليل النور على بعض الظواهر البارزة التي تساعد على وضع التطور التالي في منظور أقرب للصحة . وهناك ثلاثون خارطة ومخطط توضيحي تواكب النص بصورة وثيقة . ويختتم الكتاب بلوحة اجمالية تقدم العناصر التأريخية وتبرز للعيان امكنة التماس والسيادة الاسلامية حسب تباين العصور .

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، واعطر تحية وازكى سلام على محمد الذي صلى الله عليه وسلم وبعد :

لا أنسب لنفسي فضل السبق في ترجمة هذا الكتاب الذي ظهر بالفرنسية تحت عنوان « الاسلام في عظمته الاولى » سنة ١٩٧١ ، إذ فوجئت بعد فراغي من ترجمته للعربية في صيف عام ١٩٧٩ بأن عثرت على الترجمة الاولى بقلم صديقي المرحوم الاستاذ ياسين الحافظ ، التي صدرت عن دار الحقيقة في بيروت في شهر آب ١٩٧٧ والتي تحمل العنوان نفسه ، والثانية بقلم تلميذي السابق وصديقي الاستاذ حسين العودات ومراجعة الاستاذ علي الخش وعنوانها « الاسلام في فجر عظمته » ، والتي اصدرتها وزارة الثقافة والارشاد بدمشق سنة ١٩٧٩ . ولكن نظراً لأهمية هذا الكتاب الفريدة ، وللرغبة الملحة في إصداره في أسرع وقت ممكن ووضعه بين أيدي جمهرة القراء ، لم يسنح الوقت اللازم للمترجمين لتزويده بالتعليقات والهوامش الضرورية حتى أن الترجمة الثانية أغفلت تعريب الخرائط الثمينة المتوفرة في النص الأصلي ، مثلما أهملت الترجمتان وضع اللوحة التأريخية الواقعة في خاتمة الكتاب . والحقيقة لقد شدّني الى هذا الكتاب وبهرني صدق مؤلفه وموضوعيته وتجرده ، وهكذا فإن التكرار للشيء الجيد ليس عيباً بل هو فضيلة وقد رأيت ان أنشره لفائدة الجغرافيين خدمة للحق وللحقيقة .

وعليه لم أتردد في تقديم مساهمتي المتواضعة لزيادة التعريف بهذا المؤلف الجزيل الفائدة مع اضافات عديدة في الهوامش ، والتصرف ببعض عبارات المتن كي اجعله أسهل تناولاً على القارىء ، وأخيراً لكي أضعه ضمن إطاره الجغرافي الحقيقي لأن من الأحرى بـه أن يتوج بعنوان « الجغرافية التاريخية للعـالم الاسلامي » ، حتى يحتل مكانه الذي يستحق في المكتبة الجغرافية ، لأنه الكتاب الأول من نوعه والوحيد الذي يتصدّى لهـذا الموضوع بين سائر المؤلفات الجغرافية المعاصرة .

والحقيقة إنه كتاب نادر يمثل وجهـة نظر غربيـة ، متحررة من الافكار الاستعمارية ومن نظريات التعالي والسيادة والسيطرة ، وقد آثرت نقله الى اللغة الفصحى من الوهلة الأولى التي وقع فيهـا في يدي لتبيان وجهة تفكير عـالم اوروبي كبير ، وهي وان خالفت بعض آرائنا احياناً فهي قمينة بأن تقرأ بعنايـة فائقة ، فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والاهمال ، اذ ليس من حقنا ان ننتظر من باحث غير مسلم ان يتبنى كل معتقداتنا ، بل يكفيه ثناء انه نأى عن التحامل وتوخى الموضوعية قدر استطاعته .

وقد سبقني العلامة فخر الدين الرازي في مقدمته لشرح كتاب « الاشارات » لابن سينا الى القول : « وأشترط على نفسي أن لا أتعرض لذكر ما اعتمده فيما أجده مخالفاً لما أعتقده ، فإن التقرير غير الرد والتفسير غير النقد » .

والواقع يضعنا هذا الكتاب أمام عناصر قوة العالم الاسلامي مثلما يبين لنا نقاط ضعفه سواء في الماضي او في الحاضر ، تلك النقاط الأخيرة التي يجب على كل الذين نذروا أنفسهم للنهوض بأقطارهم خاصة وبعالمهم الاسلامي عامة ان يعملوا على تلافيها وتداركها لتحقيق عملية الاقلاع والتخلص من لزوجة التخلف التي تشدنا الى ما يسمى بالعالم الثالث ، أو عالم الجنوب ، وسواهما من التسميات

التي تشير الى الأمم المستضعفة التي تعيش على هامش الكتلتين الكبيرتين او تدور في فلكهما بشتى الاشكال .

والله اسأل أن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يجد فيه القـراء الكرام عامة والمهتمين منهم بالجغرافية خاصة الفائدة المرجوة ، مثلما أرجو أن يتفضلوا بمساعدتي على تلافي نواقص هذه الترجمة بملاحظاتهم عوضاً عن النقد العقيم ولهم مني خـالص الشكر مسبقاً والحمد لله عليـه توكلنا وإليـه أنبنا واليه المصير .

الرياض : ٢٠ ذي القعـدة ١٣٩٩ هـ
١١ تشرين الاول ١٩٧٩ م

عرض وتصوّر

لقد كان صدر العصر الوسيط ، أي منذ تأسيس القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي حتى موجة الاندفاع الصليبي ابتداءً من القرن الحادي عشر ، كان حقبة شرقية في التاريخ ، شرقية في كل مجالاتها وفي كل مظاهرها . ويكون هذا صحيحاً ، على الخصوص ، بالنسبة للقرون الثلاثة التي تبدأ من منتصف القرن الثامن حتى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي والتي تنطبق على أوج الازدهار في العالم الاسلامي . ففي تلك الفترة كانت تستقر في الشرق الاسلامي المراكز الفعالة في الحياة الاقتصادية والفكرية ، أما الغرب الاوروبي فلم يكن يحوي أكثر من مساحات خاوية ومستقبلة ضمن رقعة انحسرت عنها الفعالية التجارية والثقافية منذ انحطاط روما وزحوف جحافل البرابرة من أواسط آسيا[1] .

بيد أن فهم اقتصاد العالم الاسلامي في أوج ازدهاره يستدعي إلقاء نظرة الى الوراء ، نظرة نلقيها على عصر الفتح ، الممتد من أواسط القرن السابع حتى منتصف القرن الثامن ، ففي ذلك العهد أخذ العالم الاسلامي ملامحه الجوهرية .

---

(١) كان الاغريق ومن بعدهم الرومان يعتبرون كل الشعوب التي ظلت بمناى عن حضارتهم برابرة ، ويحتفظ المؤرخون بهذا الاسم للاشارة الى المصائب التي اجتاحت الامبراطورية الرومانية بين القرن الثاني والسادس وقضت على امبراطوريات الغرب الاوروبي واقامت على انقاضها دولا متفاوتة في ديمومتها . وكان القسم الاعظم من هؤلاء البرابرة ينتسبون للعروق الجرمانية كالفرنجة والبورغون الخ ، او السلافية والقوطية كالسويف suèves والفندال في حين كان الآخرون مثل الهون والآفار والمجر او الهنغاريين من عرق اورالي آلتاني .

عصر الفتوح

لقد كانت هذه الفتوحات ، في بدايتها ، من صنع عــرب جزيرة العرب ، ومعظمهم من البدو الجمالة ، الذين شكلوا أول قوة عسكرية في الإسلام ، وذلك تحت قيادة زعماء قرشيين من أهل مكة ، وهم حضر يتعاطون التجــارة وتمويل القوافل الكبرى وتجهيزها • وهكذا راح العرب يتطلعون الى ما وراء الصحراء ومنابت الكلأ السهبية ، اي الى بلاد الهلال الخصيب وهي أقطار مابين النهرين والشام ومصر • ولكن الجيوش الاسلامية فتحت أذرعها ، الى جــانب العنصر العربي ، للفرق المؤلفة من سكان البــلاد المفتوحة ، وهي فرق عملت على دعم الحركــة الأصلية : وهكذا اندفع الفرس نحــو آسيا الوسطى ، والسوريون والمصريون نحو الشمال الافريقي ، مثلما إندفع بربر بلاد المغرب بدورهم نحــو اسبانيا وصقلية •

ولم يكن هؤلاء الفاتحون ، من عرب وعجم ، يؤلفون سوى أقلية في البلاد المفتوحة • وكان دورهم التاريخي هو إنشاء مجال ديني وسياسي فسيح ، وضم شتات ممالك وشعوب شتى ضمن امبراطورية واسعة ، ومن ثم الذوبان والانصهار في خضم السكان القدامى الذين خضعوا لهم • وقد ظلت المجتمعات القديمــة تمارس نشاطها ، دونما توقف ، تحت وشاح الخلافة والاسلام • وبعد أن خرج العرب من جزيرتهم راحوا يستقرون في مناطق ذات استيطان كثيف : كالعــراق وايران ومصر ، وهي بلاد واحات أو بلاد مــدن كبرى ، وذات أقوام مستقرة قديمة ، وذات تقاليد تاريخية عريقة ، فهناك ماض عمراني يمد جذوره بعمق في بلاد الشرق هذه ، وهي بلاد تحوي بعض أكثر حضارات العالم قدماً •

ولقد اقتصر العنصر العربي هنا على موجة وحيدة من الفاتحين الذين انطلقوا من صحراء وليس من احدى تلك الظهيرات hinter lands المؤلفة من غابات تتوسطها فسحات مزروعة ، كمــا في أوروبا الوسطى ، أو مــن السهوب ذات

المراعي ، كما في أواسط آسيا ، والتي كانت تؤلف على الدوام معيناً لا ينضب من الغزاة البرابرة ، والتي كانت موجاتها المتعاقبة تتدفق كي تستقر في الغرب حيث تسود الحياة الريفية والغابية مع القليل من السكان ٠

أما هنا ، في المشرق ، فقد كان الفاتحون عبارة عن حفنة من الرجال اندمجت بسرعة[1] ، وانصهرت في جماهير سكان المدن من ذوي المدنية الأسمى ٠ وهكذا سكن العرب المدن أو في معسكرات واقعة في مواجهة المدن الكبرى ، وأصبحت كل منها فيما بعد نواة لمدينة حقيقية مثل : الكوفة والفسطاط والقيروان ٠ ويمكن تفسير هذه الظاهرة بضرورة البقاء على أهبة الاستعداد ، وفي رغبة التاجر العربي الحضري وفي رغبة البدوي الرحال في استيطان المدينة ، وهما رغبتان تتضافران فيما بينهما في النفور من تعاطي الزراعة ومن الاستقرار الزراعي[2] ٠ فكل هذه الجماعات ترغب ضمناً في متع المدينة ٠

أما عتاة البدو الذين لا يقرّ لهم قرار فسرعان ما يعادون الى البادية أو يحجر عليهم في بعض المناطق السهبية : وأفضل مثال عن هؤلاء هو حالة البدو الهلاليين الذين تدفقوا من صحارى جزيرة العرب الى سيناء ، ومنها الى برقة ، ومن ثم الى المغرب ٠

ولقد استؤنفت حياة شعوب الشرق التقليدي القديمة على منوالها السابق تحت الحكم العربي : كالآراميين والفرس والمصريين ٠ ترى ما هو دور الفاتحين تجاه هذه الشعوب ؟

---

(١) لقد صدر في الستينات كتاب جغرافي للمرحلة الثانوية في فرنسا باشراف الاستاذ ديروو ، يضم خريطة للفتوحات العربية علق المؤلف عليها : اسرع فتح باقل عدد من الرجال ويذكر ان وفاة الرسول كانت سنة ٦٣٢ م ومعركة بواتييه سنة ٧٣٢ م وان عدد العرب الذين شكلوا جيوش الفتح لم يتجاوز السبعين الفا من الرجال ٠

(٢) يجدر بنا ان نتوقف قليلا عند هذه النقطة الهامة : الواقع ان الكثير من المستشرقين الاوربيين يلحون على ظاهرة نفور العرب خاصة من الزراعة مستندين في زعمهم على حديث يقول ما معناه : « مادخل المحراث بيتا الا دخله الذل » ، والقصد البعيد منه هو الترغيب في الجهاد وعدم الركون كليا للدعة ، ناسين العديد من الاحاديث التي تحث على تعاطي الزراعة والغرس ويكفي ذكر هذا الحديث الشريف : « اذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها » ٠

لقد أدى الفتح ، على الصعيد السياسي ، إلى نشوء دولة فسيحة الأرجاء ، هي الدولة الإسلامية ، ممثلة بالخلافة ، مثلما عمل الفتح ، على الصعيد الديني ، على غرس الاسلام ، وهي ديانة ناتجة عن الوحي القرآني الذي نزل على محمد ﷺ .

كما أدّى الفتح على الصعيد اللغوي الى انتشار اللغة العربية .

وعلى الصعيد الاقتصادي أخيراً ، فقد كان توحيد مجموعة من الممالك المتباينة النتيجة الجوهرية لهذه الظاهرة التاريخية .

ولكن ما إن تمّ الفتح حتى تلاشى العرب كعنصر متميز وانصهر الفاتحون في سكان البلاد المفتوحة القدامى من فرس وساميين واقباط مصريين وبربر واسبان ، وحدث نفس الشيء خلال المرحلة الثانية ولقد أشار اكثر من باحث الى ضآلة أعداد الجيوش الفاتحة القادمة من بلاد الشام ومن العناصر البربرية في إسبانيا الإسلامية خلال القرن العاشر(١) .

ترى كيف يمكن تفسير سهولة الفتح وسرعته ، والذي قام على عاتق فاتحين بمثل هذه القلة في العدد ؟ الواقع كان لدى العرب كل المؤهلات لكي يتم استقبالهم كمحررين من لدن الاقوام القديمة في العالم السامي في بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ومن طرف المصريين . ففضلا عن وشائج القرابة العرقية واللغوية التي كانت تشد الكثير من هؤلاء الى العرب ، فإن هذه الشعوب كانت خاضعة منذ أمد طويل الى روما ثم الى بيزنطة في الغرب ، والى الامبراطورية الساسانية في الشرق . هذا كما كانوا في حالة تمرد مستديم ضد السلطات الادارية التابعة للقسطنطينية ، او الى طيسفون ، تمرد كان ، شأن كل الثورات في الشرق ، ديني الصبغة ، واجتماعي الأصل . فقد كانت الهرطقات الدينية تهز أركان السلطة البيزنطية : كالنسطورية ، ومذهب اتباع الطبيعة الواحدة للمسيح ، بشكل خاص ،

(١) E. Levi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle. Institutions et vie sociale. Paris, pp. 8 et suiv .

اللتين كانتا تعارضان الارثوذكسية ، المذهب الرسمي للسلطة الحاكمة • أما في مجال السامانيين فقد نمت المانوية واليهودية والنصرانية ، وكلها مذاهب موجهة ضد الديانة الرسمية ، أي المزدكية •

وفي الواقع كانت الاتجاهات الديموقراطية ، ونزعة المساواة ، والشمولية في الدعوة الاسلامية ، أقول كان مجموع هذه العوامل يتجاوب مع حركات التمرد الاجتماعي والديني التي ذكرنا •

ومن هذا جاءت سهولة الفتح ، ولو جزئياً على الأقل • هـذا كما كانت الرغبة في النظام وفي استتباب الأمن تدفع بسكان المدن الى الانحياز للفاتح ، إذ كانت تنتظر منه الحماية من الفوضى ومن نهب البدو • وجاءت المقاومة الضارية الوحيدة في النهاية من البربر الذين سبق لهم أن ثاروا في وجه قرطاج وفي وجـه روما ، كما تمردوا فيما بعد ضد الأتراك والفرنسيين ، والذين ظلوا بحالة تمـرد ظاهر أو مقنّع ضد الحكم الاسلامي[1] •

هذا وقد كانت العلاقات مع الشعوب المحكومة ميسورة في كل الحالات نظراً لتسامح الفاتحين ، ولا سيما البدو منهم والذين كانوا يتصفون بعدم المبالاة أحيانا على الصعيد الديني • ولهذا لم تحدث في البلاد المفتوحة مظالم ، ولم يكره أحد على اعتناق ديانة الفاتحين • والمطلب الوحيد الذي ألحّ عليه الفاتحون كان ذا صبغة مالية ، فمعاهدة استسلام واضحة وصريحة تعقد مع السلطات الدينية المحلية كانت تتكفل بحرية العبادة وبمتابعة النشاط الاقتصادي مقابل جبـاية الضرائب بواسطة وجهاء مختلف الطوائف •

وقد كان الفتح غاية في السرعة حتى أنه لم تكن هناك ثغـرة زمنية ، أو

---

(١) هذا رأي لا يمكن تعميمه اطلاقا لعدم مطابقته للواقع لان البربر أصبحوا بعـد مقتل كسيلة والكاهنة من المتحمسين لدينهم الجديد ، اذ يكفي ان ظهر فيهم المرابطون والموحدون الذين لم يعملوا على تمديد فترة الحكم الاسلامي في الاندلس اكثر من قرنين من الزمن فحسب بل عملوا على نشر الاسلام على اوسع نطاق في افريقيا السوداء جنوبي الصحراء الكبرى •

انقطاع ، بل بالأحرى استمراراً للوضع السابق ، استمراراً في كـل المجالات ؛ كالأنظمة والأجهزة الحكوميـة ، وموظفيها الإداريين ، والمعـاملات والمكاتب والضرائب وأخيراً النقـد • فقـد استمر تداول العملتين الرئيستين حتى القرن الثامن الميلادي ، وهما الدرهم الفضي الساساني والدينار الذهبي البيزنطي • أما على الصعيد الاقتصادي فقد استمرت المدن وشبكات الطرق التجارية ، وهما من البنى الجوهرية ، دونما تبديل • هذا أما ميرة مصر ، وهي ضريبة من القمح ، والتي كانت تبعث في البداية الى روما ، ثم في اتجاه القسطنطينية على أثر تحويل السلطة الامبراطورية الى هذه المدينة ، فلم تعمل السلطات الإسلامية على إلغائها، بل حولتها الى مكة والمدينة عن طريق البحر الأحمر[1] ، وبعدئذ نحو دمشق ، عاصمة الخلافة الأموية • كما ظلت الضرائب سارية ولكنها أصبحت لفائدة الأمة الاسلامية • وهكذا كانت الجزية التي كانت تجبى من غير المسلمين احدى المظاهر الاقتصادية للفتح الى أن عمدت الخلافة الى فرض ضريبة عقارية تشمل المسلمين وغير المسلمين بعد أن فقدت موارد هامة بسبب دخول ابناء الديانات الاخرى في الاسلام أفواجاً[2] •

هذا كما لم ينجم عن الفتح أية أعمال تدميرية انتقامية ، فلم تتعرض المـدن المفتوحة للنهب او للحرق ، باستثناء حادث بارز هو مصادرة محتويات قصـور الساسانيين الغنية بالذهب • إذن لم تحدث أية خلخلة بالنظام القائم ، وراحت الأقوام الخاضعة تقدم بالطبع إطارات الإدارة وكل الاستعداد النفسي للتعاون لدى شعوب متمدنة • وراح الذين اعتنقوا الإسلام ، من نصارى ويهود أو عجم، أو الموالي ، كما كانوا يسمون في ذلك الزمن ، أقول راحوا يلعبون دورا حاسما في صياغة هذه الحضارة التوفيقية syncrétique التي هي الحضارة الاسلامية•

(١) يزيد ذلك ما حدث عام الرمادة حين استنجد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بوالي مصر عمرو بن العاص الذي كان جوابه : « سارسل لك قوافل اولها عندك وآخرها عندي » •

(٢) يروى ان احد الولاة اشتكى الى الخليفة عمر بن عبد العزيز شح الموارد المالية بسبب دخول اكثرية دافعي هذه الضريبة في الاسلام فكان جواب الخليفة : « لقد أرسل الله محمد هاديا وليس جابيا »•

وقد امتد تأثير هؤلاء ، المنحدرين من أصل غير عربي ، الى شتى المجالات. كتأليف المصنفات في النحو العربي ، مثل سيبويه ، وفي جمع الأحاديث النبوية وتمحيصها كالبخاري ، وهم من أبناء أقوام الشرق القديمة التي ورثت تقاليدها في الأنشطة الفكرية •

وهكذا تصرّف الشرق الإسلامي ، ونقصد به بلاد الامبراطورية الساسانية القديمة ، كالعراق وبلاد فارس ، وبلاد الامبراطورية البيزنطية ، كبلاد الشام ومصر ، تصرفت كبوتقة تمخضت عن حضارة متفاعلة امتدت بعد قليل على سائر أرض الإسلام ، أي من الطرف الشرقي نحو آسيا الوسطى ، ومن الجانب الغربي نحو بلاد افريقية ، أي بلاد تونس وليبيا والقسم الشرقي من بلاد الجزائر ، وحتى بلاد المغرب ، أي بلاد البربر واسبانيا وصقلية • وهكذا كانت هذه الحضارة بالنسبة للقسم الشرقي من هذا العالم الاسلامي ، والمؤلفة من أصقاع سبق لها أن خضعت للساسانيين وللبيزنطيين ، أقول كانت عبارة عن حركة استمرار ومتابعة ، ولكنها حركة مدعومة ومنشّطة ، أو قل عبارة عن نهضة بالأصح ، ولكنها كانت بالنسبة للجناح الغربي عبارة عن يقظة حقيقية • وعلى خلاف مقولة هـ • بيرين الشهيرة[1] ، فإننا نرجح القول بأنه بفضل الفتح الاسلامي استطاع الغرب أن يستأنف التماس مع الحضارات الشرقية التي ، عن طريقها ، تمكن من الاتصال بالحركات العالمية الكبرى في ميداني التجارة والثقافة • فبينما أدت غارات البرابرة في القرنين الرابع والخامس الى تقهقر الغرب الميروفنجي ثم الكارولنجي اقتصاديا ، كان نشوء امبراطورية اسلامية جديدة عبارة عن تنمية مدهشة بالنسبة لهذا الغرب نفسه • وإذا كانت الغزوات الجرمانية قد سارعت في انحطاط الغرب فإن الفتوح الاسلامية قد انتجت انبعاث حضارته • وبعبارة موجزة

(١) Cf. H. PIRENNE, Mahomet et Charlemagne, 4e éd., Paris-Bruxelles, 1937, et les articles réunis et publiés par les soins de P. E. Hübinger sous le titre : Bedeutung und Rolle des Islam beim übergang vom Altertum zum Mittelalter (Wege der Forschung, 202) Darmstadt, 1968 .

يجب حسم المسألة المطروحة في الغرب بخصوص استمرار الاقتصاد أو تقهقره بسبب دخول البرابرة ، فإنها كانت ، في حالة الفتح العربي وبالنسبة لسائر المجال الاسلامي ، هي التأكيد على انه لم يكن هناك أي انقطاع فحسب ، بل وفضلاً عن ذلك ، كانت هناك نهضة خارقة •

« الأسلمة » والاستعراب ، والصبغة السامية(١)

هناك ثلاث مسائل يجب طرحها بشكل واضح وهي نشر الاسـلام ، أو الأسلمة ، والاستعراب او التعريب ، والصبغة السامية •

فنقصد بالأسلمة اعتناق سكان البـلاد القدامى الدين الجديد ، وهـو الإسلام ، وكان يشجع على هذا الاتجاه الفوائد المالية التي كان يجنيها المؤمنون الجدد من هذا الانضمام الى عقيدة الفاتحين وهي سقوط الجزية عن عاتقهم •

أما التعريب فيجب ان نفهمه في مضمونه اللغوي فحسب ، إذ لم يحصـل انحلال واسع في الدم « العربي » ، وهناك القليل من التقاليد « العربية » النقية التي انغرست في البلاد المفتوحة • وأن مانسميه أحيـاناً ، وعن طريق الخطأ ، بالتعريب كان في الواقع عبارة عن الصبغة السامية أو الطابع الشرقي ، أي تبني مجموعة من مفاهيم الأخلاق ، والمحظورات ، وقصص خلق الكون ، والاطارات النفسية والممارسات ، مفاهيم اختصت بهـا الأقوام السامية ، أو على الأصح المتأثرة بالطابع السامي في بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ، ولا سيما القطـاع الحضري من هؤلاء السكان ، وهو الجزء الرائد والمحرك ، وهم الذين تراكمت على كاهلهم كل طبقات الحضارات القديمة ابتداءً من أوائل العصور القديمة ، وهي حضارات أورثتهم ونقلت اليهم الحذق والرقة المتناهية ، والتقنيات الثقافية والاقتصادية ، والحاجة لنظام يقوم على قواعد صلبة ، ولكنها نقلت اليهم العوز « للفضائل الحربية » ، وهو أمر شائع بين سكان العصور القديمة الأولى ، وهو

(١) islamisation, arabisation, sémitisation .

الذي استدعى الاعتماد على المحاربين المرتزقة • وقد كانت الفتوح الاسلامية نتيجة لمعارك خاضها البداة المنطلقون من صحاريهم في جزيرة العرب ، والذين سلكوا دروبا معروفة تماما لديهم ، وانقضوا على المدن الصاخبة من حولهم ، وهي عبارة عن مراكز حضرية ، تحيط بكل منها هالة من الفلاحين لتأمين غـذاء أهل هذه المدن ، ومن ثم تمت الفتوح على أيدي البربر ، وهم بدو من صنهاجة ، أو بجهود رجال كتامة الجبليين الأشداء ، وفيما بعد على أيدي الاتراك والاكراد والديلم • ومن هذه المصادر الغاصة بالمحاربين استمد الاسلام قوته العسكرية •

أما الصبغة السامية أو « الأسمتة » فقد كانت شيئاً آخر : تلك هي الحضارة العمرانية التوفيقية للشرق القديم syncrétique ــ الامبراطورية الفارسية ثم الممالك الهللينيستية ــ والتي انتشرت في خارج العالم السامي بفعل بضع قنوات ووسائل • فقد انتشرت قبل كل شيء بواسطة اللسان العربي ، هو لغة القرآن الدينية ، ولغة الحكومة ، واللغة الرسمية ، ولغة الادارة ، ولغة التجارة والمبادلات البعيدة ، وأخيراً اللغة العلمية والأدبية • فقـد نقلت معظم الأفكار الإغريقيـة والفارسية ، والهندية والصينية ، الى اوروبا ، بواسطة المصادر المترجمـة الى العربية ، أي بواسطة أداة سامية • هذا كما فرض الطابع السامي نفسه أيضـاً بواسطة طرق الشتات diaspora التجارية المشرقية ، بدءاً من منطقة البرازخ ، وذلك اجمالا بفضل تبعثر وهجرة جماعات صغيرة وتكوين طوائف دينية في النقط الاستراتيجية على طرق التجارة الكبرى ، وقد تضخمت مجموعات الرواد هذه تدريجيا بفعل وصول قادمين جـدد • وفي الوقت نفسه كانت تتكاثر هـذه المجموعات ، وتندفع الى الأمام بحثاً عن الثروات ، وتقيم مراكز جديدة متقدمة مع احتفاظها بمواقع خلفية مضمونة عند ضرورة الإكتفاء ، تحتفظ معها بعلاقات تتفاوت في متانتها ، أو تنقطع أحيانا بتأثير الشقاق الديني ، أو تشتد أواصرهـا بفعل انضمام عدة مراكز لبعضها البعض ، أو بعد التحاقها بمركز وحيد • وعلى هذه الصورة نشأت الجماعات اليهودية التي كانت لغة كتابتها هي العربيـة أو

الآرامية ، ولغة التخاطب العربية ، مثلما نشأت الجماعات النسطورية التي كانت السريانية لغة كتابتها ، والعربية لغة تخاطبها .

ولنذكر في النهاية أن الطرائق الثلاث التي أتينا على تحليلها بإيجاز : أي نشر الاسلام كديانة ، والتعريب كلغة ، والطابع السامي أو الشرقي كحضارة ، انما كانت تظهر وتتطور في المدن . ذلك لأن البيئة الحضرية تناسبها بفضل وجود مسبق لنوع من انسجام . ومن هذه المدن كان يتم الإشعاع على شكل بقعة الزيت في اتجاه الأرياف والبوادي المحيطة بها . وبالفعل كان العالم الاسلامي في الفترة الواقعة بين القرن الثامن والحادي عشر الميلادي مركزاً لحركة حضرية خارقة ، وكانت المناطق التي كانت الحياة الحضرية فيها بالأوج هي التي تأثرت بصورة أكثر عمقاً من سواها . أما المناطق الأخرى فقد ظلت ، ولمدة طويلة ، على الهامش أو في نطاق هذه الحركة ، كما ان البعض منها لم يتأثر مطلقا بها . وهكذا نجد في افريقيا الشمالية نوعا من تنافر بين المدن الناطقة بالعربية والمتأثرة بحضارة الشرق ، وبين الكتل الجبلية التي ظل أهلها محافظين على لهجتهم البربرية ، والمستورة بوشاح سطحي جدا من التأثر بالإسلام أو « بالأسلمة » .

المجالات المفتوحة : العالم الاسلامي

يضم التوسع الجغرافي للفتوحات ، اي من آسيا الوسطى حتى اسبانيا ، وذلك ضمن المجال الاسلامي — في داخل حدوده أو في مناطق نفوده — يضم مساحات واسعة في قلب العالم القديم . وكانت هذه الرقع في ذلك العصر اكثر من سواها اهمية على الصعيد الاقتصادي نظراً لمنتجاتها من زراعية وصناعية أو معدنية ، وكذلك بالنسبة لتنظيمها التجاري لما تحويه من تجهيزات في الموانىء وفي شبكات طرق القوافل ، وأخيرا بسكانها النشيطين . وراحت هذه المناطق تضع مواردها ، من الآن فصاعداً ، تحت تصرف دارات تجارية متوسعة وأنشطة اقتصادية متمددة .

فقد كانت هنالك أقطار ذات ترب زراعية شديدة الخصوبة مثل بلاد ما بين

النهرين ومصر ، وهي بلاد عريقة ذات واحات وري ، وهناك أيضا بلاد ذات سهول فسيحة تنتج القمح والزيت مثل افريقيا الشمالية والأندلس • أما المناطق الغنية بثرواتها المعدنية فقـد كانت تقع في القوقاز وارمينية ، وفي افريقيا الشماليـة واسبانيا • وبالاضافة الى هـذا الانتاج المباشر كان العـالم الإسلامي يتمتع بالاشراف على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب الرئيسية في العالم : اي افريقيا الجنوبية الشرقية والسودان وآسيا الوسطى • أما مراكز الصناعات الحرفيـة المتطورة فكانت تقع في ايران وبلاد الرافدين والشام والدلتا المصري •

وهنـاك موانىء كبرى تضع تحت تصرف العـالم الاسلامي سفنها ودور صناعتها البحرية ، وسكانها الذين ثقفوا ركوب متن البحار • وهنـا نجد ثلاث مجموعات :

ــ ملاحة الخليج العربي والبحر الأحمر والمفتوحة على أيدي الملاحين العرب والفرس نحو المحيط الهندي والتي كانت تتكامل بمنظومة الاسطول النهـري على نهري دجلة والفرات •

ــ موانىء المجموع الشامي المصري ، وفي مقدمتها ميناء الاسكندرية الذي كانت تلحق به المراكب على النيل •

ــ وأخيراً موانىء مضيقي صقلية وجبل طارق مثل تونس وسبتة وقادس ويضاف اليها الاسطول النهري على نهر الوادي الكبير الـذي يخترق اشبيلية وقرطبـة •

وكانت هناك مدن قوافل مع انظمتها المعهودة في عمليات النقل والتي كانت تسيطر على طرق بلاد ما بين النهرين الذاهبة الى بلاد الشام غربا ونحو بـلاد فارس وآسيا الوسطى شرقاً ، وجنوباً نحو جزيرة العرب ، مثلما كانت هنـاك دروب بلاد البربر التي كانت تمر من فوقها التجارة العابرة للصحراء الكبرى : وكانت تضم هذه المنظومة شبكة من القوافل مع حيوانات النقل من إبل وجمال

ذات سنامين وبغال وحمير وجهاز كامل من عاملين مختصين بتسيير القوافل من خفراء وأدلاء وعكامين ومجهزي القوافل . هذا كما كانت هناك جماعات التجار المشارقة ، وهي ذات تقاليد عريقة في التجارة العالمية ، والـذين كانوا يعرفون « بالسوريين » (« المشارقة ») وهم خلفاء الفينيقيين .

وأخيراً كانت هناك مخزونات الذهب الواردة من قصور الساسانيين ومن الكنائس البيزنطية والتي عملت على دعم قوة العالم الاسلامي الاقتصاديـة ، والتي استحوذت من جهة اخرى على الهيمنة على تجارة الترانزيت بين الشـرق الاقصى والمحيط الهندي وبين الغرب ، من ناحية ، وبين افريقيا الوسطى والبحر الابيض المتوسط من جهة اخرى . وكان هناك طريق واحدة فقط لا تخضـع لسيطرة المسلمين ، وتقصد بها طريق السهوب التي تقود من الشرق الاقصى الى منغوليا والى آسيا الوسطى ، ومن هناك الى السهول الهنغارية : وهي طـريق بدوية ، سالكة دوما تقع شمالي الحضارات الآسيوية القديمة وشمالي حضارات البحر الأبيض المتوسط ، كما ظل مركز تجاري كبير وحيـد في خارج المجـال الاسلامي ، وهو بيزنطة .

وهكذا تتكشف قيمة موضع العـالم الاسلامي في قلب العـالم القديم . فالاسلام لم يكن عبارة عن حضارة هبطت فجأة من كوكب آخر[١] ، بل يتلاحم بشكل وثيق مع تاريخ كل الرقع الأرضية التي كانت تحيط بمهده والذي انتشر فوقها بصورة متفاوتة . أما بالنسبة للعالم الأسود ، الممتد من بـلاد السودان الغربي حتى سواحل افريقيا الشرقية ، فقد كان ظهور الاسلام أحد الملامح الكبرى في تاريخ افريقيا الحديثة . ومن جهة المحيط الهندي فقد بلغ الاسلام جـزر اندونيسيا . هذا وقد خضع العالم التركي والعالم الصيني بدورهما ، في آسيا الوسطى ، لنفس التماس مع الاسلام : فقد تنج عن الفتح الاسلامي الاول اعتناق

(١) يقصد بهذه العبارة ان الاسلام لم يكن غريبا تماما عن المعتقدات والاديان السماوية السابقة بل جاء كخاتمة للرسالات السماوية ويؤيد ذلك قول الرسول الكريم « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

الاتراك للدين الجديد وأصبحوا بدورهم حملة هذا الدين الى الصين التي تضم حالياً أكثر من اربعين مليوناً من المسلمين • أمـا من طرف القسطنطينية والغرب النصراني فإن الاسلام سلك الطرق التي تصل البحر الابيض المتوسط بأوروبا الوسطى وحتى اقطار البحـر البلطيقي • وكانت هـذه الطرق مجـال لقاءات وتداخلات ، هذا اذا فكرنا بالتوسع الاسكندينافي الذي كان يستهدف مـن جهته بلاد البحر الاسود وبحر الخزر •

وتشكل كل هذه الاقطار بالنسبة للاسلام العديد من الآفاق الاقتصادية التي تستدعي التنقيب عن خيراتها ، ولقد خلف الاسلام في كل هذه الأمكنة طابعه، سواء الديني على شكل انتشار الدين الجديد ، او الاقتصادي كما تشهد عليـه اللقى من النقود ، واستورد المسلمون من كل هذه الأصقاع شتى السلع ، وهي عناصر تيارات مبادلات نشيطة جداً •

ويقع مركز العالم الاسلامي في منطقة البرازخ ، اي بين الخليج العـربي والبحر الأحمر والبحر الابيض المتوسط والبحر الاسود وبحر الخزر ، اي ان هذا العالم يقع في نقطة التحام مجالين اقتصاديين كبيرين هما مجال المحيط الهندي ومجال البحر الأبيض المتوسط ، مجالان توحدا في العصر الهلليني ، ثم مالبثا ان انفصلا الى عالمين متنافسين ، روماني ــ بيزنطي من جهة ، وبارثي ــ ساساني من جهة أخرى ، وقد عاد هذان المجالان لينصهرا من جديد بفضل الفتح الاسلامي فتحولا الى مجال اقتصادي فسيح وموحد •

وستقوم هذه الوحدة فوق علائق تجارية عريضة ، وبواسطة طرق قوافل وخطوط ملاحية ، وعلى عملة سائدة ، هو الدينار الاسلامي ، وعلى لغة تجارية دولية ، هي العربية ، ولكن هذه الوحدة ستكون ميسورة ايضاً بفضل نشـوء عالم جديد موائم لمرور التقنيات ، ومناسب لتلاقي التقنيات البيزنطية والشرقية ولانتشار هذه التقنيات خلال العالم الاسلامي •

وأخيراً فإن الوحدة هذه ستكون ميسورة بفعل التحاق اسواق استهلاكية كبيرة في حوض البحر الابيض المتوسط الغربي بتيارات التجارة العالمية ، وذلك على إثر ظهور مدن جـديدة مثل القيروان وتونس وفاس ، أو مدن دب فيهـا النشاط من جديد مثل اشبيلية وقرطبة وبالرمو • وهكذا أصبحت هذه المراكز الكبرى الجديدة في الغرب الاسلامي وثيقة الاتصال بمثيلاتها الشرقية ، وهي مدن تعود للحقبة الهللينيستية القديمة ، كالاسكندرية أو انطاكية ، أو مدن نشأت حديثا كالقاهرة أو بغداد •

ويعتبر هذا الواقع الأخير جوهرياً ، وفي الحقيقة فإن نشوء أو انعاش شبكة من المدن سيمنح العالم الاسلامي الجديد هيكله الاقتصادي والاجتماعي والثقافي• وهكذا أخذت شبكة من العلاقات تمتد من مدينة لمدينة ، وفضلا عن ذلك كانت هذه المدن مراكز قوة الحياة الاقتصادية ومراكزها المحركة • وقد كانت أرجحية المدينة في العالم الاسلامي بين القرنين الثامن والحادي عشر هي الظاهرة العظمى للحقبة التي نقوم بدراستها • فبين سمرقند وقرطبة كانت الحضارة الاسلامية حضارة مدن متماسكة بشكل مدهش ، مع حركة واسعة في انتقال النـاس ، والبضائع ، والأفكار ، حضارة توفيقية ، او تركيبية ، فرضت نفسها فوق أرضية اقليمية ، ريفية أو بدوية •

وهكذا يتراءى العـالم الاسلامي على شكل زمرة من الجزر الحضريـة المتواصلة فيما بينها بخطوط تجارية • وسيتلقى هذا التنسيق الحضري البديع الضربة القاضية بفعل الأزمات والاضطرابات أو الغزوات التي تعرض لها خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، إذ ستؤدي الى تفتت التيارات التجارية الكبرى وبالتالي الى انحطاط المدن • ولم يعد العالم الاسلامي وحدة بل منقسماً على نفسه : فهناك عالم اسلامي تركي ، وآخر فارسي ، وآخر شـامي ، وآخر مصري ، وآخر مغربي ، وراح العالم يشهد عندئذ تقطع الحضارة الاسلامية ، وانبعاث خصائص اقليمية ، متجسدة في حضارات اسلامية •

وسيكون قصدنا اذن ان نعرض العالم الاسلامي في البداية قطراً فقطراً، وسندرس كلاً منها من وجهة النظر الجغرافية ، أي الاوضاع الطبيعية ، والاطار الفيزيقي والبشري ، ومن وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية : كمخلفات الحضارات الغابرة ، المتمددة فوق الأرض ذاتها التي نشأت وازدهرت فوقها ، وعلى أيدي السكان أنفسهم وبالتقنيات نفسها ، والاطارات النفسية ذاتها ، وأحيانا مع نفس المعتقدات التي تحورت بصورة متفاوتة بتأثير عوامل جديدة • فبعد حقبة الخلافة الوحيدة الشمالية ، اي بعد الخلافة الاموية التي تضعضعت تماما في أواسط القرن الثامن ، أخذت ترفع هذه الخصائص رؤوسها لتتجسد في دول ، وفي أسر حاكمة يمكن وصفها بأنها « قومية » نوعا ما ، وهذا بشرط الا تعطى هذه الكلمة الأخيرة مدلولا عصريا جدا : فظهر أمويو الاندلس ، والطولونيون في مصر ، والفاطميون في افريقية ، والطاهريون ، والسامانيون في بلاد فارس الشمالية •

وإن عودة حركة التمايز هذه ، والتي دعيت خطأ ــ على ما نتصور ــ « تفكك الخلافة العباسية » هي التي نرجح ان نسميها بناء العالم الاسلامي ، أي الانتقال من مفهوم الخلافة الى مفهوم بلاد الاسلام •

الجزء الأول

أمصار الإسلام

الرقع الأرضية وشبكات المواصلات

الفصل الأول

منطقة البرازخ

إن أوائل الاقطار التي سندرسها هي جزيرة العرب ، وهي نقطة الانطلاق الصحراوي للإسلام ، ثم المناطق التي اخضعها الفتح في البداية وهي : مصر وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين .

شبه جزيرة العرب

من أجل فهم الدور الايجابي والسلبي ، في آن واحد ، ذلك الدور الذي لعبته جزيرة العرب في العالم الاسلامي ، علينا ان نتعرف على العناصر البشرية في فترة ما قبل الإسلام ، وأن نضعها من جديد ضمن اطارها الجغرافي المؤلف من واحات ومن صحارى كانت تؤلف مراع متفاوتة في أهميتها . ففي واحات الشمال الغربي ، مثل يثرب مثلا ، كان يعيش مزارعون مستقرون ، كان من بينهم أوائل الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ ، والذين شكلوا فيما بعد قواته المحاربة ، وهم « الأنصار » الذين انضم اليهم ، بعد قليل ، سكان المدن من أهل مكة والطائف

وجدة ، والقرشيون ، والصيارفة ، وسادة تجارة القوافل ، وتجار البحر في موانیء الجنوب ، في كل من اليمن وعمان • وأخيراً انضم اليهم البدو الذين يعيشون في الاجزاء القابلة للسكنى في قلب صحراء جزيرة العرب ، وهم مربو ماشية ومتعهدو نقل ، وعاملون في القوافل ، ويتحلى جميع هؤلاء بالفضائل الحربية •

ولكن سرعان ما استبعدت بورجوازية مكة الغنية الانصار المدنيين ، لا سيما بعد ان رأت فائدة الدين الجديد على تجارتها ، فاندمجت في اطارات الـدين الحنيف • وقد اعتمد بنو أمية ، وهم أقوى أفخاذ قريش ، اعتمدوا في فتوحاتهم على قوة البدو الحربية ، فجندوا رجالهم وسلحوهم وتركوا لهم الغنائم ، ممـا سمح للأمويين ببسط سلطتهم حتى دمشق التي أصبحوا يهيمنون منهـا على رؤوس الطرق التجارية • وهكذا راحت اواسط جزيرة العرب ، وعلى الاخص نجـد والحجاز ، تتفرغ من سكانها وتفقد قوتها الاقتصادية • كما راح أبنـاء البدو ينصهرون تدريجياً في حضارات الشرق القديمة ، في المدن ، وحيث ظل كتاب الدواوين المحليين يكتبون باللغة البهلوية في بلاد ما بين النهرين ، وبالاغريقية في بلاد الشام ، ولكن الوافدين الجدد احتفظوا لنفسهم بالسيادة السياسية •

هذا وقد حدثت طيلة الفترة الأموية بعض التحركات السكانيـة في كلا الاتجاهين بين جزيرة العرب والبلاد المفتوحة • أما عتاة البدو فقد جرى إقصاؤهم نحو البوادي بمنأى عن مراكز الاستقرار • ففي بداية القرن الثامن الميلادي عمد الخليفة عبد الملك الى نفي بني هلال وبني سليم الى غربي سيناء وبرزخ السويس حيث عملوا خفراء قوافل أو كانوا يلجأوون للسلب في فتـرات الفوضى • وفي أواسط القرن الحادي عشر دفع الفاطميون بأحفاد هؤلاء البداة ليجتاحوا بلاد افريقية التي خرجت من أيديهم • ومع ذلك ظل الخلفاء الأمويون محتفظين بعلاقات عاطفية مع الصحراء العربيـة وذلك عن طريق حاشيتهم وبسبب الجاذبيـة التي يمارسها الشعر الجاهلي الذي يمجد حيـاة الصحراء • الحقيقة كان للخلفـاء قصورهم المشيدة بالحجر في عاصمتهم دمشق ، ولكن كانت لهـم قصورهم في

الصحراء السورية ، او البادية ، كقصر الحيرة وقصر الحلابات ، فضلا عن المخيمات لقضاء فترات متقطعة ولا سيما في فصل الربيع • ولكن هذه العلاقات أخذت تتلاشى تدريجياً في عصر العباسيين وحاشيتهم من الخراسانيين الوافدين في شرقي بلاد ايران •

وابتداءً من القرن الثامن راحت الجزيرة العربية تعاني من فتور سياسي باعتبارها اقليماً ضئيل الأهمية في نظر خلفاء بني العباس ، ويمكن قول الشيء نفسه على الصعيد التجاري ، فلم تعد مكة ولا المدينة من مراكز تجارة القوافل الكبرى ، فقد خسرت المنطقة دورها كوسيط ، مثلما فقدت موضعها كنقطة توزيع بعد الفتوح الشاسعة والاستيلاء على نهايات خطوط القوافل البيزنطية والساسانية في كل من بلاد الشام والعراق • وبعد أن اصبح الخلفاء سادة طريق البحر الأحمر وطريق الخليج العربي ابتداءً من القرن الثامن لم يعودوا يأبهون بالطريق القارية المتوسطة في شبه جزيرة العرب • واذا ما استمر تفريغ القمح المصري في ميناء جدة طيلة العصر الأموي ، فإن شبه الجزيرة العربية أصبحت في العصر العباسي عديمة الأهمية الاقتصادية تدريجياً بسبب عزلتها • ولم يعد القمح المصري يشحن مطلقاً الى المدينتين المقدستين بل أصبحت السفن تنقله من الآن فصاعداً من حول الجزيرة العربية باتجاه العراق وبغداد عن طريق البحر الأحمر وبحر عمان والخليج حتى ميناء البصرة • ولكن رغم هذه الحصيلة السلبية فقد ظل هناك نشاط هامشي مستمر ومرتبط بالطرق الكبرى •

ولكن ظل هناك مجال بارز احتفظت فيه جزيرة العرب بدور إيجابي ، اذ بقيت القطب الديني للإسلام ، نظراً لوجود المدينتين المقدستين فيها ، وهما مكة التي تضم الكعبة المشرفـة والمدينـة التي تشتمل على مسجد الرسول الكريم وضريحه • وعن طريق شبكة الطرق الشعاعية التي كانت تتلاقى في مكة وفدت من مصر وسورية وبلاد مابين النهرين ومن المحيط الهندي ومن الحبشة ، وفدت تيارات فكرية شديدة الاختلاف كالمزدكية واليهودية والنصرانية الشرقية والبوذية

والوثنية الزنجية والتي ظهرت اصداءها في الحقبة الجاهلية دون ان تتفوق واحدة على الأخرى وكل هذا قبل نزول القرآن . ومن هذه الطرق نفسها انطلقت حركة الفتح في الاتجاه المعاكس ، وبعد ذلك راحت تسلكها قوافل الحجاج باتجـاه مدينتي الاسلام المقدستين . هذا وكانت تهرع أفواج قادمة من المغرب عن طريق القاهرة وبرزخ السويس لأداء فريضة الحج ، وأفواج من بلاد الفرس عن طريق بغداد والكوفة ، هذا فضلا عن أفواج وافدة من اليمن وعمان . وقد نجم عـن هـذا التيـار الكبير من الحجاج نشوء شبكة جـديدة من الطرق وتيـارات اقتصادية خاصـة ، اي تجارة قائمة على الحج ، لتأمين غـذاء ضيوف الرحمن وسفرهم ، ولبيع أقمشة الاحرام ، وهي تلك المنسوجات الفضفاضة غير المخيطة ، والتي تقوم بدور كساء للحاج اثناء تأديته المناسك ، ولبيع السلع التذكاريـة المتعلقة بالحج ، من ثمينة وغير ثمينة ، كأحجار الفيروز المصقولة محلياً ، هـذا فضلاً عن التجارة التي كان يتعاطاها الحجاج بأنفسهم والذين ينتفعون من موسم الحج لعقد صفقات في سوق مكة الضخم خلال شهر محرم . وكان هناك وال في مكة يمثل الخليفة ويتقاضى الرسوم والمكوس . وهكذا كان الحج يؤلف مورداً تستغله الحكومة مالياً في حين كان البدو يستغلونه اقتصادياً كبيع الماشية لتقديمها كأضحيات في موسم الحج . وهذا هو الجانب الايجابي في دور جزيرة العـرب التي لم تعرف الاستغلال السياسي ، فالسلطة الدينية ليست في الحجاز : فالخليفة وهو ، امير المؤمنين ، يقيم في بغداد او في القاهرة . ولهذا لم يكن لمدن الحجاز من وظيفة أكثر من أنها أماكن مقدسة .

وهناك طابع ايجابي آخر لجزيرة العرب يكمن في أهميتها في تجارة الرقيق الوارد من الحبشة ومن الصومال ومن بلاد البانتو ، اي بلاد الزنج في افريقيـا الشرقية . وهكذا استؤنف استيراد الرقيق الأسود في موانىء جزيرة العرب الذي سبق وابتدأ قبل ظهور الإسلام واستمر من بعد . وفي بداية القرن التاسع نشأت في اليمن مدينة زبيد كسوق كبيرة للرقيق الأسود في عهد أسرة الزياديين التي

حكمت بين ٨١٩ وحتى القرن العاشر ، أما المدينة المنورة فقد أصبحت مركزاً لتربية الأرقاء المرتفعي الأثمان من مطربين وموسيقيين وقيان ، والذين حصل بعضهم على شهرة كبيرة مثل « إشراق » الأديبة المثقفة ؛ بل لقد كانت تبتعث أفواج من الأرقاء الصقالبة والهنود الى هذه المدرسة في المدينة المنورة كي يتعلموا فيها « الغناء المدني » المرغوب كثيرا في بلاط العباسيين • وهو عبارة عن غناء موزون بقضيب من الخشب ، وهو ضرب من موسيقى مصحوبة بآلة كالعود او الدف ، والتي شاعت في سائر أرجاء العالم الاسلامي ، والتي وصلت الى الغرب عن طريق الغناء الاندلسي وأدت الى نشوء ما يسمى بالنشيد الموزون cantus mensurabilis •

وظهرت في أعالي هضاب نجد بوادر التنمية الاقتصادية في تربية الحصان العربي الناجم عن تصالب الحصان البربري مع الحصان الايراني ، وحيث كان المناخ موائماً جداً •

وهكذا يمكن تلخيص دور جزيرة العرب في العصر الاسلامي من خلال بعض الملامح :

ـ لم تعد شبه جزيرة العرب الطريق الكبرى لتجارة العبور ـ الترانزيت ـ ولم تعد تساهم أبدا في التجارة العالمية اللهم إلا على هوامشها •

ـ ومع هذا كانت لها دورتها التجارية الخاصة بها بواسطة طرق الحج المؤدية الى المدينتين المقدستين •

ـ كانت مركزاً لتربية الرقيق ومن ثم توزيعه •

ـ وأخيراً كانت مركزاً لتربية الحصان العربي الأصيل ، ذي النسب المعروف حتى الجيل الخامس •

مِصْــرُ

لقد قيل إن مصر هي هبة النيل ، ولكن يجب ان نضيف الى ذلك : إنها من صنع الفلاح المصري . ويبدو الاطار الجغرافي هنا على غاية من الأهمية ، ولقــد شهد وادي النيل العمل الدؤوب الذي يقوم به الفلاحون من بناء وصيانة منظومة ري شاسعة الأبعاد ، تستدعي مجموعة من التزامات جماعية ، ومن أنظمة دقيقة جداً ، وأعمال سخرة ، وتعبئة الأيدي العاملة بصورة مستديمة . وقد ظل هــذا النظام من التسخير أو ما يسمى « باللزمة » في العصر البيزنطي ، ظل معمولاً به بعــد الفتــح الاســلامي . وتحتفظ أوراق بردي أفروديتــو Aphrodito بأعداد كبيرة من رسائل التسخير ، أو المصادرة ، التي تستدعي أيــدٍ عاملة من الفلاحين ، وهي جماعات خاضعة للسخرة وتحت التصرف بصورة دائمة .

وكانت أهم حاصلات القطر القمح والكتــان ، لأن مصر كانت إحــدى إهراءات غذاء العالم القديم ، وأصبحت ترسل من الآن فصاعداً حنطتها نحــو مدن الاسلام المقدسة ونحو العاصمة بغداد . هذا كما احتفظ الكتان المصري بشهرته التي سبق للمؤرخ الروماني بلين أن أشاد بها . ويجدر بنا أن نذكر أن القطن الذي كانت تجود زراعته في بلاد الشــام لم يظهر في مصر قبــل القرن التاسع ، أي بعد دخول زراعة قصب السكر في وادي النيل بفترة طويلة .

وكانت كثافة السكان المدهشة على طول مجرى النهر من دواعي استغراب كل رحالة أوائل العصر الوسيط ، حتى لقد وصف أحدهم الشريط المحاذي لنهر النيل بأنه « شارع مدينة » ، وكانت تتناثر عليه المراكز الحضرية القديمة ، كما كانت المدن الجديدة تقوم فيه بصورة مستمرة . ويكفي أن نذكر ما يتعلق بموقع القاهرة

وحده : الفسطاط في القرن السابع ، العسكر في القرن الثامن ، والقطائع في القرن التاسع ، والقاهرة في القرن العاشر • وبلغت هذه المدينة ذروة ازدهارها في أواخر القرن العاشر إذ بلغ عدد سكانها حوالي نصف مليون نسمة • ولكن كانت هناك مدن أخرى كثيرة السكان غيرها تمتد هي أيضاً على طول النهر مثل قوص ، قفط ، وأسوان التي كانت تضم حوالي ١٠٠٠٠٠ نسمة عند الشلال الأول •

ويؤلف النيل الشريان الرئيسي الذي كان يواكبه ، بدءاً من الدالتا حتى أسوان ، حاجب ترابي مستمر كان يسمى « جدار العجوز » ، هو طريق قوافل كانت تسير عليه قوافل تحمل مختلف المنتجات والسلع على ظهور الحمير أو على الإبل • وظل الطريق الرئيسي طبعاً هو النيل ذاته بواسطة أسطوله الضخم والنشيط ، والمؤلف من مراكب نهرية شراعية كانت تعادل قوارب ميناءي البصرة وبغداد سوية كما كتب رحالة ذلك العصر • وهي مراكب قديمة مربعة الشراع ، أو جديدة ، مثلثة الشراع أو ذات « الشراع اللاتيني » ، والذي ظهر في القرن التاسع ، ويتميز بأنه يسمح بسرعة الحركة ، وهو أمر هام جداً في الملاحة النهرية •

وكان يتطلب بناء هذا الاسطول النهري النيلي ، فضلا عن سفن موانىء الواجهتين البحريتين على البحر الأبيض المتوسط وعلى البحر الأحمر ، كان يتطلب مقادير كبيرة من الأخشاب • وكانت تضم مصر في العصر البيزنطي داراً للصناعة البحرية في الاسكندرية من أجل اسطول البحر الأبيض المتوسط وأخرى في القلزم ، بالنسبة لأسطول البحر الأحمر • أما في العصر الإسلامي فقد ارتفع عدد دور الصناعة الى ثمانية : أي في المناءين المذكورين آنفاً ، وثلاث في الفسطاط : الواحدة في جزيرة الروضة ، والثانية في الفسطاط ، والثالثة في المكس شمالا ، وواحدة في دمياط ، وواحدة في رشيد ، والأخيرة في الصالحية على فرع النيل الشرقي • إذن كانت هناك حاجات ضخمة للأخشاب لسد مطالب دور الصناعة البحرية ، وكذلك لبناء المنازل في المدن ، ولاستخدامه كوقود في الصناعات النارية : كمصانع الزجاج ، والقيشاني ، ولا سيما تحت مراجل عصير قصب

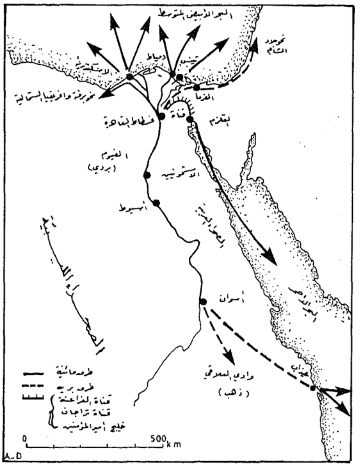
السكر • وكانت تتم تنقية السكر في مصر ، التي تعتبر مركزاً قديماً لعلم الخيمياء الهللينيستية[١] • وهكذا لم تعد مصر قادرة على تأمين استهلاكها من الخشب ، فكل أشجارها بما في ذلك النخيل هي أملاك شخصية • وكان هناك امتياز يمنح الاسطول الحق في وضع اليد على أي جذع أو قطعة خشب تصلح للاستعمال في بناء السفن • ولكن مع هذا لم يكن هناك بدّ من اللجوء للتجارة البعيدة فكان خشب التك الهندي يأتي عن طريق البحر الأحمر مثلما كانت تأتي الأخشاب من صدر البحر الآدرياتيكي ، اي من البندقية ، وذلك بفضل تجارة التهريب •

وهكذا كانت الحضارة المصرية ، المحرومة من الخشب ، تفتقر أيضاً الى الحديد • فكانت تستورد سيوف الهند والسيوف الفرنجية لتسليح قواتها ، أو بعبارة أخرى كانت حضارة متعلقة بظروف طارئة نظراً لأنها خاضعة بشكل وثيق للمواصلات مع مجالات أخرى ، ولم يكن بمقدورها ان تعيش لولا مواردها من الذهب ، لأن الخشب والحديد كانا حينذاك اساسيين لكل حضارة مدن عمرانية•

ويتألف سكان مصر بالأساس من الاقباط ، وجاءت كلمة قبطي من الكلمة الإغريقية aegyptios • وكلمة مصر قديمة تقابلها بالعبرية مسرائيم • وفي العصر الوسيط كان يقال عن القطر المصري بلاد مصر في حين كان يقصد بكلمة مصر عاصمتها • وتتصف النماذج البشرية فيها باستقرار مدهش • ويكفي للتثبّت من ذلك مقارنة النماذج البشرية الحالية بتماثيل وبرسوم المدافن الفرعونية ، وكلنا

(١) الخيمياء هي علم الكيمياء في العصور الوسطى ، وهو علم ينتسب الى عقائد فلاسفة الاسكندرية وارباب العلوم العاوية ويضم عناصر من الصوفية الشرقية • وكان يعتقد هؤلاء ان الذهب هو اكثر المعادن نبلا وكانوا يجتهدون للعثور على طريقة لاكثاره اصطناعيا بالاستعانة بالحجر الفلسفي • وقد انتقل علم الخيمياء الى الغرب على ايدي الصليبيين • ويعود فضل ظهور المفاهيم الكيماوية والكثير من الاكتشافات التي تمت في هذا الميدان الى العرب كتحسين التقطير بواسطة الانبيق ، وتحضير الماء القوي والماء اللذيذ ، وهو خليط من الحامض الآزوتي وحمض كلور الماء ، وزيت الفتريول وحجر جهنم وكلورور الزئبق وكان من ابرز علماء الخيمياء العرب جابر وابن سيناء • وفي العصر الوسيط ايضا برز في الغرب خيميائيون كبار من امثال البرت الكبير وتوماس الاكويني وريمون لول وروجر باكون وآرنو دو فيللونوف • وفي القرن الرابع عشر والخامس عشر ظهر دجالون في عداد الخيميائيين الى جانب علماء بحاثين قادت اخطاؤهم وتجاربهم الى تقدم علم الكيمياء الحقيقي مثل باسيل فالانتان وبرنار تريفيزان • وفي القرن السادس عشر ظهر من هؤلاء مارسيل فيسان ، وبيك ميراندول وكورنيليوس أغريبا وباراسلس وفان هلمنت •

يعرف قصة « شيخ البلد » • وكانت اللغة هي اللغة المصرية القديمة ، الهيروغليفية، ثم الهيرية ، ثم الديموطية ، وأخيراً القبطية • وكانت الابجديــة هي الأبجديــة الإغريقية المشوهة مع إضافة بعض الرموز •



شكل ١ ـ الإقليـم المصـري

وكان سكان مصر يؤلفون كتلة منسجمة ، ذلك لأن العنصر الإغريقي كان منحصراً في الاسكندرية بشكل خاص ، والتي كانت تبدو وكأنها مدينة خارجية ملحقة بمصر • وما أن سقطت هذه المدينة عام ٦٤٣ بأيدي القوات العربية حتى لاذت حاميتها بالفرار ونزحت في أعقابها العائلات اليونانيــة البارزة ، وهكذا اختفى وتلاشى العنصر الغريب من مصر • ولكن في مقابل ذلك كانت هناك جاليات

يهودية كبيرة عاتية على التمثل ، كما لم تختلط بالسكان الوطنيين ، وكانت تتشبث بمواقعها في الاسكندرية وبلبيس على الفرع الشرقي للنيل في الدلتا ، عند نقطة نهاية طريق بلاد الشام ، وكذلك في أسوان ، في جزيرة الفيلة ، عند نقطة انطلاق طرق القوافل نحو بلاد النوبة والحبشة والبحر الأحمر عند نهاية خط الملاحة على النيل ، وكذلك في الفسطاط .

هذا كما لم يحدث أي خلل أو انقطاع في نشـاط سكان مصر سواء على الصعيد الاقتصادي أو الديني . واذا كان الكثير من السكان قد جنح للإسلام تخلصاً من الجزية التي يدفعها غير المسلمين ، فإن هذه الضريبة كانت تحقق في عهد الخليفة معاوية مقدار خمسة ملايين دينار لخزانة الخلافة أي في النصف الثاني من القرن السابع ، وفي مطلع القرن التاسع ، أي في عصر هارون الرشيد ، هبط هذا الرقم الى أربعة ملايين ، وبعد فترة وجيزة الى ثلاثة ملايين . هذا كما انتقلت مصر دون هزات عنيفة من المذهب السني الى المذهب الشيعي الفاطمي الذي لم تقبل به أكثرية السكان .

هذا ولم يطرأ تغيير هام على العنصر القبطي الأساسي بتأثير الموجة العربية ، المؤلفة إجمالاً من حفنة من الفاتحين الذي استقبلوا كمحررين في كل عالم المشرق الذي أحس حينذاك بشعور من الارتياح ، ومن التجديد . فقد كان الشـعب الخاضع لبيزنطة بحالة تمرد ضد الادارة ، تمرد اتخذ في مصر صبغة دينية كالتي اتخذها في بلاد الشام : فظهر مذهب القائلين بطبيعة المسيح الواحدة المعـارض للارثوذكسية البيزنطية . أما العاطفة الوطنية فكانت سلبية الى حد ما ، وقد كتب ميخائيل السوري يقول : « لم يكن الخلاص من قساوة الرومان عبارة عن نفع قليل الأهمية بالنسبة لنـا ، وكذلك الخلاص من أذاهم ، ومن غضبهم ، ومن عنجهيتهم الطاغية تجاهنا ، وها قد وجدنا أنفسنا في راحة منهم » . وفي الواقع لم تكن في مصر مقاومة « وطنية » للخلافة . وما تمرد سكان الدلتا على الخليفة المأمون في سنة ٨٢٩ ـــ ٨٣٠ م سوى استياء من قضـايا مالية وينضوي ضمن

الحركات الاجتماعية الكبرى الناجمة عن الأوضاع الاقتصادية الجديدة التي توطدت حينذاك في العالم الاسلامي .

وهكذا دخلت مصر ، ذلك البلد ذو الحضارة العريقة الذي لم يتعرض محتواه السكاني لمخض يستحق الذكر ، دخلت تحت الحكم الإسلامي ، مع كل مظاهر عوزها للأخشاب وللحديد ، ولكنها دخلت أيضاً بمنتجاتها الزراعية ذات الشهرة العالمية من القمح والكتان والبردي . وكانت الى جانب ذلك تتميز برقي صناعة النسيج فيها ، وكذلك بصناعة الزرابي ، كما انتشر استعمال الورق في القرن التاسع انطلاقاً منها ، وكذلك صناعة ورق البردي ، مثلما تكشف باطن أرضها عن كمية كبيرة من الذهب وخاصة من المدافن الفرعونية القديمة ، وقد تم صهر هذا الذهب من جديد ليدخل في الدورة النقدية ، بعد ضربه على شكل دنانير مصرية بديعة التي كان يساوي كل ثلاثة منها ثلاثة دنانير ونصف من دنانير نيسابور حسب رواية ناصر خسرو في كتابه سفرنامه[1] .

بلاد الرافدين وبلاد الشام

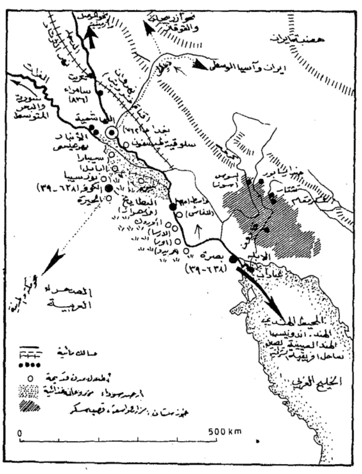
كثيراً ما أطلق على المنطقة الممتدة على شكل قوس دائرة الى الشمال من الصحراء العربية اسم الهلال الخصيب ، وهي المنطقة التي تضم بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين . وهذه المنطقة ليست عبارة عن نطاق متجانس بل هي بالواقع زمرة من الواحات الشريطية ومن سهول سهبية تنفصل عن بعضها بهضاب حصوية تتحول أحياناً الى صحراء ، وتمتد بين الهضبة الأناضولية التي تتألف حافتها الجنوبية من جبال طوروس وآنتي طوروس ، وشرقاً من حواف الهضبة الايرانية ، أي من جبال زاغروس ولوريستان ، وغرباً من البحر الابيض المتوسط على

(١) ناصر خسرو . سفرنامه ، او رحلة ناصر خسرو في بلاد الشام وفلسطين ومصر وفارس وبلاد العرب خلال الفترة الواقعة بين ٤٣٧ ـ ٤٤٤ هـ او ١٠٣٥ ـ ١٠٤٢ م .

واجهته الشامية • وهي واحات متفاوتة في اتساعها تزدهر بفضل الري وتتطلب القيام بمشاريع واسعة • واذا توقفت الصيانة هذه فإن الارض سرعان ما تعود لتتحول الى بطائح أو الى سهب صحراوي ، وهذا ما حدث فعلاً خلال فترات انعدام الأمن والخراب الناجم عن الحروب ، وعندها تسترد البداوة سيادتها •

أما في الحقبة التي نحن بصددها فقد كان العراق الأدنى يتمتع بأزهى عصوره الزراعية بسبب المشاريع الكبرى التي تم انجازها حتى العصر الساساني• فكانت المزارع تتوسع على حساب المناطق الخاضعة للري والصرف من جديد ، ولا سيما على حافة المستنقعات الكبرى ، أو البطائح ، حيث تكثر تفرعات نهر الفرات ، الى الجنوب من الكوفة ، والتي لا تزال تؤلف حالياً الأهوار وهي بحر من الأقصاب ، أو الغاب • والى هذه المنطقة المستنقعية أجلي قوم الزط مع جواميسهم من ضفاف نهر الهندوس ، واستقروا في هذه المنطقة لبعض الوقت قبل أن يقوموا بثورتهم المشهورة كي يتعرضوا على أثرها لنفي آخر الى بلاد الشام والى الثغور الاناضولية في القرن الثامن • والى هذه المنطقة التجأ الأرقاء السود في القرن التاسع ، أو الزنج ، المتمردون ، وحاربوا من فوق قواربهم المسطحة ومن أكواخهم المستترة بين دغيلات القصب • وكانت الحكومة تتابع سياسة إعمار زراعي داخلي كان يحث عليها فقهاء العصر العباسي من امثال أبي يوسف يعقوب المتوفى سنة ٧٩٨ م • وكان هذا التشريع يمنح حق التملك والإعفاء من الضريبة لكل رائد يقوم بإحياء الأرض الموات ، مما ادى لتوسع في مشاريع الري ولإخضاع مساحات كبيرة للزراعة ، ولا سيما أراضي السواد ، المؤلفة من تراكم الطمي الذي جلبه النهر ، وهي أراض سوداء خصبة راحت تتغطى بمزروعات غذائية ضرورية لإطعام السكان المتمركزين في المدن •

وهكذا شهدت منطقة العراق الادنى ، حينذاك ، وهي مركز الخلافة العباسية ، شهدت نهضة عمرانية خارقة • ونذكر من بين هذه المدن الكبرى : بغداد ، والبصرة ، والكوفة ، وواسط ، وسامراء ، حتى أن البعض منها كان



شكل ٢ ـ اقليم الرافدين

بضم اكثر من مائة ألف نسمة . وقد استطاعت أراضي السواد بفضل خصوبتها ، وكذلك بفضل جهد فلاحيها الدؤوب ونشاط العاملين في الري بلا كلل ، اقول استطاعت أن تزود هذه المدن الضخمة بشطر كبير من حاجاتها الغذائية : كالتمور والحنطة والشعير ، فضلاً عن الرز (الثمن) المعروف منـذ العصر الساساني والذي نقله العرب في الحقبة الاسلامية الى كل حوض البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية والاندلس . ولكن مع هذا كان يتم استيراد مواد غذائية بعيدة المنشأ مثل قمح مصر ودقيق بلاد الشام .

ولكن سبق لنا أن ذكرنا ان واحة ما بين النهرين ليست متصلة ، بل تنقسم الى عدة مناطق ذات ميزات متباينة . فهناك أولاً اقليم خوزستان ، او بـلاد

سوزيان القديمة ، ويحتل الجنوب الشرقي من العراق الادنى ، او العراق العجمي، ويشمل حوضي نهر قارون والكرخة ، وحيث أنجز الساسانيون الفرس مشاريع ضخمة ، إذ أقاموا سدوداً تخزينية وقنوات ري صالحة للملاحة • ومنذ نهاية العصر الساساني أصبحت هذه المنطقة منتجة كبيرة لقصب السكر ، وهو نبات وافد من الهند وانتشر على نطاق واسع باتجاه الغرب في الحقبة الاسلامية • وكانت خوزستان دوماً منتجة كبيرة لمادة السكر في المشرق الاسلامي ، وهو السكر الأسمر أو السكر الشفاف الابيض بعد تقدم التقنية في مصر وهو المسمى سكر قَنْد أو قنديد[1] • وكانت تتألف الأيدي العاملة في مزارع القصب من الزنج غالباً ، وهم من أقوام الباتنو من سكان الساحل الشرقي الافريقي الذين قدموا الى خوزستان عن طريق جنوب جزيرة العرب ، وعمان ومكران وكرمان على الساحل الفارسي •

ويأتي بعدئذ سواد العراق ، وهو المنطقة الواقعة بين البطائح ، أي الأهوار، جنوباً ، وبين خط يمتد بين تكريت على الدجلة وهيت على الفرات شمالاً ، وهي منطقة مغطاة بحقول القمح والشعير والرز والنخيل • وأخيراً كانت هناك منطقة الجزيرة ، أو أعالي بلاد ما بين النهرين ، وتضم سلسلة من الواحات على طول نهر الدجلة بين الموصل وآمد ، وهي ديار بكر الحالية ، بالاضافة الى وادي الخابور حتى منعطف الفرات • وقد عادت الآن هذه المنطقة للزراعة بعد أن ظلت خلال بضعة قرون عبارة عن سهب موحش يتجول فيه الرعاة البدو ، بعد أن كانت تضم قرى زراعية عديدة تشهد عليها بقاياها من التلال ، ولا سيما في القرى التي تبدأ أسماؤها بكلمة تل أو تبّه أو هويوك التركيتين • أما بالنسبة للجغرافيين العرب فإن الجزيرة كانت تشتهر بقطن الخابور الذي كان يصدر الى الموصل كي ينسج فيها ، ومن هذا جاءت كلمة « الموسلين » ، أو النسيج القطني الرفيع ، أو

(١) ومنها جاءت في شعر المتنبي :

ودونها لذ طعم الموت شاربه — ان المنية عند الذل قنديد

نحو بغداد حيث كان ينسج مع الحرير الملون كي يصنع منه قماش البغدادي ، أو نحو مدينة أخلاط وسواها من المراكز النسيجية في أرمينية . وكانت مزارع القطن تروى بفضل قنوات باطنية اقتبست تقنيتها من آسيا الوسطى[1] . وما ان زال حاجز الحدود بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الساسانية بفضل نشوء رقعة العالم الاسلامي الكبرى ، حتى تأقلم القطن في شمالي بلاد الشام ثم في جنوبيها . وهكذا أصبحت هذه المنطقة الاخيرة خلال العصور الوسطى المنتجة الرئيسية للقطن بالنسبة لمجموع عالم البحر الابيض المتوسط .

هذا وقد كان الانتقال ميسوراً بين عقفة الفرات عند مسكنة وبين جبال سلسلة جبال لبنان الشرقية وجبال العلويين ، أو ما يسمى بالمفصلة السورية العراقية ، والمؤلفة من مسطح كبير مائل[2] ، ومغطى بسهوب تجود فيها زراعة الحنطة ولا سيما الشعير ، ولكن المظهر يصبح صحراوياً تدريجياً في بادية الشام . ولكن تربية الماشية تظل هنا ممكنة بفضل الانتجاع بين حواف بادية الشام في الصيف وبين أواسطها خلال الشتاء . وهنا كانت تربى الابل وخيل حمل الاثقال . وقد لعبت هذه المنطقة دور عقدة طرق تتم فيها اللقاءات المتعددة ، ومنها تنطلق شبكة طرق مروحية الشكل ، فمنها كان يمر الطريق البحري النهري الذي يبدأ من موانىء المحيط الهندي ثم الخليج العربي ثم نهر الدجلة الأدنى ثم الفرات كي يبلغ حلب ، وكذلك الطريق البري الذي يربط بلاد فارس وبغداد بمنطقة حلب ذاتها مروراً بعقفة الفرات عند بالس[3] .

وتتألف بلاد الشام ، مثلما يتألف العراق ، من زمرة من سهول وواحات (غوطات) غنية وخصيبة ، مؤلفة من لحقيات ، أو من طمي ، جاءت بها المياه

---

(١) وتسمى الآن السرابات في منطقة منبج او القنوات الرومانية في سورية الوسطى ، وكيريز في تركيا ، وكهريز في ايران ، وافلاج في بلاد عمان على السفح الغربي من الجبل الاخضر ، وفجارات في الصحراء الجزائرية (مزاب) وقطارة في المملكة المغربية .

(٢) انظر خرائط ر. دوسو . R. Dussaud ، الطبغرافية التاريخية لسورية في العصر القديم والوسيط ، . باريس ١٩٢٧ .

(٣) او مسكنة القديمة وقد غمرتها الآن مياه سد الفرات .

المنحدرة من السلاسل الجبلية بفعل الحت والتعرية الذي قامت به الأمطار السيلية التي تخدّد السفوح وتنتقص من غاباتها . هذا وتكون المزروعات المدارية ممكنة في كيليكية بفضل الري مثل القطن وقصب السكر . اما في سهل البقاع ، أو سهل Boquée كما سمّاه الصليبيون الفرنجة ، فكانت تجود زراعة القمح . ونصادف في اقليم الغور ، وهو عبارة عن حفرة انهدامية تتعاقب فيها البحيرات ونهر الاردن وبحر الميت ، اقول نصادف فيه مرة اخرى نفس المزروعات المدارية كقصب السكر والقطن والرز الذي تعرفت عليه المنطقة في العصر الاسلامي . أما غوطة دمشق التي ترويها المياه الجارية المنحدرة من سلسلة لبنان الشرقية ، وخاصة من جبل الشيخ ، فهي عبارة عن حديقة فسيحة ، أو نوع من مزرعة أشجار تكثر فيها اشجار الجوز والكرمة والزيتون والمشمش وسواه من الأشجار المثمرة . وكانت المربيات التي تصنعها دمشق تتمتع في العصر الوسيط بشهرة عالمية ، إذ كانت تصنع من ثمار دمشقية ومن سكر سوري . وعلى الساحل تمتد زمرة من الواحات الغنية بالبساتين الصغيرة المساحة ، لأن الكتل الجبلية اللبنانية المهشمة بالصدوع كثيرا ما تهبط على البحر بصورة شبه عمودية مما لا يترك مجالاً لنشوء سهول عريضة ، ولهذا تبدو السهول الساحلية على شكل رصيف مقطع ببروزات الجبل المتقدمة حتى البحر .

وتؤوي الخلجان الصغيرة على هذا الساحل العديد من المراسي الصغيرة والتي دعيت « موانىء الشرق »[١] والتي كان يتردد عليها بالتعاقب البحارة الفينيقيون ثم الهللينيستيون ، والرومان ، والبيزنطيون ، وأخيراً المسلمون والتي كانت دور صناعتها تعتمد على أخشاب جبال سورية الشمالية ولبنان ، ويعتبر هذا الساحل واجهة بلاد الخليج المطلة على البحر الأبيض المتوسط .

أما من وجهة النظر الديموغرافية فإن سكان سورية وبلاد ما بين النهرين هم عبارة عن امتداد لسكان جزيرة العرب الساميين ، ولكنه عالم متأثر بالطابع

(١) وهي عبارة Les échelles du Levant ، ومعناها مراسي escales او الكلمة العامية اسكله وقد ترجمت خطا في بعض المؤلفات العربية على شكل « سلالم الشرق » .

السامي اكثر منه سامي بحت ، أي أصبح سامياً بأخلاقه وبلغته وبإطاراته النفسية . وهكذا يؤلف هؤلاء السكان الهامش الخارجي من العالم العربي ، او البوتقة التي انصهر فيها الساميون الذين خرجوا من جزيرة العرب على شكل موجات متعاقبة عديدة ، وآخرها كانت الموجة التي قدمت مع الفتح في القرن السابع ، فهنا استقرت الشعوب القديمة من غير الآريين جنبا الى جنب مع الآريين الذين هبطوا من القوس الجبلي الشمالي والشرقي ، أي من آسيا الصغرى ومن ارمينية ومن ايران . وأخيراً جاءت أقوام من عروق شتى من آسيا الوسطى ومن أفريقيا ، لأن هذه المنطقة عبارة عن بقعة مفتوحة ، أو منطقة انتقالية تمارس جاذبية شديدة بفعل مدنها الكبرى ، وهي مقر حضارة عمرانية عريقة جداً ، يتصف سكانها بميل للتزاوج مع الغريبات وأحياناً لتعدد الزوجات ، فكانت هذه الأقطار تستورد الرقيق من كلا الجنسين وكذلك المحاربين المرتزقة من كل لغة ولون : من زنوج وأتراك وصقالبة . واذا كان أساس السكان ظل سامياً بجوهره فقد أمكن امتصاص العناصر العديدة المستمرة التدفق وتمثلها ، وقد ازداد مخض العروق خلال الحقبة الاسلامية .

وظلت اللغة العامل الرئيسي هنا إذ يجب ان نشير فوراً الى سهولة الانتقال من لغة سامية لأخرى بسبب مبدأ الجذر الثلاثي الحروف للكلمات والذي كثيراً ما يستمر على حاله حتى ولو كان اللفظ مختلفاً .

واذا كان السوريون عاجزين في أوائل العصور الوسطى عن مد نشاطاتهم لما وراء الآفاق الشرقية بفعل « الجدار » الساساني ، والذين التفتوا الى الغرب الهمجي[1] حتى استنزفوا احتياطاته من الذهب ، فقد انفتح أمامهم الآن الميدان الاقتصادي الكبير في الشرق تحت سلطة وحيدة هي سيادة العالم الاسلامي . كما اندفعت جماعات منهم نحو بلاد ما بين النهرين ، وهنا دخل النساطرة واليعاقبة في تنافس مثلما تنافسوا في المحيط الهندي .

---

(١) ويقصد به غربي اوروبا واسبانيا وبلاد افريقيا الشمالية .

وهكذا عاد العالم الآرامي للتلاحم بين الخليج العربي والبحر الابيض المتوسط ، ومدّ باتجاه الشرق والغرب ، ولمسافات بعيدة ، شبكات قوية من جماعات متداخلة ، هي عبارة عن خلايا ذات فعالية اقتصادية وثقافية في آن واحد. ولم يتم هذا التقارب مع ذلك دون صدام ودون تنافس وصراع بين الشطر الشامي وبين الشطر العراقي .

نعم لقد كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية على حافة بادية الشام . وكانت هناك ثورات لا تهدأ تهز أركان بلاد ما بين النهرين كالكوفة والبصرة . وقد حاول آخر خليفة من الاسرة الأموية ، وهو مروان الثاني ، الذي حكم بين ٧٤٤و٧٥٠م، ان ينقل عاصمته من دمشق الى حران في الجزيرة العليا ، اي الى موقع يشرف في آن واحد على البلاد الآرامية الشامية والبلاد الآرامية البابلية . ولما انتصر العباسيون لم يكن من مصلحتهم مطلقاً اختيار دمشق كعاصمة وهي التي لا يزال يقيم فيها فلول انصار الأمويين . وقد نتج عن أشكال التأثير الفارسي ، وعن الجيوش الخراسانية ، والمستشارين القادمين من بلاد ايران الشرقية ، ولا سيما عن تأثير البرامكة ، أقول نتج ترجيح القرار الرامي لجعل العراق مقر العاصمة ، عند انفتاحه على ايران ، وهي بقعة آرامية سبق ان استقرت فيها في العصر الساساني بعض التقاليد الايرانية . وبعد عدة محاولات لتأسيس عاصمة ، وكلها في بلاد العراق ، ولا سيما في عهد أول خليفة عباسي ابو عباس السفاح ، قرب الانبار ، حيث يصب نهر عيسى في نهر الفرات ، نجح الخليفة الثاني العباسي، وهو ابو جعفر المنصور ، في تأسيس بغداد عند الطرف الآخر من نهر عيسى وحيث يصب في نهر دجلة . ولم يكن حينذاك في الموقع المختار سوى بضع قرى ودير نسطوري . وعمرت العاصمة الجديدة بالسكان الذين استقدموا اليها من سائر أرجاء الامبراطورية الاسلامية ولكن بقي الأساس السكاني آرامياً . وعن طريق نهر عيسى والفرات ، وبواسطة طريق بالس « ميناء السوريين » أصبح الوصول الى انطاكية ممكناً وكذلك الى دمشق والى القدس ، وأمكن تحقيق التلاحم بين مركزي العالم الاسلامي ، وهي بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام .

الفصل الثاني

العالم الايراني

عند مخرج العالم السامي الناطق بالعربية وبالآرامية والذي شهد انتصار اللغة العربية أقول عند مخرج منطقة البرازخ التي شهدت ، على كر العصور ، الصراع بين طرق الخليج العربي وبين طرق البحر الأحمر ، نظهر الهضبة الايرانية وكأنها عالم آخر ، تسكنها أقوام أخرى ، ناطقة بلغة أخرى ، تعيش على حضارة متباينة كل التباين •

تطوُّرُ الدَّوْرِ الإيرَانيّ

لم تنفك ايران طيلة العصر الساساني عن تكوين كتلة واحدة مع بلاد مابين النهرين • وكانت عاصمة الامبراطورية الجديدة هي سلوقية ـ طيسفون الواقعة في أرض آرامية ، ولكن جرت مبادلات عديدة في مجال الأبجدية والكلمات والتقنية والافكار بين كلتا المنطقتين • ولقد كان الفتح العربي عبارة عن قفزة سريعة لمطاردة آخر ملك ساساني ، على طول الطريق العظيم الواصل بين بلاد الرافدين وفارس وآسيا الوسطى • وبعد الاستيلاء على ممرات ومضائق جبال زاغروس أمكن احتلال مدن الواحات التي تواكب طريق القوافل الذي يحاذي وادي ديالى ، ومن ثم وقعت معركة نهاوند عام ٦٤٢[١] ومصرع آخر ملك ساساني يزدجرد الثالث في مرو عام ٦٥٢ م •

(١) اي بعد وفاة الرسول الكريم بعشرة اعوام تماما •

وشهدت حقبة الخلافة الأموية استقرار فاتحين جدد ، على شكل استيطان عسكري حقيقي ، قام بـه **الجنـد** ، وهي فرق ذات تنظيم عسكري ، أقامت في البداية ضمن أحياء شيدت الى جانب مدن قديمة ، وهي عبارة عن مدن صغيرة حقيقية ملحقة ، مع قلعتهـا ومسجدها وسوقها • وهكذا قامت مـدن جديدة مزدوجة تضم الواحدة منها المدينة الايرانية ، وهي مدينة فارسية قديمة بأبوابها الأربعة وتدعى **شهرستان** بالفارسية ومدينة بالعربية ، والى جانبها ضاحية جديدة تدعى ربض بالعربية أو بيرون بالفارسية ، وهي مدينة الفاتح العربي ، وتكون توأمة المدن هذه واضحة تماما ، ولا سيما في خراسان وفي بلاد ما وراء النهر ، في مرو وفي بخارى وسمرقند • وقد ادّى هذا الاتجاه الرّامي الى التمايز الى افتراق حقيقي بين شطري المدينة كما حدث في بلخ حيث قامت مدينة ثانية هي باروكان على مسافة بضعة كيلو مترات عنها •

وقد وفـد أوائل انصـار اسرة بني العبـاس ومستشارو أوائل خلفائهم في أوائل القـرن الثـامن من فارس الشماليـة الشرقيـة ، أي من خراسـان ومن منطقة ما وراء النهر • وهنا انتهت عملية الاحتلال العسكري لتبدأ حركة في اتجاه معاكس ، إذ أصبحت ايران مركزاً قوياً لانتشار مؤثرات بدأت تتجلى في سائر انحاء المشرق الاسلامي • فقـد انبعثت اللغة الفارسية من جديد ومعهـا الأدب الفـارسي ، فقـد كتب الفـردوسي في آخـر القـرن العـاشر ومطلع الحادي عشر كتابه **الشاهنامه** او **كتاب الملوك** ، كمـا يمكن القـول انـه كانت هناك محاولة وتطلع الى « تفريس Persanisation » أتراك آسيا الوسطى والهند عن طريق اللغة والتي امتدت حتى عصر كبار ملوك المغول •

ويظهر هذا الاتجاه في « تفريس » الفاتحين على المستوى العمراني ، إذ تلاشى التمايز وبدأ تداخل المركزين المتجاورين في المدينة • وأصبح الشهرستان مقر الحكومة ، والمركز الاداري ، اي يضم قصر الحـاكم والمكاتب ، والمركز

الاقتصادي ، اي الاسواق ، والمركز الديني ، اي الجامع الكبير . ونشأت أرباض جديدة شعبية حول هذا المركز القديم وتحت إشرافه وكأنه قد استرد مكانته السابقة ، هذا كما اصبحت الأسر الحاكمة ، المتفاوتة في استقلالها عن بغداد ، أصبحت نويّات « تفريس » لا سيما بعد أن أحاطت نفسها بحاشية وبلاط . ومنذ ذلك الوقت أصبح من الممكن الكلام عن « شتات » ايراني حقيقي على طول طرق القوافل ، سواء في اتجاه الغرب ، أو نحو الشرق والجنوب .

الأقاليم الإيرانيّة

تمتد ايران ، او بلاد فارس القديمة ، على رقعة واسعة مؤلفة من صحارى ملحية أو من سهوب قاحلة ، ومن جبال جرداء ، مع بعض البقاع الخصيبة ، هي عبارة عن واحات تنتشر فيها زراعات البستنة والحياة الحضرية . وتعتبر هذه البقاع الرطيبة بالموازنة مع السهب جنات حقيقية أو « **الفردوس** » . وتقوم في قلب كل واحة مدينة كبيرة تطيف بها ضاحية مزروعة بالاستعانة بالري بواسطة **قنوات** باطنية وذلك خشية التبخر في هذه المناطق ذات الشمس المحرقة . وشهدت الحقبة العباسية ، التي استمر خلالها تنفيذ المشاريع الكبرى من العصر الساساني، توسعاً كبيراً في المساحات المروية ، مما ساعد على استمرار وتفتح النهضة العمرانية في المدن . وقد انتشرت تقنية هذا النظام في الري عن طريق الصحاري والواحات حتى بلغت الجنوب الجزائري حيث دعيت هناك **الفجارات** والى جنوبي المغرب الاقصى حيث اطلق عليها اسم **الخطارات** ، اما الطوارق في الصحراء الكبرى فيسمونها « المشاريع الفارسية »[1] .

---

(١) H. GOBLOT, « Dans l'ancien Iran. Les techniques de l'eau et la grande histoire », Annales E.S.C., 1963, pp. 499-519.

وتتناثر هذه الواحات الايرانية عند حضيض الحافة الداخلية لهذه السلاسل الهامشية أو عند أقدام السلسلة الوسطى المائلة الاتجـاه التي تشطر ايران الى منخفضين صحراويين • ويتم هنا اقتناص المياه المتحدرة عن الجبال مبـاشرة ، وبعناية فائقة ، كي تستخدم لاستهلاك المناطق المأهولة الهامشية وهي مـدن ترتصف على شكل سبحة تقوم بوظيفة محطات على طرق القوافل • وتتجول فوق هذه الطرق الجمال الضخمة ذات السنامين التركستانية ، والتي كانت تربى في منطقة بلخ ، احدى عواصم خراسان ، وكذلك الخيول الايرانية القوية ، القادرة على حمل الفرسان المدرعين والمفرطي التسليح اي « **الاساورة** » من الذين كثيراً ما نرى رسومهم ممثلة فوق نقوش الاوابد الساسانية • وكان مربو الخيول من اكراد ولوريين Lours يقطنون حافة الهضبة الايرانية المشرفة على سهول بـلاد ما بين النهرين • وهكذا كانت بلاد كردستان ولوريستان عبارة عن بلاد بداة ، ومستقلة دوماً عن الدول الكبرى المنتظمة إدارياً وبيروقراطياً والقائمة في السهل كالإخمينيين والسلوقيين والبارثيين Parthes والساسانيين والخلفاء المسلمين فيما بعد ، وهي دول ذات تنظيم انضباطي في السهول السفلى ، وكانت شعوب الجبال هذه تهدد هذه الدول المذكورة بغاراتها[1] ، وهكذا قامت منطقة عازلة تقوم فيها حياة رعوية وهمجية كانت تمتد ، ولا زالت حتى اليوم ، بين سهول ما بين النهرين وبين هضبة ايران •

وهناك ثلاث ثغرات تجعل اجتياز هذا النطاق الجبلي ميسوراً ، اي ثلاثـة طرق تحرسها القوات النظامية • اولا في اتجاه أرمينية حيث يقود وادي الدجلة ووادي بتليس مروراً بجزيرة ابن عمر الى بتليس واخـلاط • ثانياً الى ايران بواسطة الطريق الكبير الذي يبدأ من بغـداد سالكاً وادي ديالى والمؤدي الى كرمنشاه وهمذان ومنها باتجاه زنجان وآزربيجان وارمينية وطرابزون أو نحو أرّان ودربند وأتل ، أو يقود بعد اختراق اقليم الجبال حتى الري ، اي طهران ،

(١) لا زالت هذه الاقوام تشكل شوكة في خاصرة كل من ايران وتركيا والعراق حتى ايامنا هذه •

ومنها الى آسيا الوسطى عبر خراسان • وثالثاً : هناك طريق يصل بغداد بخوزستان (دزفول) والى بلاد فارس (شيراز) •

وكان هناك نطاق عازل مماثل مؤلف من سكان بداة جبليين قبليين يتألفون من الأفغان والبلوش وهم الذين أسكنهم الساسانيون هنا بعد أن قدموا من آسيا الوسطى ، ويحيط هذا النطاق بإيران من جهة الجنوب الشرقي • ولم تكن الطرق التجارية والاتصالات الحضارية اكثر من شرطان ضيقة تحرسها قلاع حصينة مثل بلخ وهراة وقندهار وغزنة وكابل •

وهكذا علينا ان نميز في ايران بين الحافة الجبلية والجعدات الجبلية الوسطى المأهولة بالرعاة البداة ، وبين المنخفضات الصحراوية وخط الواحات الهامشية التي تمتد سواء نحو الداخل عند أقدام الحافة الجبلية أو نحو خارج هذه الحافة الجبلية ، أو ايران الخارجية ، وتتألف من خوزستان وأرّان (اي بلاد ما وراء القفقاس) اي جنوبي سلسلة القفقاس ، وطبرستان الممتدة بمحاذاة الساحل الجنوبي لبحر قزوين ، أو من واحات آسيا الوسطى كإقليم ما وراء النهر وخوارزم المؤلفة من دلتا نهر اوكسوس (آموداريا) عند مصبه في بحر آرال •

وقد أقامت الامبراطورية الساسانية على ثغورها أربع حكومات كبيرة مدنية أو عسكرية « اصفهباد isphebed » وهي آزربيجان في الشمال الغربي ، وفارس في الجنوب الغربي ، وسجستان في الجنوب الشرقي وخراسان في الشمال الشرقي• وكانت تنطبق هذه على الاتجاهات الكبرى الأربع ، لأن باب آزربيجان ينفتح على أرمينية والقوقاز ، ويطل باب زاغروس على بلاد ما بين النهرين في حين يؤدي باب قندهار الى الهند بينما يقود باب خراسان الى السهب الطوراني وآسيا الوسطى والصين • وقد احتفظ العباسيون بهذه التقسيمات الكبرى للاقاليم الايرانية •

آزربيجان

آزربيجان قطرجبلي يؤلف استمراراً لأرمينية ويشكل مرحلة انتقالية نحو الهضبة الايرانية ، وهو اقليم جبال قاحلة من الداخل ، تقوم بتوزيع الرطوبة نحو المنخفضات ، المؤلفة من احواض سهبية تبدو خصيبة بمجرد أن يتوفر لها مـاء الري • وآزربيجان أيضاً منطقة عبور تخترقها الطرق نحو أرمينية حتى طرابزون، ونحو همذان وبلاد ما بين النهرين ونحو الري وآسيا الوسطى • ويكون دورها التجاري هاماً جداً ، إذ تقوم أسواق هامة في تبريز • وإلى الشمال من آزربيجان تؤلف مدينة بردعة في أقليم أرّان ثغراً ايرانياً متقدماً في جنوب غرب ممر دربند • أما باب الأبواب فهو ينفتح في سور ملاط حجارته من رصـاص مصهور ، أقيم لصدّ غارات الخزر والأمم الطورانية •

اقليم جنوب بحر قزوين

هناك حاجز جبلي ضيق ولكنه مرتفع يفصل ايران عن جنوبي بحر الخزر ، هي كتلة جبال البورز ، حيث يرتفع بركان يمتطي الالتواءات الجبلية ويسمو إلى زهاء ٦٠٠٠ م في ذروة ديمافند • وتكون أقدام جبال البورز الجنوبية محفوفة بواحات هي عبارة عن محطات على الطريق الذي يمر من زنجان وقزوين والري ودمغان وبسطام • وأهم هذه الواحات هي الري • وهناك نهر صغير ينحدر الى بحر قزوين هو قيزيل أوزن يجتاز السلسلة ويواكب الطريق الذي يقود من الهضبة الى ميناء عامول على بحر قزوين • وكانت مدينة الري اكبر مستودع للبضـائع على طريق ذهاب القوافل وإيابها باتجاه خراسان وبغداد ونحو فارس • وقـد اشتهرت هذه المدينة ببهاء القيشاني الذي يصنع فيها وكانت لها أهمية عظيمة • وقد اندثرت هذه المدينة في القرن الثالث عشر بعد غزوات المغول وقامت طهران وهي ربضها لتحل محلها • ولكن مدينة الري لعبت دوراً متفوقاً في القرن الثامن الى الحادي عشر حتى ان ابن خرداذبة أشاد بها في القرن التاسع • وكان يقصدها

التجار الروس ، اي الصقالبة والاسكندينافيون ، ويجلبون اليها السيوف والفراء والرقيق • وهؤلاء الروس أو المجوس هم الذين قاموا أيضا بغارات بقصد النهب، كما حدث في سنة ٩١٣ و ٩٤٤ على مدينة بردعة •

وإلى الشمال من جبال البورز يمتد على ضفاف بحر قزوين نطاق ضيق من الطمي وحيث لا نعثر سوى على القليل من المراسي الطينية بسبب عملية الإطماء المستمرة ، ويجعل المناخ الرطيب والحار والوخيم من اقليم طبرستان « بلاد الحمّى » • ويمكن قول نفس الشيء بالنسبة لجيلان ومازاندارن والديلم • أما النبات البهيج المؤلف من غابات وأدغال كثيفة فيؤوي النمور والفهود • وظلت منطقة الديلم لمدة طويلة تلعب دور مخزن رجال استخدموا كرقيق أو كمرتزقة في الحرس الخليفي •

ولم تتوطد أركان الإسلام في الديلم الا" في أواخر القرن التاسع ولا سيما بتأثير الدعاية العلوية • ومنذ نهاية الحقبة الساسانية بدأت تظهر هنا بعض المزروعات كالقطن والرز وقصب السكر والبرتقال والتوت لتربية دودة القز • وقد منحت الخلافة الاسلامية هذه المزروعات الغذائية والصناعية دفعة جديدة الى الأمام امتد أثرها الى الحركة العمرانية • ويجدر بنا أن ننوه بأن هذه المنطقة كانت مرحلة في طريق مسيرة تربية دود القز ابتداءً من آسيا الوسطى باتجاه **آزربيجان** ، وأران ، وأرمينية في حين كان هناك طريق نفوذ آخر يسلكه فن تربية دود القز حتى شمالي بلاد الشام في عهد الامبراطور جوستينيان الأول في القرن السادس ، ومن هناك انتشرت في كل المناطق الموائمة لها في كل عالم البحر المتوسط في العصر الاسلامي •

خراسان

تضم خراسان بضع سلاسل جبلية تربط كتلة البورز بهضبة بامير ، ولكنها ذات ارتفاعات أقل بكثير من الكتلتين الجبليتين المذكورتين إذ لا ترتفع قممها لأكثر

من ٣٠٠٠ م • وتتعاقب هنا عدة منخفضات بين الالتواءات الجبلية بحيث يكون المرور فيها ميسوراً ، ولا سيما على طول طريق الحرير الطويل باتجــاه آسيا الوسطى والذي هو في الوقت نفسه طريق الغزوات الكبير القادمة من الشــرق والذي سلكته جحافل المغول والترك • وتقوم خراسان بحماية بلاد ايران مــن الشرق مثلمــا تقوم آزربيجان بحمايتها من الغرب ، وكــان التنظيم العسكري (مرزبان) وطيد الأركان بقوة فيها • فمن هنا انطلقت الدعوة العباسية التي كان يدعمها جيش خراساني • وتنتشر عند أقدام الجبال مدن تحيط بها واحات تضم مزروعات غنية من قطن ورز ولا سيما الحبوب • ويعتبر خراسان الغربي ، أي منطقة نيسابور وطوس (مشهد) عنبر غذاء كل ايران الشرقية • وتكون المدن على قدر كبير من الأهمية تبرز منها ، استناداً للروايات الفارسية التي يذكرهــا الفردوسي في كتاب الملوك ، الشاهنامه ، تبرز ثلاث مدن رئيسية أسسها أورموزد وهي بلخ أو Bactres ومرو أو Margiane وهــراة أو Aria • ويجب ان نضيف الى هذه المدن الثلاث نيسابور Naw Sapur أو شابور الجديدة •

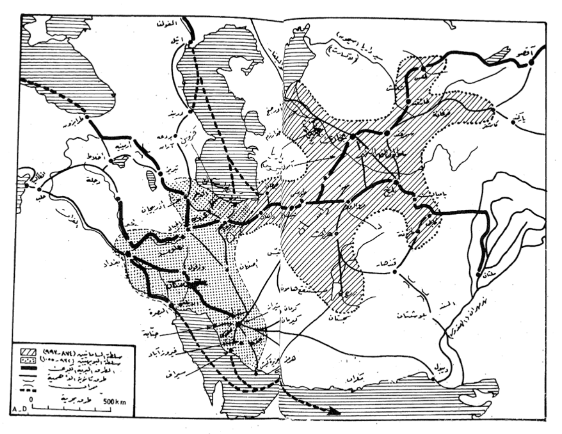
وتقع بلخ تجاه مجازات نهر اوكسوس ، او سيحون ، او آموادريا مثــل موقفي تيرميــد وكاليف وبلاد ما وراء النهر وعنــد حضيض ممرات جبــال هندوكوش ، مثل ممر باميان وممر كابل ، وممر بيشاور : وهي الممرات التي تفتح الطريق الى الهند مرورا بقندهاره وكابيصه ، وهما مملكتان اغريقيتان بوذيتان حيث اختلطت المؤثرات الهندية والايرانية • ومن هنا كانت تمر الطرق التجارية بين ايران من جهة وطوران والهند من جهة أخرى ، ولكنها طريق الغزوات أيضا التي يسلكها المبشرون والمؤثرات من أي نوع كان • وقد كان هذا بشكل خاص الطريق الكبيرة لدخول البوذية انطلاقاً من الهند ، في اتجــاه آخر كان طريق الحجاج القادمين من الصين مثل هيوانتسانغ (٦٢٩ ـــ ٦٤٥) • وتظهر عند ممر باميان تماثيل هائلة لبوذا منحوتة في جرف صخري ، وكانت تقوم في مدينة بلخ ، الواقعة على الطريق نفســه ، بلدة رهبان حقيقية كانت تدعى نوفايا فيرايا أو

« الدير الجديد » يشرف عليها راهب اعظم أو باراماكا Paramaka • وبعد الفتح الاسلامي اعتنق الكاهن المذكور الإسلام وحلّ كل أوقاف وممتلكات ديره • ومن نسل الكاهن المذكور تنحدر أسرة البرامكة الذين كانوا وزراء اوائل خلفاء بني العباس • ودخلت الى بغداد مع هؤلاء تقاليد من ايران الشرقية ومن الهند ومن الصين • وشاع استعمال الورق رسمياً في دوائر الدولة على يد جعفر البرمكي الذي أقام أول مصنع للورق في بغداد عام ٧٩٤ ــ ٧٩٥ في عهد هارون الرشيد ، وكان ذلك بداية لسلسلة طويلة من المصانع التي انتشرت في معظم أرجاء العالم الاسلامي • وتشير المصادر الى انتاج اول ورق مصري في عام ٧٩٦ م •

أما مرو (انطاكية مرجيان) فهي واحة في قلب الصحراء ، ومحطة هامة على طريق القوافل بين ايران وبلاد اوكسوس Oxus ، وهي نوع من مدينة تماثل تدمر في دورها • وكان يتم عبور نهر آموداريا ، أو نهر آمول ، عند تشارجوي (آمول) في اتجاه بخارى وسمرقند •

هذا وكانت نيسابور باب ايران الشرقية ، كما كانت تبريز باب ايران الغربية ، ولهذا توطدت منزلتها كمدينة تجارة كبيرة • وبعد تدهور مكانة بغداد في القرن الحادي عشر اصبحت نيسابور أكثر أهمية منها اقتصاديا وسكانيا • وهكذا أصبحت عاصمة لأسرة جديدة هي اسرة ملوك السلاجقة • وبعد أن خربها المغول في القرن الثالث عشر لم تعد اليوم اكثر من بليدة صغيرة لا يزيد تعداد سكانها على ١٢٠٠٠ نسمة • وحلت مشهد (طوس القديمة) مكانها والتي تحتفظ بضريح الامام الرضا ، وهو حرم المذهب الشيعي الفارسي • ويضم الجبل الواقع بين نيسابور ومشهد مكامن معدنية هامة كالفضة ولا سيما الرصاص •

وهناك زمرة من انهار تنحدر نحو غربي سلاسل باروبا ميزاد Paropamisades ، وهي حافة جبال هندكوش ، وهي جبال جرداء يكون حضيضها صحراوياً وتنصرف مياهها نحو أودية خصبة • وهكذا تقع مدينة هراة (اسكندرية آسيا) على نهر هاري رود ، وهي مدينة تجارية كبيرة على الطريق



شكل ٣ سال الإيراني

شبه الدائري الـذي يمر من بلخ ومرو وهراة وقندهار وغزنة ويطوق جبـال هندكوش من الغرب كي يتصل بالسهول الحوضية الواقعة في سافلة كابل ووادي الهندوس • وتعتبر هذه المنطقة هامة ايضا لمكامنها المعدنية ، ولا سيما الحديد ، الذي تقع مناجمه قرب هراة والـذي يعالج حسب الطريقة الهنـدية في صنع الفولاذ في البوتقة للحصول على سبائك وأسلحة بقصد التصدير •

سجستان

تنقسم سجستان الى قسمين : اولاً الحافة الجنوبية لجبال هندكوش حيث يمر الطريق الذي يربط قندهار بهراة ، ومرو ببلخ ، وهو موقع متميز للاتصالات الكبرى • أما قندهار ، أو إسكندرية آراكوزية Aracosie ، التي ترويها مياه الجبال ، فهي نقطة انطلاق الطريق الذي يتصل بالهند باتجـاه الجنوب الشرقي وينتهي بسهل كندابيل الذي يعتبر منطقة هامة لتربية الإبل من ذات السنامين • ومن ناحية اخرى فإن الحوضة الصحراوية الواقعة حول سبخة مركزية هي بحيرة هامون ، والتي تكون اطرافها صالحة للزراعة بواسطة الري وحيث تصب بهـا أذرع دلتـا كبيرة تتحرك مواقعها باستمرار ، وحيث تنتقل المسـاكن بصورة مستديمة •

وهنا تقع ميادين تنقيب رائعة مغطاة بطبقات رقيقة من الطمي وحيث أمكن العثور على لقى ثمينة • وتعتبر المنطقة خصيبة وذلك لوجود شبكة واسعة مـن مشاريع الري • ويزرع هنا القمح حتى ان هذه الواحة تعتبر عنبر غلال بـلاد الشرق الجنوبية الشرقية ، هذا كما تسمح مراعيها الفسيحة بتربية البقر الهندي ذي السنام أو بقر الزيبو • وقد كانت المنطقة مأهولة بالكثير من السكان ومزدهرة ولا سيما حول زرنج ، غير أن تيمورلنك خرب المدينة سنة ١٣٨٤ وأتلف شبكة الري فيها • وبعد قليل أخذت البلاد تتجه نحو الانحطاط ، وهنا ندرك مـدى سرعة عطب ازدهار اقتصادي قائم على منظومة ري تستدعي الصيانة باستمرار وعملا يكون بالضرورة جماعيا وخاضعا لاشراف دقيق •

مكران

تقع مكران في أقصى الجنوب من ايران على ساحل بحر عمان . وهي بلاد صحراوية يكاد يكون من المتعذر اجتيازها . وتقوم فيها سلسلة من الأعراف الجبلية ، النادرة الممرات ، تقوم بعزل ظهير هـذه المنطقة عن موانىء الصيد الصغيرة ، وهي عبارة عن محطات بحرية على الساحل بالنسبة لخطوط الملاحة بين الخليج العربي وشمالي الهند . وينمو في هذه الواحات الساحلية النخيل والقطن ، وكانت تلعب دوراً مرموقاً كمحطات لانتقال زراعة قصب السكر من الهند باتجاه بلاد ما بين النهرين . أما في الداخل ، اي خلف السور الجبلي فيمر الطريق الذي يقود من فارس الى وادي الهندوس الأدنى ، من خلال منطقة جافة غير مسلوكة كثيراً ، تقطنها جماعات شبه همجية من البلوش . ومع ذلك مرت من هنا أوائل الجيوش الاسلامية لاجتياح وادي الهندوس .

وبعد فتح كرمان وسجستان (٦٣٤ ـ ٦٤٤ م) جرت أول حملة ضد مدينة ديبول لم يحالفها التوفيق . ولكن في عام ٧١٢ قام القائد محمد بن القاسم ، الذي أرسله الحجاج حاكم العراق من طرف الأمويين ، بحملة تكللت بالظفر المبين بعد أن سلك طريق مكران حتى ديبول وصعد في نهر مهران (الهندوس) حتى مدينة ملتان . وفي عام ٨٧٢ م اتحدت ولاية السند مع الولاية التي كان يعقوب بن الليث الصفاري قد اقتطعها لنفسه في بلاد ما وراء النهر وخراسان وسجستان وكرمان ، وهو اتحاد كان يضم بالتالي سائر ايران الشرقية وبلاد ما وراء النهر والسند ، اتحاد اصبح يخضع لفترة من الزمن لأسرة حاكمة شبه مستقلة عن بغداد .

كرمان

بين اقليمي مكران وفارس يزداد تراص الالتواءات الجبليـة التي تؤلف الحافة الجنوبية لهضبة ايران مثلما تقل ارتفاعاتها ، مما يسمح بوجود ممر ميسور

باتجاه الداخل ، تلك هي بلاد كرمان التي هي عبارة عن منطقة تنفصل عن عمان بمضيق هرمز الذي تتناثر فيه الجزر والمراسي ، وعمان هذه هي زاوية من الركيزة العربية ، او الترس العربي عند الجيولوجيين • وكان ميناء كيش (قيس) اكبر ميناء في الخليج العربي ، ولا سيما ابتداء من القرن الحادي عشر ، وهو العصر الذي احتل فيه مكانة ميناء سيراف الذي دمره زلزال رهيب في بداية القرن المذكور • ومن هرمز كانت تنطلق الطرق نحو ظهير المنطقة ، أي نحو شيراز وفارس ونحو كرمان وما وراءها مثل طاباس ونيسابور ، ونحو زرنج وما وراءها في اتجاه هراة وبلخ • وهكذا كان القرن الحادي عشر العصر الذهبي بالنسبة لميناء هرمز ولمدينة نيسابور • أما بالنسبة للبرتغاليين فقد كانت عدن سنة ١٥١٣ وهرمز سنة ١٥١٥ المركزين الستراتيجيين لتجارة المحيط الهندي •

وتقدم بلاد كرمان ، التي تدعى كرامانية Karamanie عند بطليموس وسترابون ، تقدم دوماً نفس تسلسل الواحات التي تتعاقب عند حضيض الجعدات الجبلية الطويلة والتي تقطع الهضبة الايرانية بشكل مائل ، اي على صورة وتر ، وتتألف من واحات المنطقة الحارة ، إذ تقوم فيها المزروعات تحت ظلال النخيل مثل الرز والحنة والنيلة • وتتقدم واحات النخيل شمالاً حتى طاباس التي كانت تحوي في ذلك العصر ١٠٠٠٠٠ نخلة • وتمارس هنا تربية الابل بفضل النجعة من المراعي الصحراوية شتاءً الى المناطق الأقل حرارة في المرتفعات خلال الربيع • وتؤدي مكامن الفلزات المعدنية في خاصرة الجبل لقيام نشاط صناعي حرفي ضخم كاستخراج الحديد وتصنيعه وكذلك الرصاص والنحاس • وتقدم جذور وآرومات شجر الطرفاء الفحم الضروري لأفران الصهر ولانتاج الفولاذ الهندي كما في مدينة هراة • وقد تكلم الرحالة البندقي ماركو بولو عن مناجم الهندواني، وهو الفولاذ الهندي[1] • وكانت المراكز النسيجية في المنطقة تعتمد على أصواف

---

(١) ماركو بولو • وصف العالم • نشر وترجمة آ•ك • مول و ب• بلليوت ، لندن ١٩٣٨ • ص ١١٨ بالانكليزية •

قطعان الأغنام وأوبار الإبل وشعر الماعز • وكان يتم بصــم المنسوجات بقوالب خشبية منقوشة حسب الاسلوب الصيني الهندي ، والذي كان شائع الاستعمال في المدن الكبرى المجاورة في اقليم فارس •

فارس

تؤلف جبال فارس امتدادا لجبال زاغروس ولكنها أقل ارتفاعا وتعقيدا • فتظهر أودية طولانية مغلقة محصورة بين الأعراف المتوازية التي تجتازها ممرات مرتفعة • وعليه نستطيع تمييز ثلاث مناطق في اقليم فارس :

ــ الساحل حيث يسود جو حار رطيب ، رهيب ووخيم ، ويحف به مــن طرف البحر ساحل منخفض تكثر فيه الرمال والحصويات ، تتن الرائحة ، ومشبع بالنفط • وتقوم بعض المراسي التي تلعب دور موانىء لتجارة الخليج ، وتتصــل بالداخل بصورة رديئة ، مثل جزيرة كيش (قيس) وسيراف ، وجنّابه • وكانت سيراف على الخصوص تقوم بدور مستودع كبير للسلع بين بلاد الرافدين وبين الهند ، فضلاً عن انها مركز هام لتوسيق السفن وتجهيزها ، وحيث كانت تقوم دار صناعة لبناء السفن التجارية الضخمة بالاستعانة بخشب مستورد ، هو خشــب التك المجلوب من ساحل الهند الغربي ، والذي كانت تصنع منه سفن الخليج ومراكب جنوبي الجزيرة العربية والبحر الأحمــر وحتى بعض قطع الاسطول المصري • وتقع أهم حقبة لنشاط ميناء سيراف في القرن العاشر على الخصوص ، حيث كان يحتل المكانة الثانية بعد البصرة ويليه ميناء هرمز • ويبدو تحول المراكز البحرية الكبرى في الخليج مثل زمرة البصرة والأبلّة وعبادان ، ثم سيراف ، ثم هرمز ثم جزيرة كيش ، أقول يبــدو هــذا التحول متعلقــاً بالهزات السياسية والاقتصادية ، كحركة القرامطة ، والصراع الساماني البارلوكي ، وانحطــاط بغداد وازدهار نيسابور •

وتنهض الى الشرق من الساحل بلاد تكثر فيها الفجاج ، تقطنها جماعات من بدو الجبال ، من مربي الخيول والجمال ويعملون في مهنة النقل بواسطة القوافل،

وهم في الوقت نفسه رعاة أغنام والتي تعتمد المراكز النسيجية في اقليم فارس على أصوافها . وهنا تكون نجعات القطعان بحثاً عن المراعي ايضا منتظمة حسب الفصل ، فتنتقل بين الأراضي الحارة الساحلية باتجاه المناطق المنعشة في بلاد فارس نفسها عن طريق منطقة الفجاج . وتتألف بلاد فارس من منخفضات مغلقة مرتفعة تتنافر مع المشهد الموحش الذي يسود على الهضبة بالموازنة مع المنظر الفردوسي في الواحات المروية . وقد غنى الشاعر سعدي في ديوانه غوليستان ، أو بستان الورود ، وأطرى جمال حدائق شيراز في القرن الثالث عشر : وهي بساتين رطيبة ، تجود فيها زراعة الخضار والورود ، ومزارع الأشجار والكروم التي تنتج خموراً مشهورة ، وقد نقلت غراسها الى اسبانيا حيث تأقلمت وانتجت خمور شرش Jerez الشهيرة . وهنا قامت منذ أقدم العصور حضارة مستقرة في مدينتي برسيبوليس وباسارغادس . ومن هنا ، من قلب بلاد فارس الايرانية العريقة ، انطلقت أول حركة « تفريس » في العصر الوسيط بزعامة السامانيين . وانطلقت الحركة الثانية من خراسان ، اي من ايران الشرقية ، في العصر العباسي ، ولكنها كانت مشحونة بعناصر أخرى ، من هندية وصينية ، وأقل صفاءً من السابقة .

وبلاد فارس هي قبل كل شيء مركز نسيجي كبير ، وهو أهم أمثاله في كل العالم الاسلامي بالاضافة الى مراكز النسيج في خوزستان وفي الدلتا المصري . وقد توطدت هنا التقاليد الايرانية القديمة ، ولا سيما فن التطريز بالابرة ، وإغنائه بقطع معدنية ، وبالحجارة الكريمة وباللآلىء ، وهو القماش المسمى **سوسانجرد** . ولكن دخلت تقنيات جديدة مستوردة من مصر ومن ارمينية في العصر الاسلامي ، فكانت تصنع هنا أقمشة **الدابقي** ، نسبة الى دابق في مصر ، والزرابي الأرمينية . وكانت تتناثر حول شيراز زمرة من مراكز نسيجية صغيرة : مثل فاسا ، ودرابجرد ، وفيروز آباد أو جور ، التي كانت تنتج ماء ورد يسمى « الجوري » وكان يصدر لسائر انحاء العالم المعروفة[1] .

---

(١) لا زال الورد الجوري يتمتع بشهرة كبيرة في منطقة حلب لرائحته الشذية .

نعود الآن الى نقطة انطلاقنا ، إلى حافة زاغروس ، عن طريق منطقة جبلية غليظة يزيد طولها عن ١٠٠٠ كيلو متر وعلى ٢٠٠ كيلو متر عرضاً ، وهي نوع من سلسلة كثيفة ومستمرة ، مؤلفة من التواءات ضخمة متوازية ، كانت تحمل في الماضي إسم إقليم الجبال في أيام الخلافة العباسية • وهناك نهر واحد هو نهـر ديالى ، يدفع برأسه للداخل بصورة متعامدة مع اتجاه الطيات ضمن سرج لعب دوراً هاماً كطريق مواصلات بين الهضبة الإيرانية وبين سهل ما بين النهرين • وتقع بغداد عند مخرج هذه الطريق الطبيعية وكأنها رأس جسر ايراني في عـالم آرامي ، مثلما كانت سابقتها طيسفون ـ سلوقية ، من قبل ، في عهد الساسانيين ، ولكن مع أبعاد أعظم في هذه المرة • وهكذا كانت تنفتح المدينة المستديرة ، بغداد ، بأبوابها الأربعة التي تحمل الاتجاهات الأربع الرئيسية ، على مواصلاتها الخارجية : فمن الشمال الشرقي يقع باب خراسان ، ومن الجنوب الشرقي باب البصرة ، ومن الجنوب الغربي باب الكوفة ، ومن الشمال الغربي كان باب الشام• وكان طريق خراسان هو طريق الظفر الذي سلكته أسرة العباسيين الجديدة ، وهو الطريق القديم التاريخي الذي يمر من كرمنشاه ، ومن بهستون ، ومن نهاوند حيث خاض المسلمون معركتهم الحاسمة ضد الجيوش الفارسية مما سمح لهـم باقتحام الطريق الى همذان (اكباتان) • ويجتاز هذا الطريق بعد كرمنشاه ممراً على ارتفاع ٢٣٤٠ متراً ، هو ممر زاغه ، ثم ينحدر على الحافة الشرقية للسلسلة الجبلية باتجاه همذان فوق هضبة تذهب منها الطرق باتجاه الري وزنجـان • وتتألف الحافة الداخلية لهـذه الحزمة الجبلية السميكة من سفوح صخريـة موحشة • ومع هذا تظهر بعض الواحات عند مخارج أودية الانهـار الصغيرة الهابطة من الجبل مثل همذان وأصفهان والتي ترتبط بطرق القوافل مع بـلاد فارس جنوباً ومع الري وهمذان باتجاه الشمال ، وتقعان كلتاهما على الطريق الكبرى الواصلة بين همذان وبلاد الرافدين •

ويعتبر اقليم الجبال ولاية ذات أهمية حيوية بالنسبة للمواصلات باتجاه ايران في أيام الخلافة العباسية ، فقد وصف ابن خرداذبة الذي كان صاحب بريد الجبال في عهد الخليفة المعتمد (٨٧٠ ـ ٨٩٢ م) وصف لنا في مؤلفه « كتاب المسالك والممالك » الطرق الكبرى التي تشع من حول بغداد • وقد كان صاحب البريد هذا موظفاً هاماً وكان بالضرورة واسع الاطلاع ، إذ كان يراقب البريد الرسمي ، مثلما كان يراقب الموظفين الآخرين ، ويظل على علاقة مباشرة مع الدوائر المركزية • ويسمح كتاب ابن خرداذبة الذي هو عبارة عن تجميع معلومات لفائدة موظفيه ، يسمح لنا بالتعرف بصورة دقيقة جداً على شبكة الطرق في ذلك العصر •

التخوم والطرق

عقدة طرق آسيا الوسطى

تؤلف عقدة آسيا الوسطى خلفية حضارة العصر العباسي واقتصاده • فكانت طرقها النجمية الشكل تمنح هذه المنطقة قيمتها ، والتي ليس لها أي دور في توسع عالم الاسلام ، بل اقتصر دورها على توسيع رقعة مجاله الاقتصادي • فكانت مدنها القائمة في قلب واحات ذات شبكات ري متقنة تعيش أوج ازدهارها في عصر الساسانيين ، وخاصة في اقليمي خراسان وخوارزم ، مثلما كانت مأهولة بتجار أغنياء ، أقاموا شبكة علاقات واسعة ، ويتكلمون لغة تجارية هي اللغة الصغدية • وقد بلغ نشاطهم ذروته بعد استتباب السيطرة الاسلامية• وقد استقرت جاليات من التجار في كل من بلخ ومرو وبخارى وسمرقند وكاشغر ، وراحت تتزايد كثافة المبادلات بين الاشخاص والسلع والأفكار والتقنيات • وهكذا راحت تتقابل المؤثرات المختلفة كي تنصهر فيما بعد في مدن الواحات الإيرانية ، وهي عبارة عن « جزر » عمرانية معرضة على الدوام لغارات البدو الطورانيين • وكانت تقوم

أسوار يصل طول محيطها لعدة مئات من الكيلومترات لحماية كل الواحة بما في ذلك المزروعات ، كما في بخارى وسمرقند ودربند في العصر الساساني ، شأن السور العظيم في الصين ، أو سور شبه جزيرة القرم في عهد الامبراطور الروماني جوستينيان • ولكن هذه الاسوار لم تكن ناجعة أمام الاجتياحات الكبرى • وقد أقام المسلمون في مشارف آسيا الوسطى الشرقية والشمالية مراكز منعزلة ، هي الرباطات ، وهي نقاط هجوم ودفاع متقدمة ، أو نوع من ثغور تحت حماية المجاهدين • ومن هذه المراكز انطلقت دعوة الإسلام خلال سهوب آسيا الوسطى وعبر صراعات مريرة بالحديد والدم ، وهو أمر يماثل الى حد ما الحملات التوتونية الجرمانية في الاقطار السلافية ، فقد ظلت فرغانة ، لفترة طويلة ، تحت نفوذ حكام الطانغ الصينيين الذين أدخلوا اليها فن صناعة الورق وفن بصم الأقمشة بالخشب • ولكن معركة طلس عام ٧٥١ م وضعت حداً لتسلل النفوذ الصيني ، وفي نفس الوقت أخذت قبائل تركية في التقدم وسرعان ما هيمنت بحيث أصبحنا نشهد « تتريكاً » تدريجياً وحقيقياً عن طريق اللسان •

وإجمالاً كانت تتحقق في آسيا الوسطى ثلاثة أشكال من الاندفاع : الاول صيني من حيث التقنيات ، والثاني اسلامي من حيث الدين ، والأخير تركي من حيث اللسان • وقد استطاعت القبائل التركية خلال القرنين الثامن والتاسع ان تنتشر وتهيمن على مناطق طلس والشاش وفرغانة وكاشغاري • وفي القرن الحادي عشر اجتاحت القبائل المذكورة بلاد ما وراء النهر ثم كل ايران الشرقية وتقدمت حتى بلاد الشام والاناضول حيث أسسوا الامبراطورية السلجوقية • ولكن الاتراك البداة تأثروا حتى الأعماق بالحضارة الايرانية التي نقلوها حتى الحدود الغربية لفتوحاتهم مع اضافة بعض عناصر الفروسية التركية البحتة • ونستطيع القول ، دون أن نتهم بالخطأ ، بأنه كانت هناك مراحل في « تفريس » الأتراك •

أما من الناحية الدينية فقد ظلت جحافل الغزاة الاتراك حتى نهاية القرن

التاسع من عبدة الأرواح والطبيعة أو مانويين(١) ، مثـل الويغور ، أو كانوا نساطرة ، مثل الكارائيين في بداية القرن الحادي عشر • وقـد كانوا متسامحين تجاه ديانات المدن الايرانية القديمة التي ظلت متشبثة بالبوذية والمزدكية والمانوية والنسطورية أو اليهوديـة ، ولكن ابتـداءً من أواسط القرن العاشر أخـذ السامانيون على عاتقهم مهمة نشر الإسلام بين ظهراني هذه القبائل التركية •

وقد حدثت حركات شعوب هامة وعديدة بين ايران والسهب التركي ، اي في المنطقة التي انسحب منها النفوذ الصيني في وجه الاسلام بعد معركة طلس Talas • فقد أخـذ التيبيتيون البوذيون يزحفون شمالاً ، مثلما راح الأتراك ينساحون جنوباً ، فاندفع الويغور المانويون والكارلوق ، عبدة الأرواح ، والغز ، فبلغوا خوارزم • وقد شكلت هذه الأقوام قبل أعتناقهم الاسلام مصادر هامـة للرقيق ، أو كما تسمى بلاد الاتراك ، حيث كان يقصدهم النخاسون كما كانت تشنّ عليهم حملات حقيقية ابتداء من الرباطات للحصول على فتيانهم •

وفي أواخر القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر اعتنقت احدى عشائر الغز الضاربة حول ضفاف نهر سيرداريا الاسلام وشكلت أول أسرة تركية حاكمة مسلمة ، وهي أسرة القره خانيين ، وفي أواخر القرن الحادي عشر اعتنقت عشيرة أخرى الاسلام وألفت سلطنة السلاجقة التي أصبحت حاكمة خراسان بعد سقوط السامانيين • وقامت قبيلة تركية أخرى ، هي الكبتشاك ، باحتلال جنوبي الروسيا سنة ١٠٥٤ م وطردت منها قبائل البتشناق حتى البلقان(٢) • وجاء مـن ورائهم البولافتز ليقطعوا طرق الأنهار الروسية •

الطرق نحو السهوب الأوراسية

كانت الاتصالات تتم مع سهوب اوراسيا ، بشكل خاص ، بواسطة مجرى

(١) المانوية مزيج من المسيحية والوثنية الشرقية •

(٢) البتشناق : قوم من الاتراك اقاموا في القرن التاسع على ضفاف البحر الاسود بين مصب الدانوب والدون • وبعد ان كانوا حلفاء بيزنطة اصبحوا خطرين على الامبراطورية الاغريقية وابيدوا بين القرن الحادي عشر والثاني عشر •

نهر الفولغا الذي كان يسيطر عليه الخزر ابتداءً من مدينة اتيل على بحر قزوين ، وبواسطة نهر الدنيبير الذي يسيطر عليه الروس ، وعاصمتهم كييف . وبصعود هذه الأنهار شمالا نصل الى الغابة الشمالية التي كان يتشبث البلغار على هوامشها، وهم قوم من الأتراك الذين لم يبلغوا بعد مرحلة الاستقرار تماماً . وكانت مدينتهم بلغار الواقعة على مقرن نهر الفولغا مع نهر الكاما على حافة الغابة ، ولم تكن تعمر بالسكان الا في فصل الشتاء ، والى جوار هذه المدينة قامت فيما بعد مدينة قازان . وقد اعتنق سكان مدينة بلغار الاسلام في وقت مبكر ، وهي المدينة الرئيسية في مملكة بلغاريا الكبرى .

هذا وقد كان البرطاس ، كالبلغار ، من اشباه البدو . وقد اخذ الاسلام بالتوسع ابتداءً من الحي الاسلامي في مدينة اتل ، قرب مدينة استراخان الحالية التي ظهرت فيما بعد . وقد اعتنق خاقان الخزر الديانة اليهودية . ونشأت مدينة برطاس ، شأن مدينة بلغار ، عند مقرن نهرين لانها كانت تقع عند التقاء نهر اوكا بنهر الكاما ، على هامش الغابة ، وهنا نشأت فيما بعد مدينة نيجني نوفغورود الروسية .

وكانت تؤلف الأقوام الفينية والفينية الاوغرية والسلاف ، في داخل الغابة، ما كان يسميه الجغرافيون العرب بلاد الصقالبة ، وهي المصدر الثاني للرقيق ، والتي كانت تمتد حتى الغابة الجرمانية والايليرية[1] ، وكانت تصدر هذه الاقطار للعالم الاسلامي الرقيق والفراء والعسل والجلد البلغاري المدبوغ الطري لصنع جزم الفرسان ، والمكاييل ، والاوعية الخشبية المصنوعة من خشب الجرمشق أو الخلنج . وكان ينطلق الطريق التجاري من برطاس ويمر من بلغار ، وبعد كييف يأخذ الطريق بمسايرة الانهار كي يبلغ بحر الخزر ثم طبرستان والري . وكانت هناك طريق أخرى تربط سهب برطاس وبلغار مباشرة ببلاد خوارزم وخراسان . وكان نشاط الطريقين قائما على المنافسة .

---

(١) بلاد ايلليريا : هي المناطق الواقعة شرقي البحر الادرياتيكي او يوغوسلافية والبانيا حاليا .

لقد ابتدأ فتح السند على ايدي المسلمين في عام ٧١٢ من جهة الجنوب • غير أن بلوغ الهند عبر ممرات هندكوش لم يتم الا ببطء ابتداء من عام ٧٥١ في اعقاب معركة طلس • أما المنطقة الواقعة خلف بلخ ، أي طخارستان ، وهي عبارة عن زمرة جبلية ضخمة تسكنها أقوام همجية ، فلم يتم اقتحامها الا في القرن التاسع ، وتدريجياً ، على أيدي الطاهريين ثم الصفّاريين من بعدهم الذين استقر لهم المقام في كابل • وانطلاقاً من هذه المدينة تم نشر الاسلام بين سكان الجبال في كافرستان • وكانت تؤلف هذه الأقوام العاتية بدورها مصدراً للرقيق • وتمت الهيمنة شيئاً فشيئاً ، وانتقالاً من واد لآخر ، على ممرات المواصلات الجبلية ، مثل ممر غزنة على الطريق الواصل بين كابل وقندهار • وهنا استقر الاتراك حتى أن الغزنويين تمكنوا من تأسيس أول أسرة مالكة تركية مسلمة مستقلة عام ٩٦٢ في العالم الايراني • وفي الفترة الواقعة بين ١٠١٤ و ١٠٢٥ فتحوا الهند ونشروا الاسلام في شمالها حيث تشبثوا فيها بعد أن أجلوا عن آسيا الوسطى وايران الشرقية بفعل الاندفاع السلجوقي •

وكان هناك طريقان لبلوغ الصين انطلاقاً من ايران :

ـ الاول من الشمال ويبدأ من طاشقند وطلس وآقصو •

ـ الثاني ويقع الى الجنوب من الأول ، ويبدأ من فرغانة وكاشغر ويارقند وخوتان •

ويلتقي الاثنان عند مدينة توين هوانغ كي يتحدا ويؤلفا طريقاً وحيدة تقود حتى السور العظيم وعاصمة أسرة تانغ •

ولقد اضطربت التجارة على هذا الطريق في القرن الثامن بسبب غارات التيبيتيين (Tóu-fan) على واحات الطريق في الشمال • ولكن في ذلك العصر كان الطريق البحري الى الصين هو المتفوق انطلاقاً من الخليج العربي حتى كانتون ، حيث اخذت جاليات من التجار المسلمين واليهود بالاستقرار في محطاته ابتداء

من القرن الثامن • ولكن عاد النظام واستتب في القرن التاسع والعاشر على الطريق البرية ، بعد أن هدأ التيبيتيون وجنحوا للسلم بعد اعتناقهم البوذية • وكان البدو الأتراك يلعبون دور العكّامين وخفراء القوافل بين المجال الاسلامي من جهة وبين المجال الصيني من جهة أخرى • واستأنفت التجارة نشاطها • ويقدر الجغرافي المسعودي ان الرحلة الى الصين كانت تستغرق مدة اربعة أشهر ، والى ذلك العصر يعود نشوء أوائل الجماعات الاسلامية في الصين الشمالية •

أهمية عقدة الطرق ، الأمارة السامانية

قبل أن يقوم السامانيون بتوحيد ايران الشرقية كانت بوادر هذه الوحدة تتحقق على أيدي الطاهريين (٨٢٠ ــ ٨٧٢) الذين احتلوا كرمان والري ، وكذلك على ايدي الصفّاريين (٨٦٧ ــ ٩٠٣) الذين استطاعوا في عهد يعقوب بن ليث ، الذي كان حاكماً على سجستان ، أن يلموا شمل منطقة هراة ، وبلاد ما وراء النهر ، وفارس ، ولكنهم فشلوا في نهاية الأمر • وفي تلك الفترة كان السامانيون يكافحون ضد البويهيين • وكانت هذه الصراعات المستديمة بين هذه الأسر الأربع والتي لم يكن لها كبير فائدة ، حتى من وجهة النظر لمسرح الأحداث ، اللهم الا الاستيلاء على نهاية محطات القوافل ، صراعات كانت على علاقة وثيقة بالسيطرة على طرق آسيا القارية • وهكذا كانت الأمارة السامانية (٨٧٥ ــ ٩٩٩) أمارة تقوم على استغلال الطرق وعلى تجارة الرقيق • وينحدر السامانيون من أسرة ايرانية نبيلة ، وينتسبون لجدهم سامان خودات ، مؤسس سامان قرب بلخ• وعلى الرغم من اعتناق هذه الأسرة المالكة الديانة الاسلامية فقد ظلت تحاول أن تشد نفسها الى الساسانيين ، وفي ذلك دليل على يقظة قومية شعوبية فارسية[1] • وبعد أن اعتنق بنو سامان الاسلام وضعوا أنفسهم في خدمة

(١) وهذا ما حدث عام ١٩٧٥ عندما احتفل شاه ايران محمد رضا بهلوي الذي خلع في عام ١٩٧٩ على اثر الثورة الايرانية الاسلامية بزعامة آية الله الخميني ، اذ دعا الشاه معظم ملوك العالم ورؤساء جمهورياته لاحتفاله الاسطوري في مدينة برسيبوليس حيث بلغ البذخ درجة هي اقرب للخيال منها الى الواقع ، وذلك بمناسبة مرور ٤٠٠٠ عام على نشوء الامبراطورية الفارسية •

العباسيين . وكان هؤلاء أربعة أخوة ولاّهم الخليفة المأمون الحكم على أربعة ولايات سنة ٨٢٠ م ، فكان الأول والياً على سمرقند ، والثاني على فرغانة ، والثالث على اقليم الشاش ، والأخير على هراة . وفي عام ٨٩٢ لم يبق من الأسرة السامانية سوى اسماعيل بن احمد لوحده ، وكانت عاصمته بخارى التي تفوقت على جارتها سمرقند . وفي عام ٨٩٣ احتل مدينة طلس إثر حملة قام بها ضد الاتراك . وفي ٩٠٠ دخل خراسان ، وفي ٩٠٢ اجتاح طبرستان (الري وقزوين) التي فتحت في وجهه الطريق الى بحر الخزر وبغداد . وبلغت هذه الأسرة أوج مجدها في عهد الامير نصر الثاني الذي حكم بين ٩١٣ و ٩٤٢ ، والذي عاش في كنفه الجغرافي العربي ابو دلف الخزرجي الينبوعي ، وكانت امارته تمتد حتى طلس وفرغانه وشرقاً حتى كاشغريا ، وشمالا حتى خوارزم وبلغار ، وغرباً حتى الري وبحر الخزر ، وجنوباً حتى سجستان وقندهار . وكان الاستقرار وبداية الانحطاط في عهد الأمير نوح الأول الذي حكم بين عامي ٩٤٣ و ٩٥٤ والذي نازع البويهيين على ولاية الري" .

هذا وكانت الأمارة البويهية بدورها تدّعي الانتساب الى أصل ساساني . وكانت تعتمد على المرتزقة الديلميين ، وكانت تعمل جاهدة للسيطرة على طرق آسيا الوسطى . وقد استطاع أحد أمرائها انتزاع الري واصفهان وشيراز وسيراف واحتل اقليم الجبال ودخل بغداد أخيراً في عام ٩٤٥ حيث استحوذ على لقب « أمير الأمراء » حتى عام ١٠٥٥ ، اي حتى قدوم السلاجقة .

وقد كان ضياع طرق الغرب ومن بعدها طرق الجنوب ايذاناً بانحطاط السامانيين . وهكذا تمكن الغزنويون وهم زعماء محليون كانوا يعتمدون على المرتزقة الاتراك ، تمكنوا من اجتياح كابل وطخارستان في عام ٩٧٧ . وبظهور الغزنويين لم تعد الدولة دولة ايرانية ، بل دولة تركية ، ايرانية الثقافة ، ترعى الكتّاب الفرس ، وتتابع عمل السامانيين على الصعيد الثقافي . وقد كانت دولة متعلقة بالطرق احتلت ممرات جبال هندكوش وخراسان ، ثم استولت في عام

١٠٣٠ م على خوارزم وجرجان والري وانتزعتها من البويهيين • واحتل الغزنويون بلاد الهند الشمالية أخيراً حيث تشبثوا بمواقعهم الجديدة في اعقاب الاندفاع السلجوقي •

وكان يقوم اساس ثروة المدن السامانية الكبرى على تجارة الرقيق ، مثل مرو ونيسابور والري وبلخ وبخارى وسمرقند ، والتي كانت تتاجر برقيق الصقالبة الذين كانوا يجلبون اليها عن طريق خوارزم ، والرقيق الهنود عن طريق كابل ، ولا سيما الرقيق الترك الذي كان يؤتى بهم بواسطة ثغور الحدود • وكان يعاد بيع الكثير من هؤلاء العبيد بعد خصيهم أو بعد تدريبهم عسكرياً ، وكانوا يبلغون مراكز قيادية في الامبراطورية السامانية الى أن تمكن هؤلاء المماليك المتمردون من اسقاط هذه الدولة • وكانت عادة احاطة الحاكم نفسه بمماليك وبحرس من الأتراك عادة ايرانية مألوفة • وقد ساهم البرامكة ، وعلى الأخص الفضل بن يحيى ، بنشر هذه الطريقة التي انفتح العالم الاسلامي بواسطتها تدريجيا أمام المؤثرات التركية • وفي عهد المأمون كان أمير خراسان من الطاهريين يقدم لحكومة بغداد ضريبة على شكل الفي مملوك تركي والذين كانوا يشكلون حرس الخليفة الشخصي • غير أن قيادة هذا الحرس لم يعهد بها للأتراك في عهد المأمون• ولكن ارتقى بعضهم في عهد أخيه المعتصم الذي حكم بين ٨٣٣ و ٨٤٢ لمرتبة الضباط • وقد دفعت الاضطرابات التي أثارها ٧٠٠٠ تركي في بغداد بالخليفة الى ان يؤسس عاصمة جديدة هي سامراء ، أو سرّ من رأى ، وذلك في سنة ٨٣٦ كي يتخلص من أذاهم ، وبعد فترة من الزمن أصبح الخليفة المعتمد نفسه أسيراً بيد الأتراك الذين عادوا به إلى بغداد[١] • وقد كان احمد بن طولون ابناً لمملوك تركي قدم من بخارى واستطاع ان يؤسس في مصر أسرة الطولونيين • أما الإخشيد ، وهو عبد تركي من فرغانة ، فقد تمكن في سنة ٩٣٥ م من أن يصبح

(١) ويؤيد ذلك قول احد الشعراء العباسيين :

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

بدوره في مصر مؤسس أسرة الأخشيديين . وكانت أهمية دور عبيد فرغانة في تكوين حرس الامبراطور البيزنطي لا تقل عن أهمية دورهم في حرس الخلافة في بغداد .

وابتداءً من قيام دولة السامانيين أخذت ظاهرة التتريك في الاتساع . فقد كان الأتراك يؤلفون حرس أمارة بخارى . وقد تمت صفقات شراء كثيفة من الرقيق الترك عند الحدود مع عشائر متناحرة . هذا كما كانت تقوم غارات انطلاقاً من الرباطات والثغور ضد القبائل المجاورة ، مثلما كان هناك متطوعون أتراك يعرضون أنفسهم أيضاً وهكذا لم يكن من الميسور دائماً تمييز الحد الفاصل بين المملوك والمرتزق .

وكان يتم استخدام هؤلاء وأولئك في البلاد نفسها أو يساقون غرباً بعد دفع رسوم الجمارك عند عبور نهر آموداريا . ففي السنة الأولى كان المملوك يخدم في سلك المشاة ويعيش في الثكنة ، وفي العام التالي يمنحه الحاجب (القائد العام) جواداً ، وفي السنة الثالثة ينال نطاقاً خاصاً ، وهو تمييز يعادل الشرطان على الذراع في أيامنا ، وفي العام الخامس يتلقى سرجاً وأسلحة أكثر تنوعاً ، وفي العام الثالث يكسى ببذلة العرض العسكري ، ويحق له في العام السابع ان يحمل الشارات الخاصة كقلنسوة الفرو العالية . ويمكن ان يصبح عندئذ رئيساً للحجاب على رأس الحكومة . ولكن كثيراً ما كان يفسد هذا التدرج والارتقاء النظري بالمؤامرات . وقد كانت الأمارة السامانية عبارة عن مجتمع ايراني تركي ، ولكن حضارتها ايرانية . وهكذا كان القرن العاشر الساماني في شرقي ايران ، وفي بلاد ما وراء النهر عبارة عن حقبة رئيسية في النهضة الايرانية سواء في اللغة وفي الأدب وفي العلوم[1] .

---

(١) M. C. BARBIER DE MEYNARD, « Tableau littéraire du Khorássan et de la Transoxiane au IVe siècle de l'Hégire », Journal asiatique, 5e série, II, 1853 et III, 1854 .

إستمرارية الأساس الإيراني

من الممكن العثور في خراسان على أوائل النصوص المعروفة التي تظهر فيها اللغة الفارسية كاملة التكوين • ذلك أن هذه اللغة ، أي الفارسية ، لا تقوم على قاعدة من لهجة محلية ، بل هي لهجة اقليم فارس المنقولة الى خارج مهدها • ترى في أي زمن تمت هجرة لغة فارس في اتجاه خراسان ؟ الجواب هو أن هذه الهجرة وقعت في العصر الساساني ، كما يعتقد آ• كريستنسن[1] ، ولكن الأرجح أن ذلك حدث خلال القرون الاولى من الفتح الاسلامي • ومما لا ريب فيه هو أن طاهر بن الحسين لعب دوراً مشهوداً في تبني هذه اللغة وتطويرها • فقد أنشأ السامانيون مكتبة كبرى في عاصمتهم بخارى واجتذبوا الى بلاطهم رجال الادب والعلماء ، وقد عاش في كنف الأمير نصر الثاني ، الذي حكم بين ٩١٣ و ٩٤٢ م، أول شاعر فارسي هو الرودكي الذي نملك عنه بعض المعلومات ، مثلما نحتفظ ببعض آثاره ، ولا سيما الأقصوصة الهندية القديمة ، كليلة ودمنة ، المترجمة على شكل أشعار فارسية • وقد سبق أن نقلها الى الفارسية الدارجة خسرو أنو شروان، مثلما نقلت الى العربية على يد اديب فارسي الأصل هو ابن المقفع ، وذلك في أوائل عهد خلفاء بني العباس، ولكن اذا كان قد تمّ نظم أشعار غنائية باللغة الفارسية في أيام الأسرة الطاهرية والصفّارية ، فإن الحقيقة هي أن اللغة الفارسية قد شهدت نهضة كبيرة في عصر السامانيين بشكل خاص •

والمسألة الثانية هي مشكلة أصل الصيغة الشعرية الفارسية • فقد أصبح القياس المقطعي يتطابق مع العروض الكمّي العربي المألوف في العصر الجاهلي والقائم على القصيرات والطويلات ، أي أن القالب كان عربياً • وقد قام الوزير

---

(١) A. CHRISTENSEN, L'Iran sous les Sassanides, 2e éd. 1944, pp. 44 et suiv .

البلعمي ، وزير المنصور ، الذي حكم بين ٩٦١ و ٩٧٦ ، بترجمة حوليات الطبري الى اللغة الفارسية ، وقد كتب هذا المؤرخ الفارسي الأصل ، ومن طبرستان ، مؤلّفه باللغة العربية • وكان طليعة النثر الفارسي • وقـد كتب ابن سينا ، في بخارى ، مؤلفاته العلمية الضخمة باللغة العربية • وكانت اللغة العربية دائماً هي لغة العلم ، شأن اللغة اللاتينية في اوروبا حتى القرن الثامن عشر ، ولكنه دبّج باللغة الفارسية مختصراً لكتابه في الفلسفة •

وقد كان الأمير الساماني نوح الثاني ، الذي حكم بين ٩٧٦ و ٩٩٧ باعث شعر الملاحم بالفارسية • وقد أمكن ترجمة حوليات ساسانية قديمة مكتوبة باللغة البهلوية ، أي بالفارسية القديمة ، وهي أقاصيص اسطورية نوعاً ما ، ولكنها غاية في الأهمية لما تحويه من معلومات شتى ، أقول أمكن ترجمتها الى اللغة الفارسية• وقد عمل الشاعر الدكيكي على تحويل هذه الترجمة الى شعر بتكليف من نـوح الثاني • وقـد اغتيل الدكيكي بعـد مباشرته العمل بقليل فأنجز عمله الشاعر الفردوسي الذي ولد حوالي العام ٩٣٢ أو ٩٣٤ م في ضاحية طوس ، وهي مدينة لا تزال أطلالها ماثلة بجوار مدينة مشهد • وقد تم إصدار أول نسخة عن كتـاب الشاهنامة « كتاب الملوك » حوالي العام ٩٤٤ م • وقد طرأت عليـه تعديلات وإضافات استمرت حتى عام ١٠١٠م ، وبلغ المحتوى الاجمالي لهذا المؤلف ٥٠٠٠٠ زوج من الأبيـات الشعرية ، أي يعـادل ثمانية أضعاف حجم كتاب الاليـاذة لهوميروس • غير أن تلك الحقبة كانت مضطربة ، إذ انهارت الأمارة السامانية ، فانصرف الفردوسي نحو « زعيم » الحضارة الايرانية الجديد ، وهو محمـود الغزنوي ، فمدحه بقصيدة بلغ عدد ابياتها مائة الف • ولكن لم تكن لدى السلطان محمود الشجاعة الكافية لسماعها حتى النهاية • ولما شعر الفردوسي بأن مكافأته كانت شحيحة تملكه الحقد فوضع عندئذ في مطلع القصيدة هجاءً عوضاً عـن الإهداء المديحي السابق وهرب على الفور ، حيث مات في طوس منسياً خـلال الفترة الواقعة بين ١٠٢٠ و ١٠٢٥ م • وتبدو هذه القصة الأدبية ذات مدلول وهو

أن « تفريس » السلاطين الاتراك الجدد كان سطحياً • ولكن مع هذا استطاعت المؤثرات الفارسية ان تنفذ الى شمالي الهند بفضل الغزنويين •

وعلى هذا يكون في استطاعتنا تمييز عدة حقب للأرينة[1] ، وهي ان اول شتات ايراني راح يحتل مواقعه قبل الفتح العربي وبعـده ، وهي ظاهرة غير معروفة تماما ولا نجد عنها الكثير من المعلومات في مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الذين جاؤوا من بعد • فقد استقرت جاليات من البارثيين الزرادشتيين على ساحل الهند الغربي ، ولا سيما ابتداءً من القرن الثامن وعلى الأخص في كجرات وفي بومباي • هذا كمـا قامت أيضا مؤسسات ايرانية على سـاحل افريقيا الشرقية أثناء الفتح العربي وقبله ، وقد دعمت هذه الهجرات فيما بعد بهجرات أخـذت شكل موجات من الفرس • أما الشتات الايراني الثاني فقد انتشر على اثر الدعوة العباسية ، فتناثرت جماعات من الفرس في سائر أرجاء الامبراطورية الاسلامية حتى الصين ومشارف اسبانيا • فقد تم توطين ربابنة من العجم ، او ناخوذاه ، في مدن بلاد الشام الساحلية كي يقوموا بنقل الفنون البحرية المعهودة في سواحل المحيط الهندي • فقد كان الكاتب اليعقوبي مثلما كان رستم ، مؤسس الأسرة الرستمية في تاهرت في افريقيا الشمالية من أصل فارسي • أما الشتات الثالث الذي نجم عنه «أرينة» اقاليم شاسعة جداً فقد كان من تأثير الاتراك المتأرينين، وهم الغزنويون ثم السلاجقة الذين امتد تأثيرهم حتى الاناضول •

* * *

---

(١) اي فرض الصبغة او الطابع الايراني او الفارسي في شتى مظاهر الحضارة iranisation مثل عبارة تفريس •

الفصل الثالث

الغرب الإسلامي

لم يكن هناك في الاقطار الشرقية القديمة ذات الحضارات العريقة ، كبلاد الشام وايران والعراق ومصر ، أية ثغرة ملموسة في استمرارية المدن وفي المصانع أو في الفنون ، وذلك من الحقبة البيزنطية ــ الساسانية وبين العصر الاسلامي ، أي بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر . فقد كان الشرق يضم كل المراكز المحركة ، وبؤر التوزيع والانتشار التي كانت تنطلق منها المؤثرات في اتجاه الغرب أي نشر الاسلام (دين) والتعريب (لغة) والاسْمَتة[1] والأرْيَنة (إطارات نفسية ، منهج ، تقنيات سواء في بيان الافكار أم في الاشكال الفنية) . أما الغرب الاسلامي ، الذي تلقى هذه المؤثرات ، ونقصد به افريقية والمغرب وصقلية واسبانيا ، فقد كان يتألف على خلاف ذلك من أقطار متبربرة ، ويغلب عليها الطابع الريفي أو البدوي ، وحيث كان الماضي الحضري البوني[2] والروماني مطموس المعالم ، وحتى مندثراً في كثير من الاماكن . هذا كما استفحل الانحطاط العمراني Urbain الذي تلا الأزمة الكبرى التي انتابت الامبراطورية الرومانية السفلى[3] بتأثير غزوات البرابرة[4] . ومع هذا بقيت بعض النويّات الحضرية مثل قرطاج ، وفولو بيليس (وليلي) وتنجيس (طنجة) وسبتم (سبتة) وقادس ومالاكّا (مالقة) ، وهسباليس ، وكوردوبا (قرطبة) وتوليتوم (طليطلة) ،

(١) اي فرض الطابع السامي Sémitisation

(٢) اي ما يعود لحضارة قرطاج الآرامية الفينيقية .

(٣) اي بين ٢٣٥ ــ ٣٩٥ م او الحقبة الثانية منزا لامبراطورية الرومانية .

(٤) وهنا يجب التمييز بين البربر كقوم وشعب وهم سكان افريقيا البيضاء الاصليين وبين البرابرة وهم اقوام قدمت من سهوب آسيا الوسطى واجتاحوا أوربا من الشرق على فترات متعددة كالهون والجرمان الخ . . .

وقيصرية أوغستاوبانورموس • ولكن هذه المدن نفسها كانت في حالة انحطاط ومحاصرة نظراً لاتساع الحياة الريفية والبوادي في أسبانيا ، كما هو الحال في صقلية ، مثلما كان ناتجا عن اتساع حياة البداوة ونطاقات رعى الرعاة الجمالة في افريقيا الشمالية • وسنرى ضآلة رقعة وضعف وزعزعة عملية الاسترداد التي قام بها الامبراطور جوستنيان •

وفي مقابل الاقطار القديمة المتمدنة الشرقية التي استنزفت مواردها بعد استغلال طويل جدا ، فان هذه الاقطار الفتية أو المنتعشة في الغرب الاسلامي كانت توفر موارد اقتصادية جديدة ، واحتياطا بشريا لايزال سليما ، فضلا عن موارد ضخمة لاتزال غير مستغلة • وقد اجتذبت هذه الاقطار الجديدة المشارقة• فجاء زعماؤهم مثل أمويي الاندلس ، وأدارسة المغرب الاقصى ، ورستميو المغرب الاوسط ، وأغالبة وفاطميو افريقية ، جاؤوا ليجربوا حظهم في هذه البلاد الاستيطانية البعيدة • وتدفق على بلاط هؤلاء مغامرون من كل لون ، من تجار وأدباء ، من الذين اجتذبتهم المكاسب الضخمة المنتظرة والمناصب الشاغرة في هذه الدول الاسلامية الجديدة في الغرب ، وعلى الخصوص في بلاط قرطبة حيث لم يكن هناك أي ازدهار ثقافي محلي كما عهدنا في المشرق • وهكذا كان هؤلاء رواد الحضارة الشرقية وسيعملون بالتالي على نقل معرفة الشرق الى الغرب •

افريقيا الشمالية

لقد شهدت القرون التي سبقت الفتح الاسلامي لأفريقيا الشمالية تقهقراً في حركة العمران في وجه البداوة • ولم تتوقف هذه الظاهرة بعد عملية الاسترداد التي قام بها جوستينيان[1] والتي أدت الى ضم شطر صغير ساحلي لفترة تزيد

(١) امبراطور بيزنطة بين ٥٢٧ و ٥٦٥ م• حارب الفندال والفرس واحتل ايطاليا وجزءا من اسبانيا ومن افريقيا • وهو الذي شيد كنيسة القديسة صوفيا الذي تحول الى جامع أيا صوفيا فيما بعد•

قليلا عن القرن ، أي بين ٥٣٣ ــ ٦٤٧ ، الى الامبراطورية البيزنطية ، ولم يحل ذلك دون اختناق الحياة الحضرية تدريجيا • فقد كانت بقاع المدن ، والارياف المحيطة بها ، والتي تقدم لها المؤن الغذائيـــة ، وكذلك المناطق المجاورة للقلاع او للمراكز الصغيرة الحصينة ، كانت جميعها مطوقة بصورة متزايدة بقبائل البربر البدوية • وهكذا كانت تتناوب الغزوات والحملات التأديبية • غير أن الحملات العسكرية البيزنطية كانت محدودة المدى اذ لم تتجاوز ممرات الاتصال بين الكتل الجبلية التي كان استقلال الفلاحين البربر فيها يزداد توطيدا ، وهكذا لم تستطع القوات البيزنطية أن تتوغل مطلقا إلى داخل الهضاب العليا أو الصحارى ، حيث كانت القبائل الجمالة تتجول فيها بكل حرية •

وفي مقابل تقلص رقعة الارض التي يظهر فيها تأثير المدن كان هناك بالطبع تسارع واتساع في عملية طمس المؤثرات الرومانية ، وانبعاث الماضــي البربري القديم ، وهو تطور مماثل لذلك الذي حدث في بلاد الشام وفي مصر حيث ظهرت الاشكال الآرامية والقبطية القديمة بعد زوال التأثير الهلليني • ولكن بينما كان ينبعث الماضي المتمدن والحضري القديم في شرقي البحر الابيض المتوسـط ، كان ينبثق هنا من جديد ماض بدائي وبدوي مع تبدل بسيط في المركب بسبب ظهور الجمل • ولم تنجح عملية الاسترداد البيزنطي في توقيف هذا التطور الذي ابتدأ منذ زمن طويل • وهكذا تخلت أعداد متزايدة من البـــربر عن اللاتينية وعن البونية (القرطاجية) ، وهما في الاصل عبارة عن اللغتين المكتوبتين في المدن ، كي يعودوا الى اللغة البربرية ، وهي لغة حامية ، ولغة ليبية قديمة لا نزال نعثر على كتابات قديمة منها ، وهي لغة لاعلاقة لها باللغات السامية أو باللغات الهنــدية الاوروبية ، والتي خلّفت ، على الحصر ، روايات شفوية دون آداب مكتوبة • وفي الوقت نفسه الذي عاد فيه البربر الى لغتهم ، عادوا فيه الى أعرافهم القديمة ، أو القانون ، والى كيانهم الخاص مثل الإطار القبلي ، والاتجاهات الديموقراطية والمساواتية • وقد نجم عن نفسيتهم النزّاعة للاستقلال ، وتقليديتهم وفرديتهم

المتطرفة الى تفتت بلادهم الى جمهوريات صغيرة جبلية محافظة ، أو الى عشائر بدويـــة .

أما في المدن فقد ظل استخدام اللغة البونية واللاتينية مألوفا . وقد تشبثت اللغة البونية ، الكنعانية الاصل ، في المدن الشرقية في افريقية[١] ، وهذا مايفسر لنا سرعة انتصار اللغة العربية في المدن الشرقية . أما اللغة اللاتينية فقد ظلت لغة التخاطب لمـــدة طويلة في المدن . ويعـــود تاريخ آخر الكتابات اللاتينيـــة في فولوبيليس[٢] لنهاية القرن السابع . ويتكلم اليعقوبي ، في نهاية القرن التاسع، عن « الأفارقة » الذين يتكلمون اللغة الافريقية . ولكن اللغة اللاتينية ستتطور هنا نحو لهجة رومانية حقيقية[٣] وقد أشار الادريسي في القرن الثاني عشر أن سكان مدينة قفصة في الجنوب التونسي يتكلمون لغة فريدة هي « اللاتينية — الافريقية » .

واذا كانت المدن قد استقبلت الفاتحين العرب ، فإن المقاومة كانت في الجبال وفي الهضاب العليا وفي الصحارى . وعلى أثر الهيمنة الاســـلامية تبنّت المدن وممرات المواصلات بين الكتل الجبلية اللغة العربية في حين ثابر الجبليون وقبائل الصحراء على التكلم بالبربرية نظراً لعزلتهم .

هذا كما تقهقرت النصرانية نتيجة لذلك وهو تقهقر سار بصورة متوازية مع تراجع العمران والروْمنة[٤] . وبعد أن لعبت الكنيسة الافريقية دورا كبيرا جدا في عصر القديس أوغسطين البربري فانها انهارت بعد أن عانت من اضطهاد الفندال

(١) وهنا يجب ان يميز بين افريقية وهي بلاد تونس الشمالية والقسم الشرقي من بلاد الجزائر حتى قسنطينة وبين افريقيا كقارة .

(٢) او وليلي الحالية قرب بلدة مولاي ادريس في المملكة المغربية .

(٣) T. Lewicki, « Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord » (en français), Rocznik Orientallstyczny, XVII, 1953, pp. 415-480 .

(٤) اي الصبغة او الطابع الروماني Romanisation

الآريوسيين الذين ينكرون ألوهية المسيح وهم من أتبـاع آريوس[1] ، ومن جهة أخرى لم يتوغل التبشير النصراني لبعض مناطق الداخل اطلاقاً • وتروي لنا بعض النصوص البيزنطية العائدة للقرن السادس أن الكثير من القبائل كانت لاتزال وثنية أو أنها عادت الى وثنيتها • ولدى البربر قاعدة كبيرة جدا من التدين التي تبحث عن سلامة الروح في الطقوس السحرية الدينية المنحدرة عن المذاهب الافريقية القديمة التي سبقت دخول عبادة الاوثان الفينيقية أو الرومانية ، أي قبل النصرانية والاسلام • ومما لاريب فيه أن الكثير من خصائص عبادة الارواح لدى البربر يعود للعالم الزنجي (أو ربما كان العكس ؟) • وفي أوائل العصور القديمة كان العالم البربري على اتصال بالعالم الزنجي الذي كان يمتد حتى جنوب جزيرة المغرب والذي تقهقر تدريجيا حتى السودان الغربي أمام رعاة الإبل من البربر • ولم تتمكن النصرانية ولا الاسلام مــن بعدها من طمس معالم هــذه المعتقدات تماما والقائمة على عبادة الافراد أو الافراد المؤلهين •

هذا وكان يوجد في افريقيا الرومانية جاليات يهودية كانت تمتد جذورها في العناصر البونية القديمــة أو المتأثرة بالبونيين في المدن مــن الذين اعتنقوا اليهودية • وقد تمكنت الديانة اليهودية من التوغل الى داخل المناطق البربرية بتأثير هذه المراكز الحضرية ، وبسبب هجرة القبائل التي كانت تتزايد حركيتها منذ نهاية العصور القديمة ، وهكذا وصلت الموسوية الى الهضاب العليا والى الكتل الجبلية وحتى الصحراء الكبرى • فنجدها في مدينة جراوة في الأوراس ، وفي جبل نفوسة الليبي التونسي وفي بضع قبائل في جبال الاطلس وفي جبال جنوبي المغرب • وهكذا أمكن التعرف على خطوط تسلل اليهودية عبر الصحراء الكبرى • واستنادا الى الوثائق الاسلامية فإن هؤلاء اليهود كانوا يتعاطون الحرف اليدوية والتجارة • وعندما تلاشت النصرانية الافريقية ظلت اليهودية قائمة بل وأعادت

(١) آريوس : كاهن مصري ولد في الاسكندرية ومات في القسطنطينية (٢٨٠ ـ ٣٣٦ م) ويعتبر منشقا وهرطقيا ومؤسس المذهب الآريوسي •

علائقها مع المراكز الشرقية للكنيس الرسمي ، والتي هي بدورها من مراكز التجارة العالمية الكبرى • وهكذا كان يمر طريق اليهود الرادانيين في القرن التاسع من بين ظهراني الجاليات اليهودية في الهند وفي الصين وعبر محطات بلاد الخزر الذين اعتنقوا اليهودية عند عقفات نهو الفولغا وأيضاً عن طريق الجماعات « المهوّدة » في شمالي الصحراء الكبرى •

أما الجماعات الوثنية فقد راحت تعتنق الاسلام تدريجيا • وكانت المراكز الحضرية القديمة الباقية هي أولى مراكز انتشار الاسلام والتعريب ، مثلما كانت في الماضي بالنسبة لنشر الحضارة البونية والرومانية • وبعدئذ وانطلاقا من هذه المدن ، قديمها وحديثها،راح الاسلام يتقدم أكثر فأكثر على مسار طرق المواصلات كي يقتحم الكتل الجبلية • غير أن قسما من المنطقة الجبلية ظل بمعزل عن الاسلام حتى القرن التاسع عشر حيث اشتمله الاسلام بصورة غير مباشرة بتأثير الاستعمار الفرنسي الذي عمل على توحيد الادارة ونشر المواصلات الحديثة • وبعد أن اعتنق البربر الاسلام أخذوا يتوزعون بين عدد كبير من المذاهب المنشقة ، بلغ عددها ، حسب رواية ابن خلدون العشرين عددا ، وذلك بشكل خاص خلال القرنين الاولين من الفتح الاسلامي ، بحيث اتخذ الاسلام في افريقيا طابعا متميزا• فقد كانت المذاهب الدينية المنشقة تلقى الترحيب كمذهب الخوارج الذي وقف في وجه الاسلام السنّي ، مذهب السلطات الحاكمة ، المركزية ، والمنظمة ، فقد كانت الأباضية تنسجم مع الفردية البربرية كالمزابيين في منطقة الميزاب في جنوبي الجزائر • أما المذهب الاسلامي السني نفسه فقد اعتنقته الامة البربرية بعد أشكال عديدة من المقاومة ، وأضيفت إليه طقوس باطلة ، كالاعتقاد بالاولياء من أموات وأحياء ، وتقديس بعض المرابطين والاعتقاد ببركة بعض الامكنة والاشجار الخ •••

وعادت صلابة القاع القديم الافريقي للظهور بقوة متعاظمة بين القرن الرابع والسابع وذلك بسبب هشاشة الطلاء الروماني والنصراني في أفريقيا

الشمالية ، ولبطء انتشار الاسلام ، ولكن سرعان ماظهر تعمق هذا الاسلام في كثير من الاماكن بعد أن تفاغم مع المعتقدات الافريقية القديمة •

ولم تفلح عمليـة الاسترداد البيزنطي في تخفيف نتائج انكماش رقعـة الاراضي المزروعة بالزيتون والكرمة والقمح ، ولا الحيلولة دون تقلص التيارات التجارية والتقهقر الاقتصادي ، أي أخفق البيزنطيون حيث نجح الحكم الاسلامي الذي ردّ أقطار أفريقيا الشمالية الى شبكة التيارات العامة للاقتصاد العالمي بعد أن ظلت تعاني من انحطاط اقتصادي شامل •

نعم لقد كان المغرب يعاني عشية الفتح الاسلامي من تقهقر عمراني ، ومن انبعاث القاع البربري القديم القليل التمدن ، ومن تقهقر اقتصادي ، ولكن المغرب كان يملك عنصرين كافيين من عناصر القوة ، أولهما غناه بالرجال : فخلال عمليات الفتح الاولى توجهت أفواج هامة من الرقيق نحو الشرق ، ولكن بعد دخول مدن المناطق السهلية في الاسلام ، أصبحت بلاد البربر معيناً لا ينضب للجند وللمرتزقة الذين أمكن الاستعانة بهم في فتح اسبانيا ، وصقلية في أيام الاغالبة، وفي فتح مصر على أيدي الفاطميين وكذلك في إعمار الصحراء الكبرى حتـى السودان • ترى هل نتج هذا الاندفاع الديموغرافي البربري في العصر الوسيط بتأثير السلم الروماني Pax Romana ؟• والواقع لا يمكـن الرد على ذلك بالايجاب تماماً لأن هذه الظاهرة تتحقق حاليا • وهكذا كانت افريقيا خـلال الحقبة الواقعة بين القرن الثامن والحادي عشر مصدرا لقوة عسكرية وكأنها بلاد ديلم المغـرب •

أما القوة الكامنة الثانية التي حولها الاسلام الى حقيقة فقد كانت انفتاح العالم البربري على الصحراء الكبرى والسودان • فقد أدى الاستحواذ على تجارة السودان وبلاد البربر الى توجيه الذهب والرقيق الاسود نحو أقطار البحر الابيض المتوسط ونحو المشرق ، فالذهب هو الذي منح القوة التجارية ، كما

كان الرقيق الاسود يؤلف الايدي العاملة في المزارع كما عملت مزاياه الحربية على دعم قوة افريقيا الشمالية البربرية بصورة فعلية •

أقطار الغرب الاسلامي

تمتلك جزيرة المغرب موقعاً ذا قيمة من الطراز الاول بين المشرق الاسلامي، وبين أسبانيا المسلمة ، ولكنها تمتلك أيضاً موقعاً من نفس المستوى بين الصحراء الكبرى والسودان من جهة ، وبين البحر الابيض المتوسط من جهة أخرى • والمناطق الجوهرية التي عمل الفاتحون المسلمون القادمون من الشرق على السيطرة عليها في المغرب هي : أفريقية ، المغرب الاقصى وبلاد طنجة ، والحافة الصحراوية في الجنوب • وتهيمن أفريقية فعلا على مضيق صقلية، وهي مركز بوني[1] قديم، ونقطة استراتيجية سيطر عليها الفندال ومن ثم البيزنطيون من بعدهم • وكانت المدن ، ولاسيما قرطاج ، مأهولة بمشارقة هم البونيون ، أو فينيقيو المغرب • أما المزروعات فكانت تتألف من الزيتون والقمح والكرمة • وكان المغرب الاقصى وبلاد طنجة في شماله ، يتحكّم في مضيق أعمدة هرقل الذي كانت تقوم على ضفتيه مدن عديدة مثل : تنجيس ، سبتم ، ليكستوس ، وكانت على العدوة الاوروبية في المقابل مدن أخرى مثل مالاكّا وقادس وهسباليس ، والمأهولة بجاليات من المشارقة ومن اليهود • وهنا نجد أيضا مركزاً تجارياً بونياً هاماً • وكانت تقوم في الداخل مدينة فولوبيليس (أوليلي ، وليله) التي أصبحت أول عاصمة ادريسية قبل فاس وذلك في أواخر القرن السابع وبداية الثامن • وهكذا أصبحت أفريقية ومنطقة طنجة اللتان كانتا منطقتين تضمان مراكز حضرية قديمة، بونية ثم رومانية ، ومناطق انتقال نحو ايطاليا واسبانيا ، أقول أصبحتا مسلمتين ومستعربتين بسرعة كبيرة •

ولكن الوضع لم يكن على نفس الصورة بالنسبة للحافة الصحراوية عند أقدام سلسلة الاطلس الجنوبية ، وهي عبارة عن نطاق كبير يمتد من الغرب

---

(١) اي فينيقي او كنعاني افريقي •

للشرق ، والذي تتفرع عنه الدروب العابرة للصحراء الكبرى وحيث ترتصف عليه المحطات النهائية الشمالية للقوافل ضمن شبكة العلاقات السودانية الصحراوية . وهذه هي أيضا ملجأ صحراوي للبدو البربر من سكان الهضاب العليا ، ومن الاهمية بمكان بالنسبة للفاتحين المسلمين قطع الطريق عليهم . وهكذا اندفع الفاتح العربي سيدي عقبة بن نافع وقام بعدة غارات من بلاد الجريد باتجاه غدامس ونحو السوس الاقصى حتى وادي الدرعة ، وعلى الدروب المحاذية للمحيط الاطلنطي . وتذكر المصادر العديدة أن عقبة اندفع بجواده ليخوض في مياه المحيط وكانت حسرته في أنه لم يستطع التقدم لأبعد من ذلك .

ويشتمل تضريس المغرب في قسمه الاوسط شرطاناً متدرجة متجهة من الشرق للغرب وترتصف من الشمال الى الجنوب ، أي من البحر الابيض المتوسط حتى الصحراء الكبرى على الصورة التالية :

ــ السهل الساحلي المجزأ بسلاسل جبلية .

ــ جبال الاطلس التلّي .

ــ الهضاب العليا التي تضم أحواضاً مغلقة ملحية تدعى الشطوط

ــ الاطلس الصحراوي

ــ الصحراء الكبرى

وتنفتح السهول الساحلية العريضة على طرفي هذه الشرطان من الشرق للغرب ، كما في أفريقية ، أي في تونس ،وفي المغرب الاقصى كسهول الغرب ودكالة وعبدة والسوس . وهكذا نستطيع تصور صعوبة الفتوح التي تقتحم هذه التضاريس مجابهة بصورة متعامدة كالفتح الروماني في القديم ، والفتح الفرنسي في القرن الماضي ، وذلك على خلاف السهولة التي تيسّرت للفاتحين القادمين من الغرب كالفندال أو من الشرق كالعرب الذين واكبوا وحاذوا شرطان المواصلات الطبيعية بين الجبال وبين سفوحها الدنيا وأمسكوا بالمغرب من ظهره .

وتقدم بلاد المغرب طريقين كبيرين :

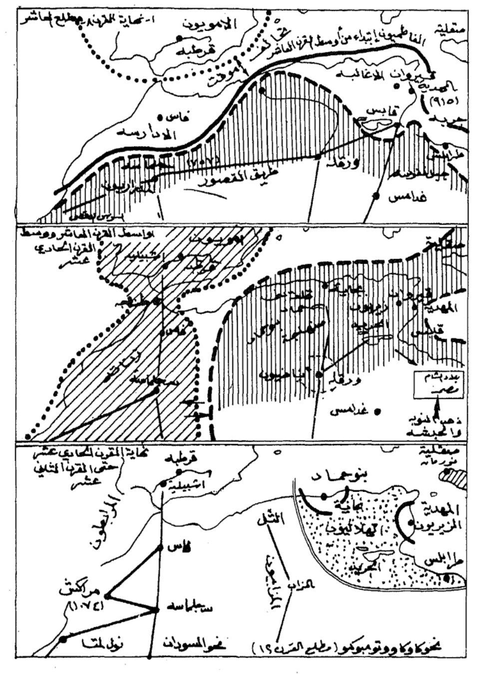
ـ الاول هو طريق الهضاب العليا الذي ينطلق من الجريد ويلتف من خلف الاوراس جنوبا ، ويمر من باب الحضنة ، ويصل الى ممر تازه والى المغـرب الشمالي الغربي • وبعد أن أخضع العرب المنطقة الجبلية وأواسط أفريقية ، وبعد أن أسسوا القيروان ، فتحوا طريقا يربط هذه المدينة بتاهرت مرورا بحـوض الطرف والحضنة •

ـ أما الطريق الثانية فهي طريق القصور[1] الذي يكون ابتداء من الجريد عبارة عن استمرار للطريق القادم من مصر ويخترق برقة واقليم طرابلس ، وهو يساير حضيض السفح الجنوبي لجبال الاطلس الصحراوية حتى جنوب غربي بلاد المغرب الاقصى • وهكذا يمكن التعرف بسهولة على أهمية المنخفضـات التي تقطع استمرارية السلاسل الشرقية الغربية ، والتي تسمح بالانتقال الـى الطرق الشمالية الجنوبيـة التي تربط طريق القصـور بطريق الهضاب العليا وبسواحل البحر الابيض المتوسط • وعقد المواصلات هذه هي في الوقت نفسه عبارة عن مواقع مدن مثل منطقة الساحل في افريقية ، ومنخفض الحضنة : تاهرت، ورقلة ، سدراته ، وممرات الاطلس الغربي مثل ممر تيز تنلغمت الذي يربط بين فاس وسجلماسة وممر تيزتنلوت الذي يصل بين أغمات ومراكش وسجلماسة ، وممر تيز تنست الذي يصل فاس ومراكش ببلاد السوس ونول لمطة •

ويعتبر الجريد من ناحية ، وسدراته وورقلة والمزاب من ناحية أخرى ، وسجلماسة ونول لمطة أخيراً ، عبارة عن ثلاث مجموعات كبرى للنهايات الشمالية لطرق القوافل السودانية ، ونقاط قدوم الذهب والرقيق الاسود وتوزيعهما نحو بلاد البحر الابيض المتوسط ونحو بلاد المشرق • وقد امتدت فترة نشوء مدن المحطات هذه على الفترة الواقعة بين القرن الثامن وأواسط القرن الحادي عشر، وكانت تؤلف عناصر الاندفاع العمراني الذي شهدته أقطار المغرب في تلك الحقبة•

---

(١) جمع قصر « المكان المحصن » ويقابل الكازار بالاسبانية •



شكل ٤ ـ أرض المغرب ومناطق السيادة الاسلامية

وقد كانت هذه الحزم الثلاث من الطرق وهي : الحزمة الشرقية والوسطى والغربية ، كانت هدفا للصراعات التي تعاقبت في افريقيا الشمالية كصراع الادارسة والرستميين والاغالبة في القرن التاسع ، وكفاح الادارسة ضد الفاطميين في القرن العاشر ، وحرب الفاطميين ضد أمويي الاندلس ، والصراع الصنهاجي الزناتي في القرن الحادي عشر ، وأخيرا صراع الهلاليين في الشرق وبلاد المزاب في الوسط والمرابطين في الغرب خلال القرن الحادي عشر ٠

وهكذا كانت أفريقيا الشمالية عبارة عن موقع استراتيجي جوهري في العالم الاسلامي ٠ فهي غنية بالآفاق الحضارية المتجابهة ٠ وهي تلعب دور محطة بين المشرق من ناحية وبين اسبانيا وصقلية والغرب الهمجي والسودان من ناحية أخرى ، أو بين الاقطار المتمدنة وبين الاصقاع الجديدة ٠ ولقد تعرفت أفريقيا الشمالية تحت الحكم الاسلامي على نهضة ديموغرافية وعمرانية ، وعلى رخاء جديد في الاقتصاد وفي التجارة ٠

واجهة الصحراء الكبرى :

في سنة ٧٦١ م أسس رستم مدينة تاهرت واستقل عن الخلافة ٠ وقد استولت الاسرة الخوارجية أو الاباضية الرستمية على كل المغرب الاوسط ، فامتدت على جبل نفوسة وجزيرة جربة وحتى طرابلس نفسها ٠ أما في الجنوب الغربي فقد اندفع المدراريون الذين أسسوا سجلماسة عام ٧٥٧م والذين ينتسبون الى المذهب الصفري الاباضي ، أقول اندفعوا حتى وادي السوس الاقصى ٠ وقد ارتبطت هاتان الاسرتان الخارجيتان بوشائج القربى لتشكلا امبراطورية واسعة هيمنت على كل الطرق القادمة من الجنوب ٠ أما زناتة ، وهي قبيلة من البدو التجار ، فقد انخرطت في النشاط التجاري الواسع رغم تزمت مذهبها ــ لأن الأئمة لايمسّون الدراهم مطلقاً ــ وراحت تستغل شبكة الطرق المسلوكة مسبقاً بين أفريقيا الشمالية والسودان الجنوبي ٠ ولعبت تاهرت في ذلك العصر دوراً هاماً

حتى انها لقّبت « البصرة الصغرى » ، ولكن بعد دمار الدولة الرستمية على أثر الفتح الفاطمي ، انكفأ الأئمة نحو واحات المزاب ٠ وكان لزناتة علاقات طيبة مع أمراء قرطبة الامويين وخططوا معهم لعقد تحالف ضد صنهاجة التي كانت من أتباع الفاطميين ، وذلك ضمن اطار كفاحهم من أجل الهيمنة على المحطات النهائية الشمالية لطرق القوافل ٠

وفي النصف الاول من القرن العاشر استولى الفاطميون الشيعة على القيروان وزحفوا باتجاه سجلماسة ٠ وهكذا أصبحوا سادة الطرق المؤدية الى السودان ، فاستطاعوا بفضل ما يجلب منه من ذهب وعبيد ، أن يكوّنوا ميزانية حربية وجيشاً يحقق تطلعاتهم الكبرى : وهي الاستيلاء على مصر ٠ فأسسوا عام ٩١٥م عاصمة جديدة هي المهدية قرب القيروان وسيطروا على كل أفريقيا الشمالية، بأستثناء نهايتها الشمالية الغربية حيث كان يحكم الادارسة ٠وفي عام ٩٤٤م تعرض الفاطميون لخطر عظيم نتج عن تمرد أبي يزيد ، وهو خارجي من منطقة الجريد وكان يعمل في تجارة القوافل ٠ ولكن تمكن الفاطميون من سحق الثورة وعاد الملك الفاطمي ليسيطر من جديد على كل طرق الجنوب ٠ وفي أواسط القرن العاشر بلغت كمية النقد المسكوك في سجلماسة ٤٠٠٠٠٠ دينار سنويا ٠ وفي عام ٩٧٢ قاد جوهر الصقلي جيشه عن طريق الواحات لفتح مصر التي كانت الدعاية الفاطمية قد فعلت فيها فعلها مسبقاً ٠ وكانت قبيلة كتامة ، والزنوج المرتزقة ، وذهب السودان ، تشكل جميعها قوة الفاطميين ٠

ومنذ ذلك الحين تخلّى الفاطميون عن افريقيا الشمالية للزيريين ولبني حمّاد الصنهاجيين، وعندها حرّض أمويو الاندلس أتباعهم من زناتة للاستيلاء على النهايات الغربية للطرق الصحراوية ، فقام هؤلاء بالاستيلاء على سجلماسة٠ أما أدارسة فاس ، وهم حلفاء صنهاجة ، فقد خسروا طنجة ، فسيطر خلفاء قرطبة الامويون على المغرب الاقصى بواسطة الزناتيين أتباعهم ٠ وهكذا تشكلت كتلتان متنافستان : فقد سيطر الامويون على محطات نهايات الطرق الصحراوية الغربية

في حين كان الفاطميون يهيمنون على المحطات الوسطى والشرقية . وقد كانت حربا لاتنقطع بين الفريقين ، حرب في البحر وحرب في البر ، بين صنهاجة وزناتة. ولما وجد الاباضيون ، في سدراته وفي ورقلة ، أنفسهم بين نارين ، آثروا الانسحاب الى المزاب ، وكان ذلك في مطلع القرن الحادي عشر .

وهكذا أصبح تيار ذهب السودان مشطوراً من الآن فصاعداً الى قسمين: أي نحو قرطبة ونحو القاهرة . ففي قرطبة كان الذهب يغذّي دار ضرب الدنانير، ويؤمن تسديد نفقات بناء جامع قرطبة الكبير ، وبناء مدينة الزهراء ، ويساهم في أعطيات رجال الادب والعلماء ، وإجمالا كان ذهب السودان الغربي سنداً لحضارة الأندلس اللامعة خلال القرن الحادي عشر . أما في القاهرة فإن ذهب السودان المذكور كان يتدفق بالاضافة الى ذهب النوبة والحبشة ، هذا فضلا عن الذهب المستمد من مدافن الفراعنة ، كي يؤلف مجموع هذا الذهب ثروة الخلفاء الفاطميين وليسمح لهم بصيانة الحرمين الشريفين وتأمين خدماتهما . ولايكتم ناصر خسرو إعجابه بالدنانير المغربية الرائعة التي رآها في القاهرة . وقد ساندت أكداس الدنانير هذه سياسة التوسع باتجاه المحيط الهندي ، وكذلك حاجات البلاط الفخيم ، وساهمت في النهضة العمرانية كبناء القصور والمساجد والاسواق الكبرى .

وقد أدت الغزوات الهلالية ، في أواسط القرن الحادي عشر ، على بلاد افريقية في الشرق ، الى اضطرار بني حماد للاعتصام بمدينة بجاية مثلما التجأ الزيريون الى مدينة المهدية ، وذلك في الوقت الذي كانت تقوم فيه امبراطورية المرابطين الكبرى ، في الغرب ، والتي امتدت من الصحراء الكبرى حتى اسبانيا. أما في المغرب الاوسط فقد كان المزابيون يمارسون التجارة الصغيرة مع بلاد التل ، وراحوا يتعاطون التجارة الكبرى مع السودان . وأصبحت افريقيا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر مقطوعة الصلات نهائياً مع المشرق بتأثير الزحوف الهلالية والغزوات النورمندية ، كما تعرضت للحملات النصرانية الصليبية .

هذا كما أصبحت سفن الجنويين تتردد على ميناء المرسى الكبير ، أو على ميناء ماسة لشحن الذهب . هذا كما عمل تجار البندقية في القرن الثالث عشر والرابع عشر على انعاش الطرق الشرقية،كما قام الجنويون في القرن الرابع عشر والخامس عشر باستغلال دروب القوافل في الصحراء الغربية قبل أن يعمل تجار مدينة دياب Dieppe الفرنسية ، والبرتغاليون من بعدهم الى الاستحواذ على ذهب السودان عن طريق البحر .

الواجهة البحرية :

يجدر بنا دائماً أن نتصور مخطط افريقيا الشمالية المؤلف من شرطان موجهة من الشرق الى الغرب ، وكذلك انفتاح السهول في نهايتيه :

ففي الشرق تظهر منطقة الساحل في افريقية مثلما تنفتح في المغرب الاقصى السهول المشرفة على المحيط الاطلنطي . وانطلاقا من هاتين المنطقتين السهليتين يمكن الوصول خلال بضع ساعات ، بعد عبور البحر ، الى جزيرة صقلية أو الى اسبانيا . وقد أمكن التعرف على قيمة هذا الموضع وعلى أهميته الاقتصادية منذ عهد طويل . هذا وتكون مدن حافتي مضيق صقلية شأن مدن مضيق جبل طارق مرتبطة ببعضها بتجارة نشطة . وقد كانت النهايتان الغربية والشرقية لبلاد افريقيا الشمالية قواعد انطلاق الفتوحات الاسلامية باتجاه الغرب الاوروبي الهمجي ، مثلما كانت موانىء هاتين المنطقتين السهليتين مقر دور صناعة بحرية بفضل أخشاب غابات السلاسل الجبلية الساحلية وبلاد البربر ابتداء من جبال الخمير حتى سلاسل الريف غربا ، مثلما كانت محطات لاستقبال المؤثرات الشرقية التي كانت تصل من شرقي البحر الابيض المتوسط وتنتشر باتجاه الغرب ، مثلما كانت هذه المدن مستودعات لتوزيع منتجات السودان : اذ كانت منطقة ساحل افريقية تقوم بتصدير هذه السلع نحو صقلية والمشرق الاسلامي ، مثلما كانت البضائع تنقل عبر مضيق جبل طارق نحو اسبانيا وماوراءها ، أي نحو بلاد

الافرنج ، أي نحو الامبراطورية الكارولنجية ، التي ظلت في معزل عن الموجة الاســلامية •

هذا وللمنطقتين المذكورتين نشاط بحري متميز باعتبارهما مــن مناطق الصيد البحري • فعلى خلاف الساحل الشمالي للمغرب،حيث يدرك البحر الاعماق السحيقة مباشرة ، وبالتالي يكون فقيرا برفوف الاسماك ، فإن العتبة الساحلية عند المضيقين المذكورين تكون مغطاة بمياه غنية بالاسماك مثلما يكون تصبير الاسماك بقصد التصدير ممكنا فيهما لتوفر الملح البحري والملح الصخري الوارد من ممالح الداخل • هذا ومن ناحية أخرى فإنه من الميسور الانتقال الى الساحل المقابل : أي من مدينة المجوس الواقعة عند النهاية الشمالية للرأس الطيب،أو الوطن القبلي ، نحو صقلية ، أو من ميناء قصر المجوس الواقع بين سبتة وطنجة باتجاه طريفة والجزيرة على الساحل الاسباني • وهكذا كان البربر الصيادون والمشارقة التجار عبارة عن مجتمعين مهيئين بالوراثة لأن يلعبا دوراً كبيراً عندما تتوفر لهما الشروط الموائمة ، أي عندما ينفتح أمامهما أفق تجاري فسيح كما حدث على أثر نشوء العالم الاسلامي •

هذا وتحوي الطريق البحرية التي تربط المشرق المسلم عــن طريق ساحل خليجي سيرت بإفريقية ، ثم بساحل المغرب الشمالي ومضيق جبل طارق بإسبانيا، أقول تحوي بنية مزدوجة ، أولا علاقات مباشرة : فقد شيدت فيها موانىء كبرى، مجهزة بأحواض وبمكاسر ، وبأبراج وبسلاسل وبترسانات كالاسكندرية والمهدية وتونس وبجاية • وكانت ترسو فيها سفن ضخمة وتفرغ فيها أوساق كبيرة من السلع • وقد اتسعت الحركة بين القرن السابع والقرن الحادي عشر • ففي تلك الفترة ظهر نمط السفينة التجارية الضخمة ، أي ظهور مركب البحــر الابيض المتوسط ذي الجوانب العالية والصاريتين المجهزتين بقلوع « لاتينية » ، وهو استمرار للسفينة التجارية القديمة في البحر الابيض المتوسط مع إغنائها بتقنيات جديدة وافدة من المحيط الهندي ، وهو المركب الذي يعتبر أصل السفن الجنوية

والبندقية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر • ولكن البحارة كانوا يمارسون أيضا الملاحة الساحلية ، من مرسى الى مرسى ، والذي يكون أحيانا عبارة عن مأوى كالخلجان الصخرية ، والمصبات النهرية أو البلاجات الرملية التي تسحب القوارب الصغيرة من فوقها • وكانت هناك سفن ذات حمولة أصغر كالفلوكة التي لا تزال حتى أيامنا هذه تقوم بتوزيع الاواني الفخارية المصنوعة في نابل ، أي سفن ظلت تمارس الملاحة الساحلية القديمة • وكانت هاتان الشبكتان من الطرق البحرية تتمازج وتتوضح ، فتجاه كل مدينة من ساحل المغرب مثلا كانت تقوم مدينة على الساحل الاسباني المقابل •

وقد اكتمل فتح افريقية تقريبا في النصف الثاني من القرن الثامن ، ولكن كان من اللازم تأمين سلامة الحاميات ودرء أخطار تهديد غارات خارجية قد تتعرض لها البلاد ، أو أخطار عمليات إنزال محتملة قد تقوم بها الاساطيل البيزنطية • أما في الداخل فقد جرى دعم وترميم الحصون القديمة ، كما أقيم على طول الساحل جهاز دفاعي كامل ضد محاولات الانزال الرومية • وامتدت سلسلة من الرباطات[1] على طول الساحل البحري ابتداء من سواحل الشام حتى المغرب ولاسيما على الساحل التونسي الشرقي ، وهي عبارة عن مراكز رصد واشارة ، وحصون دفاعية ساحلية معدّة لحماية النشاط البحري ، ولا سيما حماية الانفتاح الثمين والضروري على البحر • وتتألف الحاميات من رجال ورعين أو مرابطين نذروا أنفسهم لتأدية العبادات وحماية بلاد الاسلام من الكفرة • وهذه الرباطات هي قواعد انطلاق حملات،وغزوات،ولكنها في الوقت نفسه مراكز مقاومة ولنشر الاسلام ، أي تماثل ثغور آسيا الوسطى ، وكذلك ثغور حدود الاناضول ، أو ثغور اسبانيا • تلك هي اذن أبنية ذات طابع مزدوج ، عسكري وديني ، يحميها جنود مجاهدون • وهذه الرباطات هي أصل تلك الرهبانيات العسكرية النصرانية في القرون الوسطى في فلسطين إبّان الحروب الصليبية ،

(١) من كلمة ربط ، ومرابط يعني الذي نذر نفسه للدفاع عن بلاد المسلمين والجهاد • واصل المرابطين يعود لرباطات الساقية الحمراء في جنوب غرب السوس •

وفي اسبانيا خلال عمليات الاسترداد . ومن أشهر رباطات ذلك العصر هي رباطات الاسكندرية وصفاقس والمنستير وسوسة وتونس ، والرباط (مقابل سلا) على الجانب الايسر من نهر أبو الرقراق ، وقو امتدت الرباطات حتى ساحل أفريقيا الغربية .

وقد امكن الاحتفاظ برباطين على الساحل التونسي وتمت دراستهما بصورة تفصيلية(١) وهما رباط المنستير الذي بني عام ٧٩٦ م على يد الحاكم العباسي هرثمة بن عيّان وجرت توسعته لاول مرة ابتداء من القرن التاسع ، وللمرة الثانية في مطلع القرن الحادي عشر ، أما رباط سوسة فقد شيّد في الربع الاخير من القرن الثامن بجهود الحاكم العباسي يزيد بن حاتم ، وأكمل سنة ٨٢١ ببرج مراقبة بأمر من ثالث أمير من أسرة الاغالبة . ويتألف كل من هذين الرباطين من أبنية حول ساحة مركزية تقوم على خاصرتها أبراج مستديرة ذات شرفات . ذاك هو المخطط المألوف في القلعة البيزنطية ولكن مع عدة اضافات تحسينية . ويكون الباب مجهزاً بوسائل دفاعية : شبك حديدي ، شرفات ذات فتحات سفلى أو مقاتل متعاقبة على دهليز الدخول ، وهي وسائل معروفة في بلاد مابين النهرين، وفي أرمينية الساسانية ، وقد اقتبس الصليبيون هذه الطريقة فيما بعد . ومن جهة أخرى يكون لهذه الحصون شرفات كبيرة على شكل نصف دائرة ، ويقوم في احدى الزوايا برج مربع يعلوه برج رصد مستدير ومتعدد الطوابق ، كتلك الشرفات والابراج التي لانزال نعثر عليها في أوابد الشرق القديمة . وهذا مادفع للافتراض لدرجة تقارب اليقين بأن مهندسا من بلاد الشرق ، متآلف مع التحصينات الايرانية ورباطات آسيا الوسطى كان له رأي استشاري في اختيار الولاة العباسيين والاغالبة .

وكما نشأت مدن القوافل على طريق القصور في الجنوب ، فقد نشأت على ساحل افريقيا الشمالية موانىء تؤلف خط تطور عمراني ينسجم مع شبكة

(١) A. LEZINE, « Deux ribats du Sahel tunisien », Cahiers de Tunisie, IV, 1956, pp. 279-288, pl .

الاتصالات العامة : فكانت عبارة عن موانىء جديدة أو مراكز ملاحية قديمة منتعشة احتفظت أحيانا باسمها البوني أو الروماني القديم ولكن بعد تعرضه للتحريف •

وهكذا اتسعت تونس بعد سقوط قرطاج عام ٦٩٨ م بيد الفاتح حسّان • وقد هجرت المدينة القديمة وأصبحت ميداناً تتناثر فيه الاطلال التي استغلت كمقالع لحجارة البناء • وقد قام المركز العمراني الجديد ، أي تونس ، فوق موقع تينس Tynès وهي أحد أرباض قرطاج ، وحفر حسّان قناة عبر البحيرة الضحلة تصل تونس بالبحر فأصبحت ميناءً على لاغون • وتم استقدام بضعة آلاف من أقباط مصر مع عائلاتهم ، من المختصين في صناعة بناء السفن ، كي يعملوا في دار صناعة تونس • وقد سبق أن جيء بعدد من الناخوذات من الخليج العربي لكي يعملوا في ورشات البناء البحري على الساحل الشامي • والآن جاء دور العمال الاقباط ليشتغلوا في دار صناعة تونس ، ووصل من بعدهم الصنّاع السوريون والمصريون والافارقة الى السواحل الاسبانية ليعملوا في أكبر مشروع قامت به أمارة قرطبة وهو ميناء المرية،وهكذا كان الرجال ينتقلون من الشرق الى الغرب، حاملين معهم تقنيات واصطلاحات دالةعليهم،من عجم أو اغريق،متسربلين باللباس العربي ، وهم الذين أوجدوا قائمة مصطلحات تقنية استعارتها اللغات اللاتينية والتي تسللت الى اللغات الجرمانية •

وشهد العصر الفاطمي نشوء مدينة المهدية على ساحل افريقية ، والتي بناها عبيد الله سنة ٩١٥ م ، الذي كان يرغب في الابتعاد عن القيروان التي كانت مدينة كبيرة مشاغبة لا تحوي سوى القليل من أنصار الشيعة • وقامت المدينة المذكورة فوق شبه جزيرة صخرية تتقدم في البحر ، ومن السهل قطع الطريق البري الذي يصلها بالقارة • وكانت تضم في وسطها جامعا كبيرا وقصرين لسكنى المهدي وابنه بالاضافة الى دار المحاسبة،وكانت الاسوار تشتمل على كل المنشآت العمرانيةوتغلق بأبواب حديدية • وكان في المدينة ٣٦٠ من المواجن الكبيرة المنقورة في الصخر

وذات الجدران المجصصة لاختزان مياه الامطار والسيول ، وكانت تقوم الى جوارها الآلات الرافعة لتموين المدينة بالماء • وكان ربض زويلة يضم أسواقاً مبنية من الصخر المنحوت وكذلك العديد من المساكن • وكان يتألف ميناء المهدية ، الممتد على طول ساحل شبه الجزيرة ، من حوض مستطيل محفـور بالصخر ، طوله ٥٧ م في ٢٦ م عرضا ، مع ممر مائي عرضه ١٥ مترا • ويستطيع هذا الحوض ايواء ثلاثين سفينة حسب قول البكري • وكانت أسوار المدينة تحمي الميناء ، وكان ينفتح فيها باب مائي ، وكان يقوم على جانبيه برجان يرتبطان بقنطرة كانت تمر من تحتها السفن وبسلسلة ممدودة تستطيع حجز الطريق المائي • وفي١٠٥٧م أصبحت المهدية ملجأ الامراء الزيريين على أثر الاجتياح الهلالي والتخلي عـن القـيروان •

وكانت تقوم مدن اقليم افريقية هذه بتجارة ناشطة مع بلاد المشرق المطلة على البحر الابيض المتوسط وصقلية واسبانيا • وكانت تونس أول ميناء يتم الابحار منها مباشرة نحو طرطوشة الواقعة على دلتا نهر الإيبر • وكانت قابس وهي مدينة واقعة على البحر الابيض المتوسط و « صحراوية » في الوقت نفسه منفذاً على بحر الجريد وعلى طرق السودان ، هذا كما كانت صفاقس والمهدية وسوسة موانىء تصدير الزيت الذي تنتجه غابات الزيتون في منطقة الساحل التونسي• ومن هذه الموانىء ومن تونس كانت تصدر نحو المشرق منتجات البلاد من قمح وزيت ومرجان مرسى الخرز ، فضلا عن منتجات ظهير المنطقة النوميدي كالصوف والجلود والشمع والخيول • وظلت افريقيا الشمالية مع بلاد الشام مركزاً لتزويد جيوش سلاطين مصر بالخيول حتى عصر لويس التاسع الصليبي وما بعده ، كما كانت افريقية مركز تجارة الترانزيت بالنسبة لمنتجات السودان كالذهب والعبيد السود ولاستيراد منتجات الشرق كالمنسوجات والعاج واللؤلؤ وسلع الترف ، وكذلك الحال بالنسبة لمنتجات الغرب كرقيق الصقالبة والفراء والسيوف •

وكانت هناك موانىء أخرى ترتصف على ساحل المغرب الاوسط ابتداء من

تونس حتى سواحل المغـرب الاقصى مثـل بنزرت أو Hippo Diarrythus
ومرسى الخرز والقالة ، حيث كان يتم صيد المرجان بواسطة أسطول صغير مجهز
بشباك ترتبط بها صلبان خشبية ذات شكل معين ومزودة بأطراف حديدية •
وكان ينظر الى المرجان الاحمر على أنه جالب للحظ وكان تصديره هاما نحـو
أقطار المحيط الهندي التي لاتحوي بحارها سوى المرجان الابيض • هذا كما
كانت عنابة أوHippo régia, Hippône, Bône، تقوم بتصدير حديد جبل أدوغ
لواقع خلفها • أما ساحل بلاد القبائل الصغرى فكان يصدر الاخشاب بواسطة
سفن الملاحة الساحلية نحو الترسانات البحرية في افريقية مثـل سكيكدة أو
Rusicada ونحو بجاية التي كانت ترساتنها تعتمـد على المواد المجاورة من
أخشاب وحديد وقطران وشمع لقلفطة هيكل السـفن • كما كان هناك ميناء
الجزائر ، أو ميناء مازغنّه الذي تأسس سنة ٩٤٦ على يد الامير الزيري بولوغّين،
سوقا لقبائل الداخل • ونضيف الى ذلك ميناء شرشال Iol, Caesara ، وميناء
تينس ، الذي أنشىء عام ٨٧٥ـ٨٧٦م بجهود عصبة من المغامرين الاندلسيين
الذين نظموا اقامة سوق مع بربر المناطق المجاورة ونصبوا الخيام وشيدوا حصنا
ثم مدينة • وتدين وهران بنشوئها لظروف مشابهة اذ أقام مغامرون أندلسيون
علاقات مع قبائل بربرية حوالي العام ٩٠٢ـ٩٠٣م ، وقد أحرق البربر هذه المدينة
الجديدة سنة ٩١٠ ، وأعيد بناؤها في العام التالي ،وظلت مزدهرة حتى سنة ٩٥٤م
حيث تخرجت على أيدي رجال قبيلة بني ايفران ثم أعيد بناؤها بعد بضعة أعوام•
ونجد أخيرا في المغرب الاقصى مدناً قديمة على بحر الزقاق مثل سبتة septem
وطنجة Tengis كما قامت مدن جديدة مثل قصر مصمودة • وكانت تقوم على
ساحل المحيط الاطلسي مدن أخرى مثل أرزيلا التي أنشئت في القرن العاشر ،
وشمّيش وهي Lixus أو العرائش Larache ، وسلا والرباط على تخـوم
المغرب الاقصى المعروف في العهد الروماني • والى الجنوب من ذلك شهد العصر
الاسلامي نشوء موانىء جديدة مثل آسفي والصـويرة Mazagan وأغادير

وماسه وذلك نتيجة جاذبية الجنوب على الصعيد الاقتصادي ، وللاهمية التي اكتسبتها المحطات النهائية لطرق القوافل نحو السودان • وكانت موانىء المغرب الاقصى هذه تمارس تجارة نشيطة مع الموانىء الجنوبية على ساحل شبه جزيرة ايبريا المطلة على المحيط الاطلسي مثل ميناء قادس الواقع على مصب نهر الوادي الكبير ، وحتى مع اشبيلية وقرطبة بواسطة السفن النهرية ، وكذلك شلطش Salte's والقصر Alcacer do sal وكانا من أهم موانىء منطقة الغرب Algarve على الساحل البرتغالي الجنوبي • وكان يصدر المغرب الى هذه الموانىء الاندلسية الحبوب والمواشي والصوف والجلود والشمع والعسل من ظهير البلاد الاطلنطية هذا فضلا عـن الفلزات كالحديد والفضـة ، ولاسيما نحاس جبال الاطلس المراكشـي •

طريق الهضاب العليا :

لقد وقع أول هجوم اسلامي على افريقية في سنة ٦٤٧ م ، وقد رأينا أن المدن التي كانت تدافع عنها حاميات بيزنطية سقطت بسرعة • وقد اختص سكان المدن الفاتحين باستقبال طيب لأنهم حملوا معهم سلطة قوية وتنظيما اداريا حضريا عمرانيا ووقاية من البدو • أما المقاومة فقد كانت في مناطق الداخل البربرية من من جانب سكان الجبال المستقرين ومن جانب بدو الهضاب • وكانت القيروان التي أسسها عقبة بن نافع في عام ٦٧٠ تقع في قلب السهل ، خلف منطقة الساحل التونسي ، وكانت عبارة عن رأس جسر ، أو معسكر ، أو رباطا بعبارة موجزة• ويوحي لنا اسمها نفسه بأنها كانت عبارة عن منزلة ، مرحلة ، رباط ، أومعسكر• ويسمح موضعها الواقع عند محطة وصول الطريق الكبير القادم من مصـر ، يسمح بالهجوم وبالانسحاب • فقد سقطت هذه المدينة عدة مرات في أيدي البربر المتمردين في أعقاب الثـورات الخوارجية في أواسط القـرن الثامن وتهدمت أسوارها • وفي عام ٧٧٢ استطاع يزيد بن حاتم أن يسترد السيطرة على القيروان بعد أن انتصر على الرافضـة ، وأعاد بناء الجامع الكبـير وزاد علو أسوارها

بالطوب[1] والتي بلغ سمكها اثنا عشر ذراعا ، أي قرابة خمسة أمتار ، وبنى سوقاً لكل مهنة على حدة ، حتى انه ليعتبر المؤسس الثاني لمدينة القيروان بعد عقبة بن نافع . وبعد أن تمت السيطرة على كل المغرب ، أو على الاقل على كل ممرات المواصلات الكبرى الواقعة بين جبال البربر ، أصبحت القيروان نقطة انطلاق طريق الهضاب العليا ابتداء من الساحل التونسي مرورا بحوض الطرف شمالي جبال الاوراس وشط الحضنة مع فرع يتجه نحو بجاية من جهة الشمال ، ونحو بسكرة وورقلة من ناحية الجنوب ، وبالهضاب العليا من الغرب عن طريق ممر تازة حتى بلوغ الانفتاح الثاني على سهول المغرب الاقصى .

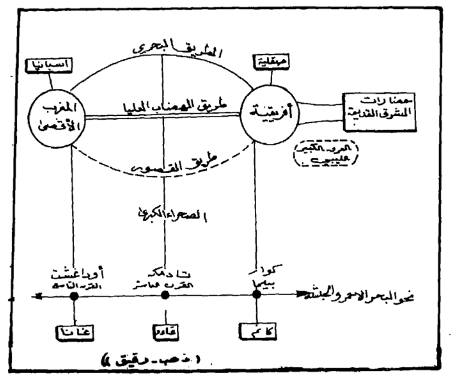
هذا وقد توسعت مدينة القيروان الاولية توسعا عظيما في عهد الاغالبة الذين حكموا بين ٨٠٠ و ٩٠٩ م ، وهي أسرة حاكمة قدمت من المشرق ، وكانوا ولاة عباسيين مستقلين تماما ، مثلما توسعت في عهد الفاطميين . وفي القرن التاسع والعاشر نشأت حولها ثلاثة أرباض هي العباسية ثم الرقادة وأخيرا صبرة المنصورية .

وكما كان هو حال فسطاط القاهرة وقرطبة ، فإن القيروان كانت تستمد أهميتها من التضخم العمراني الذي يدعمه ازدهار تجاري . ويشهد مخطط المدينة ومنظرها العمراني على مؤثرات قادمة من الرقعة الايرانية العراقية الخاضعة للعباسيين . وقد تمكن الأدباء والفقهاء والعلماء المشارقة الذين اجتذبهم ثراء بلاط أمرائها أن ينشئوا مدرسة تحتذى ، وتثقف البربر على أيديهم ، تماما كما تعلم أجدادهم في الماضي من أساتذتهم الرومان . وهكذا أصبحوا متأثرين بالاسلام وحتى بالطابع الايراني . وبعد أن اقتبست العاصمة الجديدة أولا المؤثرات الدينية واللغوية والفنية والادبية والعادات والاطارات النفسية الجديدة راحت هذه المؤثرات نفسها تنتشر فيما حولها مثل بقعة الزيت كي تتجه فيما بعد

(١) الطوب في مصر ، والطابوق في العراق ، واللبن في سورية او القرميد ، عبارات تعني الآجر النيىء او المشوي .

نحو الداخل عن طريق الهضاب العليا على أثر تهشيم الحاجز البربري ، وبعد أن انحسرت بقاياه نحو الكتل الجبلية حيث ظلت اللغة البدائية دارجة على الالسن. وقامت مدن جديدة على طول هذا الطريق حتى ان طريق الهضاب العليا تتقاطع مع الطرق القادمة من الجنوب ابتداءً من مدن نهايات طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء .

ترى ماهي نقاط تقاطع شبكة الطرق التجارية الواسعة في المغرب الاوسط ؟ نذكر أولاً مدينة تاهرت الواقعة غربي وادي الشلف ، على خاصرة الجبل ، والتي تشرف على مسالك الهضاب العليا . فبعد أن تأسست سنة ٧٦١ ، ظلت حتى عام ٩٠٨ مقر الامراء الرستميين الفرس وعاصمة أتباع المذهب الخوارجي البربري الذي ظل يحتفظ بعلاقات مع خوارج الخليج العربي . وكانت تجارتها مزدهرة ووفد عليها العديد من المثقفين المشارقة ، وزاد ثراء مكتبة الرستميين الجليلة



شكل ٥ ـ طرق التجارة والتاثيرات في افريقيا الشمالية (القرن ٨ ـ ١١ م)

بكتب تم شراؤها من الشرق ، ولاسيما كتب التنجيم وعلم الفلك • وعنـدما بحث الرستميون عن ملجأ لهم وجـدوه أولا في ورقلة ، وفي سدراته ، ثم في المزاب ، أي على طول الطريق الواصل بين الشمال والجنـوب • وقام الولاة العباسيون في آخر القرن الثامن بتحصين مدينة تبنه الواقعة على شط الحضنة• وفي عام ٩٢٧ قام ابن أول خليفة فاطمي عبد الله بتأسيس مدينة مسيلة الى الشمال من تبـنة •

وقام الزيريون الصنهاجيون ، بدورهم ، وهم من أتباع الفاطميين الذين تركوهم كنواب لهم في المغرب بعد رحيلهم الى مصر ، قاموا بتأسيس زمرة من المدن • وقد قام زيري بن مناد ، وذلك قبل رحيل الفاطميين أنفسهم سنة ٩٣٥ م، وهو جد الاسرة الزيرية ، بتأسيس مدينة عشير ، بين وادي الشلف والحضنة ، على خاصرة الجبل • وقد أمكن العثور على العمال النجارين والبنائين محليا ولكن زيري طلب من الخليفة الفاطمي تزويده بمهندس عمراني • وقد عرفت هذه المدينة توسعاً سريعاً • وأسّس ابنه بولوغّين بن زيري مدينة ميدية فوق هضبة تقع الى الشرق من نهر الشلف كما أنشأ مدينة مليانة على الضفة اليمنى من النهـر المذكور ، وكذلك أسّس مدينة الجزائر ، وهـي مراكز عمرانية كانت تواكب الطريق مـن عشير الى البحر • وقام حماد الابـن الثاني لبولوغّين عام ١٠٠٧ بتأسيس قلعة بني حماد على خاصرة جبل الى الشمال من شط الحضنة ، وكانت عاصمة الحمّاديين • وقد خلفت هذه المدينة أطلالا واسعة ، وقد كان للقصر مخطط مماثل لمخطط سامراء ، وهو مخطط نعثر على مثيله في القصر بمدينـة اشبيلية • وقد تزايد سكانها بسرعة وكانوا يتألفون من تجار وفنانين وعلماء • وقد كانت أقمشتها الصوفية تتمتع بشهرة في سائر أنحاء المغرب ، وكانت القوافل تقصدها من كل مكان • وكانت لها علاقات تجارية مع مصر وبلاد الشام والعراق• وقد استفادت قلعة بني حمّاد خلال النصف الثاني من القـرن الحادي عشر من خـراب القيروان وبلاد افريقية التي اجتاحتها جحافل الهلاليين الى أن جاء حين

من الدهر اختنقت هي ذاتها تحت وطأة زحف البدو نحو الغرب ، ولاسيما عندما بحث الحمّاديون أنفسهم عن ملجأ لهم في بجاية .

والى الغرب من مجال قبائل صنهاجة ، ولاسيما الزيريون والحماديون ، كان يمتد مجال زناتة والذي كان يغطي منطقة وهران الغربية والمغرب الاقصى. وكانت المدن الرئيسية في المنطقة تتألف من تلمسان ، واسمها القديم Pomaria ووجدة التي أنشأها زعيم من زناتة سنة ٩٩٤ م على الطريق المتجهة غربا ، أي على الطريق الذاهبة الى تازة وفاس . وعلى أثر وصول ادريس الى المغرب عام ٧٨٨ ، وهو أمير شرقي وابن أحد الاشراف من سلالة الرسول ﷺ ، بحث عن ملجأ له في وليلي بجوار قبيلة أوْربة . أما أخوه سليمان الذي لحق به بعد وقت قليل فقد قصد مدينة تلمسان . وهكذا أوجدا أمارتين احداهما في تلمسان والثانية في فاس . وقد كان هؤلاء الادارسة من كبار مؤسسي المدن ومرمّميها. فقد منح ملوك تلمسان دفعة جديدة لهذه المدينة التي كان سكانها كثيفين جداً في القرن التاسع حسب قول اليعقوبي وكانت فيها قصور ومساكن مرتفعة داخل السور الحجري المزدوج ، كما أوجدوا موانئها مثل أرشغول فوق جزيرة رشغون وحنين قرب مدينة الغزوات أو Nemours في فترة الاستعمار الفرنسي ، هذا فضلا عن زمرة من المدن الصغرى والحواضر التي تبلورت فيها أنشطة اقتصادية معينة والتي تحمل اسماً مسبوقاً بكلمة سوق يتلوها اسم مؤسسها مثل سوق ابراهيم ، سوق حمزة الخ ...(١) .

أما ادريس الاول فقد هجر الاطلال الرومانية في فولوبيليس (وليلي) كي يؤسس عاصمته الخاصة ، شأن كل الملوك المشارقة . وهكذا خلفت فاس مدينة فولوبيليس ، مثلما ورثت تونس قرطاج . وقد أحسن اختيار الموقع على طريق يقود شرقاً الى تلمسان ، وجنوباً الى سجلماسة ، في منطقة خصيبة

(١) راجع : وصف افريقيا للحسن الوزان . ترجمة الدكتور عبد الرحمن حميدة ، الرياض ١٩٧٩ ، ص : ١٨٧ .

تحوي على حجارة البناء وعلى الخشب والماء الوفير للشرب[1] . وفي عام ٧٨٩ نهضت المدينة المذكورة على ضفة نهر فاس اليمنى ، الذي يسمى حاليا نهـر السبو . وقد كانت مدينة فاس الاولى قبل كل شيء مدينة بربرية الطراز ، أي عبارة عن تجمع خيام وجامع ، ومساكن شيدت على عجـل ومهملة ، وحظائر للماشية،وربما كانت تحوي عتبراً جماعياً أو آغادير،وكان يحيط الجميع سور من جذوع الاشجار ومن القصب ، واجمالا كانت مدينة متواضعة أقام فيها ادريس الاول بعد أن هجر وليلي ، وتوفي سنة ٧٩١ م .

وجاء من بعده ابنه ادريس الثاني ، الذي ولد بعد وفاة والده ، والذي رباه معتوق والده رشيد ، فاستقدم سنة ٨٠٥ م خمسمائة رجل من أهل المشرق ، والذين جذبتهم هيبة ومقام أحد أحفاد الرسول فضلا عن التوقان للبلادالجديدة، وجاء غيرهم من افريقية . وهكذا تشكلت فرقة مشاغبة ، أي **الجند** ، حول ادريس الثاني ، ونشأ بلاط على النمط الشرقي يرغب في وجود اطار شرقي أيضا.وقامت عندئذ فاس الجديدة عام ٨٠٨ على ضفة النهر اليسرى في اتجاه العالية[2] ، وكانت هذه هي المدينة الرسمية مع جامعها الكبير وهـو جامع الشرفاء « أي أحفـاد الرسول » ، وكانت الاسواق تقوم الى جانب القصر ، ودار سك العملة ، التي كانت تضرب فيها النقود منذ عام ٨٠١ . وكانت تدعى المدينة **العالية** ، أي المرتفعة، في حين دعاها اليعقوبي **افريقية** ، وبعد مضي بعض الوقت دعيت عـُدوة القرويين. وظل البربر دوماً يقطنون المدينة القديمة التي احتفظت بمظهرها الريفي . وعلى أثر ثورة الربض في قرطبة عام ٨١٤ م هاجرت جماعات من الاندلسيين نحـو أسكندرية مصر ثم الى كريت ، في حين استقبل ادريس الثاني ٨٠٠٠ أسرة منهم في ضاحية فاس الواقعة على الضفة اليمنى ، أو عـُدوة الاندلس ، وكان لهـذا الحي مسجده وأسواقه ودار خاصة بضرب النقود .

(١) E. Levi-Provençal « La fondation de Fès », Annales de I,institut d, études orientales d,Alger, IV, 1938.

(٢) عالية النهر اي في اتجاه المنبع . وسافلته في اتجاه المصب .

وحدث نفس التوسع العمراني في جنوب المغرب الاقصى مثل أغمات ونفّيس ، الواقعتين عند الممرات المؤدية الى السوس الاقصى (ايغلي) ونحو اقليم تافيلالت ، كمدينة سجلماسة ، وكذلك تم تأسيس مدينة مراكش على أيدي المرابطين الذين قدموا من رباطات الصحراء الكبرى سالكين دروب القوافل . وكانت مراكش في البداية عبارة عن معسكر يجمع أشتاتا من بيوت وخيام ، ثم بُني لها سور وأبنيةعامة كالجامع والقصور ، وكان لها تطور فاس نفسه أي من معسكر بربري الى مدينة شرقية ، واستطاعت هذه العاصمة الكبرى أن تفرض اسمها على سائر القطر المغربي فدعي مراكش أو Maroc بالفرنسية .

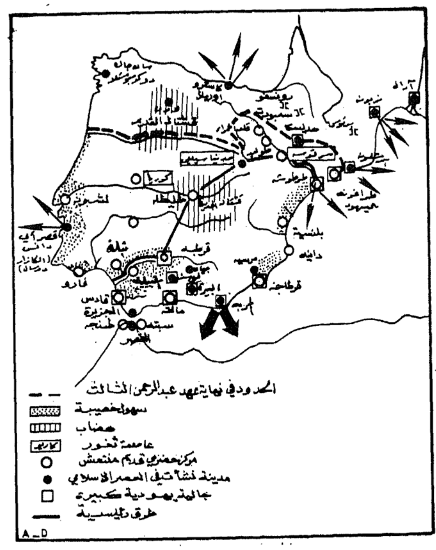
وهكذا دخل المنطقة الغربية من المغرب نمط جديد من المدن والتي لم تعرف فيما سبق سوى التجمع الريفي من الطراز البربري والمدينة الرومانية . وعادت الحضارة العمرانية للظهور فيه على شكل جديد ، هو شكل المدينة الشرقية ، النشيطة تجاريا ، مع أسوار وأبواب ، وأحياء منفصلة ، وأسواق وصناعات ، ومعها نمط جديد من الافراد ، هو نمط البورجوازي الفاسي ، وهو بربري أثر فيه الاسلام بصورة عميقة ، وبفضل جهوده أخذت الفعالية العمرانية بالاشعاع .

إسبانيا

تشتمل شبه جزيرة ايبريا على سهول ساحلية ، وهي مناطق خضعت منذ البداية للسيادة الاسلامية : مثل سهل الشرق Levante أو Campus juncarius وهو عبارة عن منطقة جديدة لم تستنزف خصوبتها ، ثم منطقة الغرب ، وهي منطقة غابات وغوطات،ثم الهضاب الداخلية المؤلفة من سهوب ومن مزارع وحيث تكون المواصلات ميسورة ، ونجد أخيرا المناطق الجبلية التي تلعب دور ملاجىء وتظل في منأى عن التأثير المباشر ، وهي بلاد استرامادور . وهكذا تبدو هذه البلاد مجزأة طبيعيا ، ومتنافرة . أما الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة والمأهولة بأقوام الاشتور ، والكانتابريين ، والغاسكونيين ، فلم يحتلها الويزيقوط

مطلقاً ، مثلما لم تسقط بأيدي المسلمين أبدا • وقد لعبت على الدوام دور منطقة انسحاب ولجاة ، وتحولت في وقت متأخر الى مملكة اشتورية ليونية لعبت دور قاعدة لحملات الاسترداد •

هذا وقد كانت الجبهة الشمالية لبلاد الاندلس منطقة تخوم marches ، أو نطاق غزوات ، تحرسه زمرة من القلاع المتقدمة • أما المدن الواقعة خلف هذه الجبهة فقد كانت عواصم ثغور ، فكان هناك الثغر الاعلى في سرقوسة ، والثغر



شكل ٦ ـ الرقعة الاسبانية

الاوسط في مدينة سالم médinaceli ، والثغر الادنى في كورية Coria ،وكانت الطرق تجتاز نطاق الغزوات في بعض المناطق المعينة • وكان الطريق الاوسط ينطلق من سرقوسة ماراً بطليطلة حتى قرطبة واشبيلية حيث يتصل بأسطول الزوارق العاملة على نهر الوادي الكبير • وكانت طرق المواصلات المنطلقة من قرطبة تتخذ شكلا نجمياً • فطريق الايبر يذهب من طرطوشة ماراً بسرقوسة وطليطلة حتى ممر فيتوريا Vittoria • وكانت الطرق البحرية الرئيسية على الساحل الشرقي هي الواقعة بين ناربونة والمرية وحتى الوادي الكبير،وعلى الساحل الغربي بين كاستر واورديا ليس على خليج غاسقونية حتى قصر دوسال ، أو قصر أبي دانس ، وحتى الوادي الكبير •

الاساس الايبري

اذا تركنا جانبا عنصر الباسك في الشمال الغربي ، فإن اسبانيا كانت مأهولة عند دخول المسلمين بأقوام ايبرية قديمة اختلطت بعناصر جرمانية ومشرقية من سوريين ويهود • أما الاقوام السلتية الايبرية المتأثرة بالصبغة الرومانية ـ أو بالاحرى الذين فقدوا خصائصهم الرومانية ـ فقد كانوا يعيشون مبعثرين في مناطق قفراء أو تكاد • أما المنطقة الشرقية ، أوليفانت ، فهي منطقة مستنقعات وبحيرات ساحلية ضحلة مالحة ، لاغونات ، لم تكن تستمد أهميتها الا من الطريق الساحلية ، وقد انحرف هذا الطريق في الحقبة الاسلامية نحو الداخل • أما منطقة الغرب فقد كانت مغطاة بغابات الصنوبر وقليلة السكان للغاية • هذا كما كانت المناطق الجبلية نادرة السكان ، وحتى خالية منهم ، شأن مناطق الهضاب masas في الداخل • ولم تكن اسبانيا ، شأن أقطار المغرب ، عرضة لاندفاع ديموغرافي قبل الاسلام • وقد انبعثت بين السكان النعرات القومية العائدة لما قبل العهد الروماني ، كالسلتية والايبرية ، وذلك على أثر حالة الفوضى والتقهقر الاقتصادي في نهاية عهد الامبراطورية الرومانية •

وقد اشتد هذا الاتجاه استفحالا على أثر وصول عصائب الويزيغوط ، التي ظلت في مرحلة لاتزال بدائية من حيث التنظيم الاقتصادي والاجتماعي . وكان المجتمع الايبري القديم متصفاً بقوة العلاقات العاطفية والشخصية ، أي علاقات الانسان بالانسان أو ما يسمى devotio iberica الذي تكلم عنه المؤلفون اللاتين الذين سردوا قصة استيلاء الرومان على اسبانيا ، مستخدمين نفس العبارة عند وصفهم للمجتمعات الجرمانية . وقد كانت مستويات وأنماط المعيشة متماثلة بين الفاتحين والمغلوبين . فقد كانت الرابطة العائلية والقبلية ، وهي الخلية البدائية المتميزة لدى الشعوب الجرمانية ، كانت موجودة لدى الاقوام الايبرية. وكانت كل عشيرة متشبثة باستقلالها بشراسة . صحيح أن هذا التنظيم دقيق ولكنه فوضوي ، مماثل تماما للتنظيم القبلي لدى بربر المغرب والذي يمكن أن يساعدنا في شرح التفتت الذي حدث فيما بعد في عصر ملوك الطوائف .

اذن حدث تقهقر وعودة الى التقاليد السابقة للحقبة الرومانية وساعد على ذلك الوضع الاقتصادي وانهيار الكيان الحكومي ، وهيمنة الحكم الجرماني . وقد كان من المتوقع تلاشي الطابع الروماني أكثر من ذلك لولا الكنيسة التي كانت المؤتمنة على التقاليد واللغة اللاتينية . وقد كانت الاسقفية الاسبانية قوية وغنية منذ البداية . فكانت تستمد عناصرها الاكليروسية من بين أبناء كبار الملاكين ، كما أن هبات الاتقياء منهم كانت تساعد على زيادة أطيانها وأملاكها. وقد عمل الانتقال من الملكية الويزيغوطية الآريوسية الى الكثلكة على دعم وضع الاساقفة ، وعلى الاخص مطران طليطلة الذي كان يعتبره الخلفاء دوماً شخصية كبيرة . فعندما قدم ملك ليون أوردينو الرابع لزيارة قرطبة في عهد الحكم الثاني ، الذي تولى الخلافة بين ٩٦١ و ٩٧٦ ، كان مطران طليطلة بين كبار أصحاب المراتب العليا النصارى الذين أوفدوا لاستقبال الملك ولإطلاعه على آداب اللياقة والسلوك في البلاط الاسلامي .

ويفسّر هذا التسلسل المتين في الكنيسة الاسبانية بقاء الجماعات النصرانية

حيّة ، ونشطة ، ومشاغبة أحياناً ، ولاسيما في طليطلة واشبيلية وقرطبة • وكانت المدن معاقل بقاء الروْمنة romanisation والنصرانية ، مثلما أصبحت فيما بعد مراكز « أسْلمة » ولنشر الطابع الشرقي • وكان النصارى يتمتعون بأوضاع أهل الذمة التي كفلتها لهم غالبا معاهدة تسليم حقيقية ، كالمعاهدة التي وقعها ثيودمير بالنسبة لمنطقــة مرسية • وقد تعهد الفاتحون باحترام ديانة المغلوبين وكنائسهم • وكان التسامح مضــمونا للجميع باستثناء المرتدين عن الاســلام والنصارى الذين يحاولون « الاستشــهاد » وكان المولّدون ، أو المستعربون mosarabes يتجمعــون في طــوائف تحت ســلطة رؤســاء يختارونهم ، رؤساء مسؤولين عن حفظ النظام وجباية الضرائب حسب المفهوم الشرقي مثــل القمص أو defensor وهو مندوب الطائفة ، والاسقف ، والجابي الذي يجمع الضرائب ، وأخيرا قاضي النصارى Censor • وكان لهم نظام طقوس خاص • وتفسر قوة تماسك الكنيسة النصرانية أيضا بقاء اللغة اللاتينية التي تطورت الى لغة رومانية مع تبني كلمات عربية وعلى الاخص في العبارات التقنية • وهكذا نشأ تقويم قرطبة عام ٩٦١ م المزدوج اللغة : العربية واللاتينية[١] • وبقيــت الكنيسة النصرانية محافظة على صفاتها الجوهرية منذ العهد الويزيغوطي حتى الاسترداد ، كما ظلت علاقاتها مع الدول النصرانية الشمالية تزداد وثوقاً حتى نهاية القرن العاشر •

المشارقة : Les levantins

لقد كان العنصر الهام الآخر بالنسبة للكنيسة الويزيغوطية هو العنصــر المشرقي Levantin الذي ازداد قوة في العصر الاســلامي بسبب قدوم أفواج جديدة من المشارقة•ويتألف هؤلاء أساساً من تجار سوريين ويهود،ويتمركزون على الاخص في مناطق المرور الكبرى ، أي في جنوب غرب وشمال شرق شبه

(١) Ed. R. Dozy, Le calendrier de Cordoue de l'année 961. Texte arabe et ancienne tradition latine. Leyde, 1873. Nouv. éd. et trad. par Ch. Pellat. Leyde, 1961.

الجزيرة ، وفي الجنوب قرب مضيق جبل طارق ، أي في المجال القارطاجيني القديم حيث كانت لاتزال اللغة البونية دارجة في القرن الثاني من التاريخ المسيحي ، حول مالقة « الملكية » والتي أشار سترابون الى مظهرها البوني[١] ، وعلى الساحل ، في قادس ، وفي قرطاجنة ، وبين جاليات الداخل مثل لوسنة Lucena بين مالقة وقرطبة ، وفي البيرة « غرناطة اليهود » • وقد كان تهـويد الشتات المشرقية القديمة أحد أهم أحداث التاريخ القديم للبحر الابيض المتوسط•أما في الشمال الشرقي فقد كان المشارقة يتجمهرون عند ممرات جبال البيرينيه«البرانس» أي عند Puertos Secos التي كانت اسبانيا تتصل بواسطتها مع بلاد الفرنجة « فرنسا » • وتتواجد نفس النوعية من السـكان على طرفي الجبل سـواء في سبتيمانيا[٢] أو في قطالونيا كما في مدينة طرطوشة ، وسرقوسـة ، وتوليد ، وطراغونة ، وبرشلونة وناربونة ، والتي كانت عبارة عن محطات لليهود الرادانيين الذين كان طـريق تجارتهم يصـل الى مدينة ليون عن طـريق وادي الرون الى الراين •

هذا ولم تتمكن الاقوام الايبرية والجرمانية من تمثل وهضم العنصـر اليهودي في المملكة الويزيغوطية[٣] • ولكن الوضع ظل متَّسِماً بالتسـامح في عهد الملوك الآريوسبيين ، ولكن الاضطهادات برزت في عهد الملوك الكاثوليك من أمثال ريكاردو • ولهذا لايكون هناك مجال للاستغراب اذا اختص اليهود ، ولاسيما الجاليات المقيمة في الجنوب ، الفاتحين المسلمين باستقبال ترحيبي ، حتى لقد رماهم المؤرخون الاسـبان بالتواطؤ • والواقع كان الجـو موائماً بتأثير الاسرى المسلمين وجنوح العالم الروماني نحو الطابع الشرقي شأن الجزء الهمجي من البحر الابيض المتوسط • وعهد الفاتحون المسلمون لليهود بحراسة المدن المفتوحة بالاندلس كي يتفرغوا للفتح شمالا ، وأصبحت حركة الهجرة اليهودية

---

(١) نسبة الى قرطاج التونسية او الفينيقية الغربية ، وهي لغة كنعانية •
(٢) او منطقة الروسيئون الفرنسية شمالي سفوح جبال البيرنيه الشرقية •
(٣) او القوط عند العرب •

من الشرق باتجاه اسبانيا على شكل تيار دائم • وكانت جالية اليهود في قرطبة أكبر جالية يهودية في كل اسبانيا الاسلامية ، باعتبارها مركزاً اقتصادياً وسياسياً، وحيث كان يقوم كنيس يهودي ، وهذا على الخصوص في القرنين الحادي عشر والثاني عشر •هذ ا كما وجد كنيسان في طليطلة أقيما في القرن العاشر والحادي عشر ، وقد تحولا الى كنيستين نصرانيتين لاتزالان قائمتين حتى أيامنا هذه • وقد لعب اليهود دوراً كبيراً في بلاط ملوك الاندلس مثل الطبيب حسداي بن شبروط الذي كان وزيراً لدى الخليفة عبد الرحمن الثالث • كما قاموا بتنظيم شؤون مملكة غرناطة في القرن الحادي عشر •

وقد عمل العنصر اليهودي أو المتهوّد على تسهيل الاتصالات بين المشرق وبين اسبانيا الاسلامية والاقطار النصرانية في الشمال(١) • وكانت هناك شبكة من الجاليات اليهودية تتناثر على طول وادي نهر الرون والاقطار الرينانية ، والتي كانت نشيطة في تجارة الرقيق على نطاق واسع ابتداء من ضفاف نهر الالب حتى بلاد الاندلس • وأخيراً كانت هناك شبكة يهودية تمتد ابتداءً من اسبانيا حتى المغرب الاقصى والسوس الاقصى والصحراء الكبرىوالسودان ، وكانتتمارس تجارة الذهب والرقيق الاسود ، هذا على الرغم مـن الاشتباكات والنزاعات السياسية التي كانت تمزق بلاد افريقيا الشمالية • ويلقي الخطاب الذي أرسله وزير الخليفة عبد الرحمن الثالث حسداي بن شبروط الى ملك الخزر ، وهم اقوم من المتهوّدين ، كانون يقيمون على ضفاف نهر الفولغا ، يلقي النور على العلاقات القائمة بين جالية يهودية وأخرى على طول كل طرق التجارة العالمية الكبـرى(٢) •

---

(١) M. Lombard, «La route de la Meuse et les relations des Pays mosans entre le VIIIe et le XIe siècle », dans L,Art mosan. Recueil de travaux publ. par P. Francastel. Paris, 1953, pp. 9-28, carte.

(٢) « Lettre au Hàqan des Hazars » (vers 958). Ed et trad dans E. Carmoly, Iténeraires de Terre Sainte des XIIIe, XIV, XVe, XVIe' et XVIIe siécles. Bruxelles, 1847, p. 38.

غير أن اليهود لم يلعبوا دوراً في تاريخ العلاقات التجارية فحسب ، بل ان المدارس اليهودية في قرطبة وطليطلة كانت تجتذب وتستقبل التيارات الفكرية القادمة من بلاد مابين النهرين ، وكانت قرطبة تضم مدرسة تلمودية مشهورة • وكان أحبار اليهود على معرفة واسعة بالادب العربي التقليـدي بالاضافة الى ثقافتهم العبرانية ، فكان منهم علماء أو أطباء وفلكيون ومنجمون • وكان ابن ميمون القرطبي يمثل قمة هذه المدرسة في القرن الثاني عشر • وكان يوجد في طليطلة ، التي كانت مدينة نصرانية كبرى تضم المستعربين واليهود أيضاً ، مركز هام للترجمة العربية الى العبرية ومن اللغة الاخيرة الى اللاتينية • وعلى أثر سقوط طليطلة في عام ١٠٨٥ بيد النصارى انتقلت هذه الترجمات الى الغـرب المسيحي • وقد تجسّدت دورة أرسطو وهي الفكر الاغريقي الذي ترجم الى السريانية ، ثم الى العربية ، ثم الى العبرية ، فاللاتينية ، أقول تجسّدت على طول طرق ذات مراحل واضحة للغاية : الأديرة السريانية في شمالي بلاد الشام وبلاد مابين النهرين ، ثم مكاتب الترجمة في عهد الخليفة المأمون في بغداد ، ثم انتقالها الى مصر ، فأفريقيا الشمالية ، فأسبانيا عن طريق قرطبة فطليطلة ، فالمراكـز اليهـودية في اقليم لانغدوك[١] كي تصل الى جامعـة السوربون في القـرن الثالث عشر •

الفاتحون : العرب والبربر :

لقد كان الفتح الاسلامي سريعا خاطفاً ، أي بين ٧١١ و ٧١٤ م ، بحيث لم يؤدّ لانتفاضات كبيرة بين سكان الارياف • فبعد أن انهار الويزيغوط عسكرياً في موقعة ريو برباط Rio Barbate في عام ٧١١ استسلمت المدن المعرضة لهجوم المسلمين وعهد لليهود بحراستها • وفي عام ٧١٤ وصلت القوات الاسلامية لاقليم سبتمانيا[٢] في جنوب فرنسا • وكان الفاتحون يتألفون من عرب ومن بربر •

(١) منطقة فرنسية في الجنوب قرب مرسيليا ومصب نهر الرون •

(٢) او أراضي المقاطعة السابعة الرومانية ، وهو القسم الجنوبي من بلاد الغول (فرنسا) على ساحل البحر الابيض المتوسط وتضم محافظة البيرينه الشرقية و Gard , Hérault , Aude

أما حملة طريف الاستطلاعية الاولية ، ومن ثم حملة طارق ، فقد قامت على عاتق عناصر بربرية صرفة تقريباً • وكانت حملة طارق ، وهو من أصل بربري ، ومولى حاكم المغرب موسى بن نصير ، لاتضم سوى ٧٠٠٠ محارب ، منهم ٣٠٠٠ من العرب كما تذكر معظم المصادر • وفي العام التالي ، أي في ٧١٢ م ، عبر موسى ابن نصير نفسه البحر الى اسبانيا مع قوات عربية صرفة تضم ١٠٠٠٠ محارب• ولم يرجع أي رجل من قوات الفتح الى افريقيا • وهكـذا كانت أول موجة بربرية عربية تتألف من ١٧٠٠٠ رجل كلهم من القوات العسكرية • ولكن أعقبتها بعد قليل ، ولاسيما خلال القرن الثامن ، هجرة كثيفة مؤلفة من بربر المغرب الذين أغراهم ثراء الارض المفتوحة • واستمرت هذه الهجرة بانتظام حتى أواخر العصر الوسيط ، ولاسيما في أيام المرابطين والموحدين ، مما سمح باستمرار حياة مملكة غرناطة حتى نهاية القرن الخامس عشر تقريبا • ونلاحظ هنا أمراً هاماً : وهو أن السكان المسلمين المهاجرين كانت غالبيتهم العظمى من البربر ، وظهر ذلك جلياً في أسماء الأسر الحاكمة بين ملوك الطوائف ، مثل بني هود في سرقسطة وأولاد غانية في جزر البليئار ، ولكن ظلت لغة الآداب والعلوم والدواوين والبلاط هي لغة القرآن •

وفي عام ٧٤١ وقعت ثورة بربر اسبانيا على زعمائهم من العرب ، والتي كانت امتداداً لتمرد بربر المغرب ، وهو الانفجار الذي نجم عن اتباع المذهب الخارجي• فقد احتفظ بربر العُدوة الاندلسية بعلاقات القربى مع اخوانهم الافارقة ، وبالمثل العليا ذاتها في حب الاستقلال مع الفوضى • فاختاروا زعيماً لهم وتجمعوا وحلقوا رؤوسهم كي يتميزوا عن اخوانهم في الفتح من العرب • ولكن أمكن سـحق ثورتهم على أيدي العرب الذين استقروا في اسبانيا ، والذين ساندتهم قوات جديدة عبرت اليهم البحر من افريقيا ، وكانت عبارة عن قوات عربية قدمت من بلاد الشام بقيادة بلخ ، أمير المغرب الاوسط والاقصى ، وكان تعدادها لايزيد عن بضعة آلاف • وكانت هزيمة البربر دامية للغاية • وأقامت هذه القـوات

السورية في مقاطعة الجنوب ، فاستقر جند دمشق في البيرة ، وجند الاردن في مالقة ، وجند فلسطين في شدونة ، وجند حمص في اشبيلية ، وجند قنسرين في جيان • وقد أدخل هؤلاء السوريون تربية دود القز ونسج الحرير الى المنطقة المذكـورة •

أما العرب الذين قدموا للاندلس من المشرق فلم ينصرفوا للزراعة مباشرة بل استقروا في المدن ، وكسبوا رزقهم من العوائد التي كان يدفعها فلاحوهم في الممتلكات التي خلفها الاقطاعيون القوط ، وتحولوا الى طبقة حقيقية تعيش من عوائد الارض • ولا نزال نعثر على الاسماء العربية في أسماء المواقع وعلى الاخص في السهول ، وعلى وجه التحديد في إقليم شرقي الاندلس Levante، وهي أمكنة تبدأ أسماؤها بكلمة بني مثل بني فايو قرب بلنسية ، وبني قاسم قرب كاستلون دولا بلانا ، وبني غانم بجوار شاطبة الخ •• غير أن الحال لم يكن كذلك بالنسبة للعناصر البربرية التي قدمت الى اسبانيا ، والتي لم تختر السكنى بالمدن منهم سوى أقلية صغيرة ، اذ لم يستطع أهل جبال المغرب الذين استوطنوا اسبانيا أن يتأقلموا الا في الجبل الاسباني : مثل الكتلة الجبلية في الجنوب الشرقي وسراة روندا وسراة نفادا ، وفي شمالي الوادي الكبير ، وسراة المعدن وسراة وادي الرمة Guadaramma • ويبدو أن كل الجاليات البربرية قد عاشت في خارج السهول وأودية الانهار الكبرى في الاندلس • وحيثما وجد البربر ظروفاً مماثلة لبيئتهم الاصلية تجمعوا على شكل مجموعات من الجبليين • ويمكن العثور على أسماء قبائلهم الاصلية في أسماء المواقع الاسبانية مثال ذلك : الكتلة الجبليـة الواقعة بين غرناطة والبحر والتي كانت مأهولة بجماعة من كزولة واسمها سراة كزولة Sierra de los Gazules • وكان البربر ينصرفون لتربية الماشية الجماعية، والتي كانت مصدر كلمة مشتا mesta ، ولزراعة الاشجار المثمرة وخاصـة الزيتون • أما الاقليم الشرقي Levante فقد كان مستعرباً على الخصوص • ويروي الجغـرافي ابن سعيد في القرن الثالث عشـر أن سكان المناطق الجبلية

يضعون على رؤوسهم العمامة الافريقية في حين أن أهل قرطبة وسكان الشرق كانوا يلبسون القلنسوة ، وهي قبعة عالية ايرانية الاصل[1] .

هذا ولم يكن ازدهار سهل الوادي الكبير في العصر الاسلامي أكثر من استمرار للتنمية العجيبة لمنطقة بطيقا الرومانية Bétique . أما الناحية المتصفة بالاصالة ، والتي كانت تتاجاً خاصاً بالعهد الاسلامي الاندلسي ، فقد كان إعمار مناطق كانت شبه خاوية تقريباً ، وهو إعمار منطقة الشرق والغرب Algarve بالسكان ثم استغلالهما اقتصاديا ، مثلما يجب أن نضيف الى ذلك تنظيم أسلوب المشتا . ولنتعرض لاستغلال منطقة الشرق في الاندلس ، والذي كان عبارة عن تحويل ما كان يسمى Campus juncarius الى بساتين مروية أو هورتة Huertas . وقد ساعد تنظيم الري على قيام زراعة محاصيل قادمة من الشرق كالرز والقطن والقصب السكري والبرتقال والموز ، وكذلك على صناعة الحرير ، وهي صناعة ترف ظلت تمارسها اسبانيا لوحدها ، ولمدة طويلة ، في أوروبا ، وكذلك تأسيس مدينة المرية كمظهر عمراني . أما استغلال منطقة الغرب ، أو غرب الاندلس ، في جنوب غرب شبه جزيرة ايبريا ، فقد كان عن طريق اكتساح غابات الصنوبر ، واستصلاح أرضها لتحويلها الى حديقة مدارية ، فقامت عليها غابات الزيتون ، أو زياتين منطقة الشرف في غرب اشبيلية، كما تأسست ثاني دار صناعة ، وهي ترسانة خلفاء قرطبة ، في قصر أبي دانس Alcacer do Sal الى جوار الممالح الكبرى في اشتوبال Stubal ، والى جانب مصائد الاسماك ، وأصبحت التجارة البحرية ممكنة نظراً لشدة أهمية ورشات البناء البحري التي تستخدم أخشاب الغابات المجاورة .

وأخيرا أدخل بربر الشمال الى اسبانيا طرائق تربية الاغنام الجماعية كحراسة القطعان ، والانتجاع المنظم حسب دروب معينة ، وتحولت كلمة المشتى الى mesta بالاسبانية ، والتي تمارس فوق هضاب الداخل وعلى الكتل الجبلية

(١) المقري : المختارات ، ج ١ ص ١٣٧ (عن ابن سعيد) .

التي تحيط بها ، وهي مناطق كانت في العصر الروماني عبارة عن فيافٍ مهجورة ومنفّـرة • وبعد الاسترداد الاسباني تكرست هذه التربية بنجاح وأصبحت تنظيماً « وطنياً » حتى أن ضخامة انتاج الصوف غدت من أهم ثروات البلاد الاسبانية • وقد دخلت تربية أغنام المرينوس ذي الصوف المرن اللدن ولاقت نجاحاً وظهر اسمها في النصوص الاسبانية في القرن الثاني عشر الى جانب أغنام شورو Churro ذات الاصواف الخشنة • كما لاقت تربيـة الحصان اتساعاً كبيراً ، وهو المسمى بارب ، أي الحصان البربري الوافد من افريقيا الشمالية ، والذي أعطى بعد تصالبه مع حصان جنى genêt الاسباني (من كلمة Jineté أي زناتة) ، ومن المرجح أن اتساع هذا النوع من التربية كان على علاقة مع دخول أنواع جديدة من الاعلاف ، وعلى الخصوص البرسيم الفارسي ، والذي لايزال يعرف عند الاسبان باسمه العربي الفارسي ، الفالفا Alfalfa •

استشراق اسبانيا • أمارة قرطبة :

لقد شهدت الحقبة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر في اسبانيا، كما في سائر أنحاء العالم الاسلامي،شهدت نهضة عمرانية هائلة،مثلما شهدت في البداية انتعاشاً اعترى المدن القائمة القديمة • وتبدو قائمة هذه المدن أكثرطولاً من قائمة مدن افريقيا الشمالية،لأن عمران اسبانيا في العهدين الفينيقيوالروماني لم يكن أكثر اندفاعاً من مدن افريقيا الشمالية فحسب ، بل كان أكثر كثافة ، أضف الى ذلك أن الويزيقوط البدو راحوا يقيمون في المدن • وقد شهدت هذه المدن خلال فترة الحكم الاسلامي نمواً جسيماً وبصورة لا تدع مجالا لموازنتها مع ماكانت عليه الحال في أيام الامبراطورية الرومانية • وكان هذا على الاخص واضحاًبالنسبةلمدينتي قرطبةواشبيلية وهما أكبرمدن اقليم بتيكا أو« بطيقا» Bétique وكذلك مالقة وقادس وهما أهم مدن المضيق ، وأخيراً طليطلة وسرقوسة • والى جانب هذه المدن القديمة المنتعشة يمكننا أن نذكر نشوء مـدن حقيقية أخرى كبيرة وجديدة وتأتي على رأسها المرية على البحـر الابيض المتوسـط والتي

تأسست عام ٧٥٦ ، وقصر أبي دانس ، على بحيرة اشتبال في نفس الفترة .

وقد كانت قرطبة مدينة كبيرة كما كانت قبل كل شـيء مدينة لعبت دور عاصمة ملكية . فقد كان الامير عبد الرحمن الاول ، أو الداخل ، الذي جعل منها عاصمة أمارة مستقلة سنة ٧٥٦ ، كان أميراً شرقياً ، ولاجئاً مثـل الرستميين ، والادارسة ، والفاطميين ، أي هارباً من وجه الحكم العباسي الى هذا النوع من « الغرب البعيد Far West »[١] الاسلامي الذي كان يتمثل في ذلك العصر بالمغرب . فقد كان يستبد به الحنين الى بلاد الشام وذكرى أمويي دمشق . وقد حاول هو وخلفاؤه من بعده ، وعلى الخصوص عبد الرحمن الثاني الذي حكم بين ٧٨٢ و ٧٨٥ م أن يعيد تشكيل الاطار الذي كانوا قد فقدوه ، أي بلاط على النمط الشرقي ، حتى أن أحد أحياء القصور المجاورة لقرطبة كان يدعى الرصافة، كما في دمشق أو رصافة بغداد . وقد عمد هؤلاء الامراء الجدد الى تقليد طراز بغداد ، العاصمة الكبرى ذات الاشعاع ، أي تقليد الخلافة المنافسة ، ولكنها عاصمة مشهورة . وهكذا أصبحوا يستدعون الادباء والنـدماء والموسيقيين والشعراء والعلماء والفقهاء من الشرق ، وكانوا يخصونهم بالتكريم في بلاطهم الى جانب الأعطيات الجزيلة . وهناك قصيدة هجائية نظمها ابن بسّام تمثل رجال الحاشية الذين يترصدون التبديلات الطارئة على الطراز « الموضة » التي تحدث في الشرق فيقول ما معناه : « لو أن غراباً نعق في مجاهل بلاد الشام أو العراق أو لو أخذت ذبابة بالطنين هناك ، فإنهم يخرون الى الأذقان ساجدين كما لو كانوا أمام وثن » .

وقد كانت قرطبة واسعة الثراء ، فقد استفادت من ذهب السودان لشراء الرقيق الصقالبة الذي كانت تقوم بتوزيعه في كل أنحاء العالم الاسلامي في مقابل الاموال الشرقية الوفيرة .

---

(١) عبارة يقصد بها المجال البكر المفتوح لكل مغامرة تشبيها بمناطق الوسط والغرب في الولايات المتحدة او سيبيريا بالنسبة للروس في القرن التاسع عشر .

وهكذا نشأت في هذا الطرف من العالم الاسلامي دارة مبادلات اقتصادية نشيطة مثلما قامت في طرفه الآخر أي في الحكومة السامانية • وكما حدث في هذه الامارة المذكورة ، فقد أصبحت أمارة قرطبة مركزاً قوياً لجذب رجال الادب والفنون • ويتجسّد اقتباس الطرز الشرقية في قرطبة بني أمية بوصول الموسيقي زرياب من بغداد في عام ٣٢٠ هـ = ٨٤٥ م ، والذي يعزى اليه نقل كل علوم الموسيقى الى الاندلس • وقد كان زرياب تلميذاً لإسحق الموصلي ، المطرب ، والموسيقي المتبحّر في فن الغناء المديني ، نسبة الى المدينة المنورة • وقد نشأ في معيّته فريق كامل من الجواري المثقفات ، أو « بنات زرياب » اللواتي عهدت إليهن مهمة تعليم المجتمع القرطبي ، وتدريبه على الموسيقى الجديدة ، وتمرينه على استعمال العود ذي الاوتار الخمسة ، وكذلك على أدوات أخرى وحيدة الوتر كالقيثارة ، وعلى الاغنية المدينية ، التي نقلت الى الاسبان تحت اسم Cante jondo

هذا كما ظهرت وجبات طعام جديدة ، هي وصفات طهي شرقية أساسها الرز ، والسكر ، والتوابل ، مثلما ظهرت المربيات واللوزينج ، والحلوى اللوزية أيضا • وأخذ أهل الغرب الاوروبي في هذا الميدان يقلّدون أهل المشرق عن طريق اسبانيا • والى جانب هذا راح المجتمع القرطبي يتعلم استخدام الزجاج المجزع ، أو الكريستال ، والمسمى بالعراقي « زجاج العراق » ، والذي تشير المراجع الاوروبية الى شيوعه في أوروبا في القرن العاشر • وظهر الاثاث المغلف بجلد مطبوع ومذهّب حسب تقنيّة وصلت عن طريق القصور الجنوبية الصحراوية مثلما شاع استعمال الجلود القرطبية[1] التي كان يصنع منها كساء جدران داخل الغرف ، وطراز من اللباس ، وأكسية شرقية أنيقة ومترفة ، وأقمشة مقلّمة من النمط الفارسي ، وأردية من الاقمشة الشفافة من طراز خوزستان ومن ضفاف النيل ، والتي أصبحت تنسج في مدن الاندلس • وشاع **التقويم**

---

(١) او الكردوان ، وهو جلد الخراف والماعز المدبوغ والذي ظل يستعمل في صناعة الاحذية خلال قرون عديدة في اوروبا •

القرطبي الذي ظهر سنة ٩٦١ والذي يقضي بالتخلي عن الثياب البيضاء ابتداء من تشرين الاول ، أي مع قدوم البرد ، واتخاذ ثياب من صوف قاتمة اللون ، وينسب دخول هذه العادة في اللباس الى زرياب . وكان الخليفة عبد الرحمن الثاني هو أول من أدخل الى اسبانيا استعمال الطراز ، وهو مصنع ملكي يعمل لحساب البلاط لاغير ، وينتج أقمشة فخمة جداً يكتب عليها اسم الملك الى جانب مدائح مختلفة ، وهو مصنع خاضع لتنظيم اداري معقد ، وهو عبارة عن دائرة حكومية حقيقية ، مع رئيس يدعى صاحب الطراز الذي هوعبارة عن موظف كبير في القصر الملكي .

وهكذا تطورت عادات الطبقات الغنية في البلاط وفي المدينة . وجاء تيار الاستشراق الجديد ليرفد التيـار الذي كان يمثله أوائل المهاجرين السوريين والجاليات اليهودية التي كانت لها علاقات مع مدن بلاد مابين النهرين . وعلى هذا أصبح المغرب الاقصى الاسلامي ، أو بلاد الاندلس ، عبارة عن نقطة التقاء عدة موجات من مؤثرات منطلقة من الشرق ، ساميَّة ، أو ايرانية ، عملت على تكييف المجتمع الحضري الذي كان يتمخض عن نهضة كبيرة ، وهي التي تعتبر أصل « الحضارة الاندلسية » .

وكانت اسبانيا الاسلامية تلعب دور وسيط بين الساحل الافريقي وبين الغرب الهمجي المتمثل بالممالك الايبرية في شمال شبه جزيرة اسبانيا وبلاد الفرنجة ، أو الامبراطورية الكارولنجية ثم المملكة الكابسية ، وهي الاقطار التي كانت النصوص العربية تسميها **الارض الكبيرة** ، أي القارة بالموازنة مع الجزر مثل صقلية وشبه جزيرة الاندلس ، أما في الجنوب فقد كانت « موانىء العبور » تحقق الاتصال على طرفي مضيق جبل طارق . وفي الشمال كانت الطرق تجتاز ممرات جبال البيرينيه كما كانت الملاحة الساحلية تربط مدينة المرية ببرشلونة ونربونة . وكان أهم عنصر في تجارة اسبانيا الاسلامية مع افريقيا هو ذهب

السودان ، والرقيق الاسود من منطقة الساحل السوداني[1] ، أي من السنغال الى التشاد ، وصمغ افريقيا الغربية الضروري لصناعة الحرير ، وكان يتم تبادل هذه المنتجات بسلع متنوعة ، والزئبق اللازم لاستغلال تبر الذهب بطريقة الملغمة • وكان يرد من العالم النصراني في الشمال الرقيق الصقالبة الذين كان يؤتى بهم من ضفاف نهر الالب عبر بلاد جرمانيا وفرنسا بواسطة التجار اليهود بشكل خاص ، مثلما كانت تجلب الفراء على الطريق نفسه من الغابة الكبرى الشمالية والتي يجب أن نضيف اليها سيوف الفرنجة،والتي كانت تقليداً للسيوف الدمشقية ، والتي كانت تقوم الامبراطورية الكارولنجية بتصدير مقادير كبيرة منها • وفي مقابل ذلك كانت اسبانيا المسلمة تصدر بعض سلع الترف مثل الاقمشة التي كانت تسمى في أوروبا سبانيسكا Spanisca ، وعلى الاخص النقود الفضية والذهبية على شكل دراهم فضية وذهبية ، كالدراهم التي بدأ بضربها أولاً أمراء قرطبة ، في حين كان القسم الاعظم من تيار ذهب السودان يتجه نحو مملكة الفاطميين بالاضافة الى الدنانير الذهبية القادمة من المشرق الاسلامي • وبعد ذلك أخذ ملوك قرطبة يساهمون في انتاج ذهب السودان الغربي بالاشتراك مع أتباعهم من زناتة المغرب الاقصى ، وراحوا يضربون الدنانير الذهبية في قرطبة نفسها ويصدرونها • ويقع الانتصار النهائي لأمويي قرطبة على أدارسة فاس، الذين كانوا يعرقلون سياستهم التوسعية ، يقع في عام ٩٧٤ •

وقد أدت المطالب الاستهلاكية في المدن الكبرى في أمارة قرطبة الى قيام تيارات تجارية هامة ، وشبكة طرق امتدت في آن واحد نحو الشمال ونحو الجنوب • ويجدر بنا أن نذكر أنه تم اجتياح اسبانيا من الشمال في القرن الحادي عشر على أيدي « البرابرة » الذين أيقظتهم هذه التجارة وسلكوا صاعدين فوق طرق المبادلات نفسها • فعن طريق الشمال حدث اندفاع الدول الايبرية

---

(١) منطقة الساحل ويقصد بها الجانب المداري الرطب الواقع في جنوبي الصحراء الكبرى والممتد من السنغال حتى التشاد •

الاسبانية التي ساندها الفرسان النورمان والبورغونيون وفرسان نظام كلوني Cluny ، تلك الحركة الكبرى التي دعيت : الاسترداد Reconquista وذلك من وجهة النظر النصرانية أو « الحرب الصليبية الغربية » من وجهة نظر أوروبا الغربية النصرانية • أما من الجنوب فقد كان الزحف البربري المرابطي المنطلق من منطقة الساحل النيجيرية والذي سلك الطرق الذاهبة شمالا حتى سجلماسة ومنها عبر المغرب الأقصى حتى اسبانيا •

وعلى أثر الاسترداد سقطت قطعة من العالم الاسلامي تحت الحكم النصراني ، مثلما سقطت بلاد الشام بعد قليل في أيدي الصليبيين • وقد أدّى التعصب وغرائز النهب لدى بارونات الشمال الى تخريب معظم معالم الحضارة الاندلسية اللامعة أولاً وبعدئذ تبنّى المحتلون الجدد هذه الحضارة • وثابر العمال والفنانون على عملهم المعتاد وخلّدوا تقنياتهم تحت هيمنة النصارى ، وهو فن المدخر Mudejar «المدجنين»[1]•وهكذا ازدادت المؤثرات الاسلامية وزادت سهولة انتقالها نحو الغرب النصراني•وثابرت الاحياء الاسلامية morerias واليهودية juderias في مدن الاندلس على ممارسة نشاطاتها • وقد أدّى تدخل المرابطين أيضاً الى توقف الحضارة الاندلسية في تطورها المنسجم • فقد عمل هؤلاء المتزمتون ، وهم من البدو الجمالة الصحراويون ، على تشتيت حواشي الملوك ، وحرقوا بعض المكتبات ، وبعد فترة من الوقت تبنّوا هذه الحضارة بفضل الصلات الناشئة عن وجود الهيمنة السياسية نفسها على جانبي المضيق ، وانكفأت هذه الحضارة المذكورة على كل المغرب حتى السودان لتشمل كل امبراطورية المرابطين • وتحول المعسكر البربري في جنوبي المغرب الى مدينة كبيرة هي مراكش ، التي قامت عام ١٠٧٧ م ، ونشأت تومبوكتو في القرن الثاني عشر ، وعندها راح « المرابطون » الدعاة ينساحون في كل مكان من الشمال الافريقي •

(١) المدجنون وهم مسلمو الاندلس الذين ظلوا في مواطنهم بعد احتلال الاسبان لها •

صقلية

بعد أن استعرضنا الوضع في اسبانيا علينا أن نتعرض لجبهة أخرى من جبهات التوسع العربي البربري الاسلامي ، وهي صقلية ، التي تحتل موضعاً مركزياً بين حوضي البحر الداخلي ، أي بحر الروم . وكانت قواعد الانطلاق هي موانىء شبه جزيرة الرأس الطيب ، أو الوطن القبلي التونسي وهي : تونس ونابل وقليبية وكذلك سوسة . وقد كان البربر المتأثرون بالمدنية البونية الذين يقطنون هذه المنطقة يتعاطون صيد الاسماك والتجارة وكذلك القرصنة . كما كانوا يعملون كبحارة على متن السفن التي كانت تبنى بفضل أخشاب النجارة التي كانوا يفتقرون اليها محلياً والتي كان عليهم أن يحصلوا عليها من بقية سواحل المغرب أو عن طريق الغارات على سواحل صقلية وايطاليا الجنوبية ، وحتى على على ساحل دالماسيا على البحر الادرياتيكي . وابتداء من نهاية القرن السابع ، أي بعد الفتح الاسلامي ، كانت الغارات تتجه للحصول على الاخشاب من صقلية ، ومن الجبال التي كانت لاتزال مكسوة بالغابات في اقليم آسبرومونته، في كالابريا ، وحول سيلا Sila . هذا كما كان الاسطول البيزنطي المتمركز في صقلية ينظم غارات على ساحل افريقيا المسلمة التي كانت حامياته في الرباطات لاتقوى دائما على صد هذه الغارات ، مما اضطر المسلمين الى الاستيلاء على الجزيرة . ففي عام ٧٠٠ م احتلوا جزيرة قوصرة ، أي بانتلاريا ، وفي ٧٠٣ جرت أولى المحاولات لتثبيت أقدامهم بصورة راسخة على سواحل صقلية ، وبعد أكثر من قرن كامل وقعت الحملة المظفرة التي قام بها الامير زيادة الله الاغلبي ، فسقطت بالرمو بين سنتي ٨٢٧ و ٨٢١ ثم تمّ الاستيلاء على سيراكوزه سنة ٨٧٨ ، وهما قطبا الجزيرة اللذان كانا في الماضي ساحة صراع بين الاستعمار الاغريقي المتمركز في سيراكوزة تجاه البر الاغريقي من جهة وبين الاستعمار القرطاجي ، المتمركز في بالرمو تجاه قرطاج . وكما كانت صقلية البيزنطية تتخذ من سيراكوزة مدينة

رئيسية ، نجد أن صقلية الاسلامية جعلت من بالرمو مركزها الناهض ، حيث كان لا يزال فيها أساس قديم فينيقي ، كما كان في قرطاج وفي تونس .

نعم لقد كانت صقلية بيزنطية في بداية القرن التاسع متأثرة بعمق بالمدنية الهللينية . واذا كان السكان لايزالون يتكلمون اللاتينية أيضا فإن اللغة المكتوبة كانت اليونانية لوحدها . وكانت الكنيسة مرتبطة ببطركية القسطنطينية وكانت الاديرة تتبع نظام القديس باسيل . وكانت الفنون والتقنيّات العمرانية الهندسية والتزيينية مقتبسة من بيزنطة وعلى الاخص القيشاني ، وهي التي تبنّاها الامراء الاغالبة الصقليين فيما بعد الى جانب مكتسبات فن العصر الاسلامي . وقد شهدت صقلية تحت حكم أغالبة افريقيا الشمالية ، والفاطميين من بعدهم ، ازدهارا في تشييد المباني التي لم تحتفظ الجزيرة الآن منها سوى ببقايا قصر الفوّارة في بالرمو ، وكل ما بقي في صقلية اليوم من الفن الاسلامي يعود فعلاً لفترة الحكم النورماندي ، الذي كان استمراراً للحياة الحضارية الاسلامية ، كقصر لاكوبا والعزيزة Laziza وكوبولا[1] . فكانت المخططات والتزيينات والكتابة مقتبسة من أنماط مستوردة من افريقية ومن مصر أو من بغداد ، أو بعبارة أخرى كانت صقلية في عهد النورمان قطعة من أرض الاسلام تحت حكم نصراني ، حيث استمرت فيها تقنيات الانتاج نفسها ، شأن فن المدّخر mudejar في شبه الجزيرة الايبرية . وهكذا كانت صقلية واسبانيا عبارة عن مجالين قديمين للحضارة الاسلامية تحت رداء من حكم جديد نصراني ، وقد أدّى هذا التراكب لتسهيل انتشار الاساليب الصناعية والطرائق التزيينية ، مما سمح بنشوء تراكيب حضارية جديدة . ولعب الاسترداد النصراني في الغرب الاوروبي الدور نفسه الذي لعبه الفتح الاسلامي ، فامتد على أرض تحمل حضارات شرقية عريقة ، وساعد على نقل هذه الحضارة الى الغرب الهمجي الذي ظل حتى ذلك

(١) لقد كانت فترة حكم النورمان متصفة بتسامح نسبي لان حاشية ملوك النورمان كانت اسلامية في معظمها حتى ان الادريسي الجغرافي عمل لروجر ملك صقلية كتابه « نزهة المشتاق » . راجع أيضا رحلة ابن جبير .

الوقت بمعزل عن التماس المباشر . وعلى أساس هذا المخطط انتشرت التقنيات الزراعية والصناعية كالري حسب نظام الهورتة huertas « الحراثة » الاسباني المماثل للطرائق المسماة Conca d'oro قرب بالرمو ، وزراعة القطن ، وقصب السكر والرز والبرتقال(١) وتربية دود القز والصناعات النسيجية القطنية والحريرية وكذلك صناعة القيشاني البرّاق الخ ..

ويجدر بنا أن نشير أيضاً الى أهمية النمو العمراني ، ذلك أن المسلمين هم الذين جعلوا من بالرمو العاصمة الخالدة لجزيرة صقلية . وتضم هذه المدينة اليوم أكثر من ٤٠٠.٠٠٠ نسمة في حين أن سيراكوزة لاتحوي أكثر من عشر هذا الرقم.وقد قدّر ابن حوقل عدد سكان بالرمو بحوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة(٢). وقد كانت احدى كبريات مدن الاسلام من حيث عدد مساجدها،ولم يكن يتفوق عليها في هذا المجال في كل الغرب الاسلامي سوى قرطبة . وكان نسق نمو هاتين العاصمتين متماثلا كما يشير الى ذلك المؤرخون والجغرافيون العرب . وقد كانت الموانىء الواقعة على الساحل الايطالي المقابل ، أي على ساحل البحر التيريني ، مثل آمالفي وسالرنو ونابولي وجائيتا ، ميناء روما ، كانت تدور اقتصاديا في فلك بالرمو على الخصوص وصقلية الاسلامية على العموم ، والتي كانت بحد ذاتها الاقليم الرئيسي في الخلافة الفاطمية . وكانت العملة الفاطمية دارجة في كل ايطاليا الجنوبية كالدينار ولاسيما ربع الدينار أو كواترينو ، كما كان يسكّ بعضها بعد تقليدها ، مثل العملة المسماة تارين tarin (٣) ، وهي ظاهرة مماثلة لما كان يحدث في الممالك النصرانية في شمالي اسبانيا وفي أمارة

(١) لاتزال أسماء القطن والسكر والرز والبرتقال (اترج) هي ذاتها بعد تحريف بسيط جدا في كل اللغات الاوروبية .

(٢) Cf. M. Amari, Description de Palerme au milieu du Xe. siécle de l'ére vulgaire par Ebn HAWCAL. Paris, 1845.

(٣) انظر الحسن الوزان أو ليون الافريقي في « وصف افريقيا » ترجمة د. عبد الرحمن حميدة الرياض ، ١٩٧٩ .

برشلونة التي كانت تقلد في القرن الحادي عشر النقود الذهبية الاسلامية المسكوكة في جنوبي شبه الجزيرة ٠

هذا وقد ازدادت كثافة المبادلات التقنية والاقتصادية في أعقاب الفتح النورماندي في فترة ١٠٦١ ــ ١٠٨٩ م الذي ألحق هذه القطعة من العالم الاسلامي بالرقعة النصرانية الغربية ٠ وهكذا وصلت التقنيات كأساليب تربية دود القز ، وصناعة الحرير ، الى ايطاليا الشمالية ، كمدينتي البندقية ولوكا Lucques ، عاصمة مقاطعة توسكانيا ، والتي لازالت مشتهرة بهذه الصناعة٠ وكان يرفد هذا التيار في الوقت نفسه ويدعمه تيار قادم بصورة مباشرة أكثر ، أي عن طريق الامارات الفرنجية في بلاد الشام ، وهي أمارات قامت على أثر الحروب الصليبية ٠ ونضيف الى ذلك أن صقلية وايطاليا الجنوبية كانتا تتعرفان منذ العصر الاسلامي على شتى ضروب المعرفة من طبية وفلسفية وتنجيمية وفلكية وعلمية ٠ واستمرت هذه الحركة في العصر النورماندي وتحت حكم أسرة هوهنستاوفن في بلاط فريدريك الثاني[(١)] ٠ وهكذا كانت صقلية ، مع اسبانيا ، احدى النقاط التي تسربت المؤثرات الشرقية من خلالها الى الغرب المسيحي ، وقدمت نصيبها من المساهمة كما ستؤلف تركيباً هو «النهضة» الايطالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وهو العصر الذي تفتحت فيه هذه المؤثرات على أوسع نطاق[(٢)]٠

* * *

(١) ملك نورماندي عاش بين ١١٩٤ ــ ١٢٥٠ وكان ملكا على صقلية في ١٢١٢ وملك الغرب عام ١٢٢٠ واشترك في الحملة الصليبية السادسة ، وكان مثقفا ومشجعا للفنون والآداب ٠

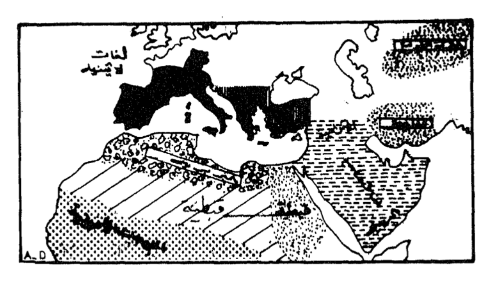
(٢) لقد عمل العلماء العرب على انشاء كلية الطب في مونبيلييه الفرنسية التي تعتبر أقدم كلية للطب في كل الغرب ٠

الفصل الرابع

الواقع اللغوي

اللغات المحلية واللغة العربية

لقد قلنا أن العالم الاسلامي كان بوتقة ، توافقت ضمنها مركّبات مختلفة ، كانت قبل قليل غريبة عن بعضها البعض ، فقد حصل تماس ، وانصهار ، في الوقت الذي كانت تقاليد أكثر قِدماً تتشبث في بقائها • وستسمح لنا دراسة الواقع اللغوي ، من خلال الألسن والأبجديات ، بتوضيح هذه الظاهرة الاساسية •



شكل ٧ ـ الوضع اللغوي عشية الفتح الاسلامي

وقد كان الوضع قبل الفتح الاسلامي اجمالا على الصورة التالية : كانت تقوم تجاه زمرة ورقعة اللغات السامية لغات هندية ـ أوروبية ، ولغات تركية ـ منغولية (أو أورالية ـ آلتائية) ، ولغات افريقيا السوداء ، ورقعة اللغة القبطية ، وأخيرا رقعة اللغة البربرية .

وفوق هذا المجال القديم راح توسع العالم الاسلامي يتمثل ويتجلى بشيوع اللغة العربية التي راحت باعتبارها لغة تخاطب تنشطر الى زمرتين تتفرّد كل منهما بفروق طفيفة : غربية وشرقية . ونشأت أخيراً على هامش العالم الاسلامي لغات تجارية مختلطة مثل الصغدية بالنسبة لآسيا الوسطى ، والسواحلية على ضفاف افريقيا الشرقية ، والآزر بالنسبة للسودان ، ولغة الفرنجة بالنسبة للبحر الابيض المتوسط .

اللغات السامية :

لقد كان المجال السامي في شطره غير العربي واقعاً تحت هيمنة الظاهرة الكبرى أي في المركّب الآرامي . فقد استطاعت اللغة الآرامية بالفعل ، وذلك منذ القرن السادس قبل الميلاد ، أن تهضم ، وذلك على مستوى التخاطب على الاقل ، كل اللغات السامية في هذه المنطقة ، باستثناء اللغة العربية .

فقبل الفتح العربي كانت اللغات الرسمية هي الاغريقية في سورية البيزنطية ، والبهلوية في بلاد ما بين النهرين الساسانية ، ولكن الآرامية كانت لغة التخاطب الدارجة والحية في كل مكان . وكانت تشتمل على لهجتين هما الآرامية الغربية في الامبراطورية البيزنطية ، وهي لغة مكتوبة ولغة تخاطب ، وقد استخدمت في القرن الرابع والخامس والسادس في كتابة تلمود بيت المقدس ، والآرامية الشرقية في الامبراطورية الساسانية التي كانت تضم بدورها لهجتين فرعيتين : البابلية وهي لغة يتكلمها اليهود ويكتبون بها والتي استخدمت في انشاء تلمود بابل في القرنين الخامس والسادس ، والثانية هي سريانية الرها ، وهي لغة مكتوبة والتي أصبحت لغة الآداب والطقوس في كل الكنائس النصرانية من يعقوبية

ونسطورية ، بدءاً من فلسطين حتى بلاد ما بين النهرين وفارس ، والتي تقع فترة ازدهارها بين القرن الرابع والقرن الرابع عشر ميلادي•

وكان الوضع اللغوي عند الفتح العربي يبدو على الشكل التالي : كانت هناك لهجات بدوية متباينة ولهجات حضرية ، أهمها اللهجة المكية التي كان يتخاطب بها الفاتحون والتي كانت هي لغة القرآن الكريم ، وهي اللغة العربية المكتوبة والمسماة اللغة الحرفية أو الادبية • وكانت الاقوام الخاضعة في بلاد الشام وبلاد مابين النهرين ، باستثناء القبائل العربية الضاربة في بادية الشام وأطراف المعمورة ، مثل تغلب وغسان والمناذرة ، كانت تتكلم الآرامية ، الغربية والشرقية ، ويكتبون بها أو يكتبون بالسريانية في شكليها الهجائيين ، النسطورية واليعقوبية • وتكون كل هذه اللغات متقاربة جداً لأن هيكلها الصوتي متماثل في أغلب الاحيان • وتجاه ميوعة اللهجات ، أو ردّ الفعل تجاهها ، جرت عدة محاولات لتشكيل الكتابة بقصد تثبيت النصوص العبرانية المقدسة عند اليهود في مركز الدراسات اللغوية في طبرية ، وهو مركز النحويين massorètes الذين راحوا من خلال محاولاتهم للتعرف على اللغات الاثرية يبحثون عن الوثائق حتى في بلاذ مابين النهرين ، مما أدّى الى شرح وتأويل اللهجتين اللتين لا زالتا حتى ذلك الوقت منفصلتين وهما الآرامية الشرقية والآرامية الغربية ، وانتهوا الى ايجاد لهجة تخاطب خليطة ، وهذا التركيب التوفيقي مقبول ، وحتى مقترح في سبيل توحيد العالم الاسلامي •

وفي نفس البرهة وفي نفس الاتجاه كان الكتاب السريان يجربون طرائق التشكيل vocalisation أو التصويت[1] ، فكان اليعاقبة يضعون حرف علة voyelles اغريقية فوق السطر أو تحته ، وهذا في نهاية القرن السابع وبداية الثامن ، في حين أخذ النساطرة ابتداءً من القرن الثامن يرسمون حروف العلة على هيئة نقاط موضوعة فوق السطر وتحته • وفي نفس الزمن أيضا كان يتم

(١) احلال حروف العلة مكان الحروف الصوتية •

عمل مماثل بالنسبة للقرآن الكريم ، ذلك أن الحروف الصوتية القصيرة أو الفتحة والضمة والكسرة أصبحت توضع فوق سطر الكتابة أو تحته • أما الآرامية الموحدة التي استعملت في التخاطب لبعض الوقت في سورية وبلاد مابين النهرين فقد تلاشت بدورها خلال العام ٨٠٠ م على أكثر تقدير • فقد تلاشت هذه اللغة في التخاطب وحل محلها لسان سامي جديد هو اللسان العربي • ولم تعد تستخدم الآرامية والسريانية ، وهما لغتان مقدستان لدى النصارى واليهود، الا في الكتابة •

أما اللغة العبرية القديمة فلم تعد تُدرس ، من جهتها ، الا باعتبارها لغة ميتة ومقدسة عند اليهود ، وذلك في مراكز الحاخاميات في فلسطين وفي بلاد مابين النهرين • وهكذا نشأ أدب التلمود « الدراسة » على شكلين هما : اليروشالمي، نسبة الى بيت المقدس ، والبابلي نسبة الى بابل قرب موقع طيسفون ، بجوار موقع بغداد الحالية في العراق • أما التلمود ذاته فينقسم الى **المشناة** وهو التعليم بكل معنى الكلمة ، والمكتوب بالعبرية ، والذي اكتمل في القرن الثاني للميلاد ، **والجمارة** وهو شرح القسم السابق ، وقد أنجز في القرن السادس وكُتب بالآرامية ، الغربية أو الشرقية ، حسب ترجمتي التلمود • وهكذا كانت الجماعات اليهودية حينذاك مهيأة لمعرفة لغتين •

وهكذا كانت بلاد الشام تحوي ، وذلك ضمن العالم الاغريقي ـ اللاتيني، خمسة ألسن : الآرامية لغة تخاطب ، وهي مكتوبة ويستعملها النصارى اليعاقبة، والسريانية ، وهي لغة أخرى دينية ومكتوبة ، والعربية وهي لغة بعض أرباض المدن الخارجية مثل حاضر حلب ، وفي البادية وأطراف المعمورة ، والعبرية التي كانت تدرس في بعض مدارس فلسطين ، وأخيرا اليونانية التي كانت مخصصة للمعاملات الادارية وللاتصالات الخارجية • أما على الجانب الآخر ، أي في الفلك الساساني ، فقد كانت بلاد مابين النهرين تحتوي على نفس اللغات ، مع تحفظ وحيد وهو أن وظيفة اللغة الاغريقية كانت تقوم بها هنا اللغة الفارسية ،

البهلوية ، وفضلا عن ذلك كانت العبرية والسريانية تتخذان هنا بعض الملامح الخاصة • وقد اتصفت الثقافة اليهودية في هذه المناطق بإشعاع نشيط ، كما كان المسمى رش غالوثه « رئيس المنفى » أحد كبار الشخصيات في البلاط العباسي • أما السريانية فقد كانت متجسدة في الكنيسة النسطورية ، ونلاحظ هنا أيضا أن رئيس الطائفة ، أو الكاثوليكوس النسطوري لمدينة سلوقية ــ طيسفون ، كان يلعب دوراً لايستهان به في بلاط بغداد •

غير أن نفوذ السريانية يتجاوز بالواقع الاطار الاقليمي : فبواسطتها تحقق تفاغم الافكار الاغريقية والفارسية ، ذلك أن اللغة السريانية التي استوعبت ، عن طريق ممارستها للترجمة ، محتوى المؤلفات الاغريقية والفارسية ، إذ كانت لغة مكتوبة وثقافية نبيلة ، فاستطاعت أن تحقق مخضاً خارقاً في الافكار والمصطلحات • وعن طريق هذه اللغة ، وبواسطة قوالبها اللغوية ، تكونت حضارة من عناصر مختلفة قائمة فوق أساس من تلاقح حضارات واحتكاكات تمثل أكثر المميزات الثقافية لشعوب الشرق القديمة •

واذا حاولنا الآن العودة الى الرقعة اللغوية العربية مع بقائنا في المجال السامي ، ترى ماذا نلاحظ ؟ لقد كان مجمل لهجات التخاطب بين سكان شبه الجزيرة العربية ينقسم بالواقع الى ثلاثة مجموعات ، أمكن توحيدها لغوياً بعد حين من الدهر بالرسالة القرآنية ابتداء من القرن السابع •

ولنبدأ أولا بجنوبي جزيرة العرب الذي ينقسم نفسه لغوياً الى الحميرية والسبأية واليمنية ، ويغطي القسم الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب ، أو بلاد العرب السعيدة ، مع مينائه الكبير Athana ، أي عدن ، وهي منطقة على غاية من الاهمية لعلاقاتها التجارية ، ولاعتبارها منطقة النشاط البحري في المحيط الهندي مع شبكة طرق القوافل لجزيرة العرب الغربية ، والتي تتجه نفسها ، انطلاقاً من مكة ، نحو بلاد مابين النهرين والبحر الابيض المتوسط • ولدينا من

هذا اللسان الدارج في تلك البلاد العربية الجنوبية كتابات تمتد من القرن السابع قبل الميلاد حتى القرن السادس بعده .

وكانت العمانية هي لغة الساحل الجنوبي الشرقي ، الذي كان هو أيضاً مركزاً كبيراً للاتصالات البحرية وكان يهيمن على طريق الخليج العربي ، ولا داعي للاستغراب اذا وجدنا أن لغة التخاطب كانت هناك مهجنة بالفارسية ، وذلك بتأثير سكان الساحل المقابل .

هذا وترتبط اللغة النبطية التي كان يتكلم بها أهل الشمال بذكر البتراء ، مدينة القوافل الكبيرة في القرون الاولى من التاريخ الميلادي . وقد وصلت الينا على شكل كتابات يعود تاريخها للقرن الاول حتى القرن السادس الميلادي .

وأخيراً فإن أهل قلب شبه الجزيرة كانوا يتكلمون لهجات سكان المدن الحجازية ، وعلى الاخص مكة المكرمة ، وهي النقطة المركزية بالنسبة لنشاط القوافل بين السبأيين في الجنوب والانباط في الشمال ، أو لهجات بدو نجد ، من سكان الواحات ومن رعاة الابل . ولم تكن هذه اللهجات مكتوبة ولم يتم تدوين شعر الجاهلية الا بعد بزوغ الاسلام ، بعد أن ظل محفوظاً بالذاكرة . وقد كانت هذه اللهجات عبارة عن لغة شعرية عامة في كل بلاد العرب الوسطى والتي جاء بها القرآن الكريم ، فكانت نواة العربية الكلاسيكية فيما بعد ، والتي امتدت وانتشرت في القرن السابع لتشمل كل شبه الجزيرة العربية .

وهكذا نجد أن المجال السامي يرتكز في آخر تحليل تجريه على قوتين لغويتين : الآرامية بالنسبة لبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ، والعربية بالنسبة لشبه جزيرة العرب . وكانت العلاقات في الواقع وثيقة بين اللغتين اللتين كانتا تتصفان بهيكل ثلاثي من الحروف الصوتية،وتشكيلات حروف علة غير مكتوبة، مثل الفتحة والضمة والكسرة ، ولهما نفس الابجدية الاساسية المستمدة من الابجدية الفينيقية القديمة . وعندما حدثت المواجهة بين اللغتين خرجت العربية

ظافرة على اثر اندفاع حركة الفتح : وأخذ العالم الآرامي وبسرعة كبيرة يتكلم اللغة العربية منذ بداية القرن التاسع مستفيداً من وشائج القربى اللغوية ، وذلك في مجمل مجاله القديم الممتد على سائر بلاد الشـام وبلاد الرافدين • ولكن الآرامية لم تكن اللغة الوحيدة التي انهزمت • فمنذ بداية القرن الثامن ابتدأ تعريب المكاتـب الحكومية على حسـاب الاغريقية والبهلوية • أما السريانية وهي اللغـة المجمّدة بسـبب استعمالها حصراً في الكتـابة والادب ، فلم تعد منذ نهاية القرن العاشر أكثر من لغة علمية وراح العلماء النصارى يكتبون بلا تمييز بالسريانية أو بالعربية • بيد أن السريانية لم تمت تماماً ، والاغرب من ذلك ، أنها رأت بعض التوسـع بتأثير الارساليات التبشيرية النسطورية التي كانت تعمل في آسيا وفي الصين •

اللهجات غير السامية :

لنتأمل الآن في الرقعة التي كانت تنتشر عليها اللغات غير السامية في وقت الفتـح •

فقد كانت القبطية ، وهي لغة وادي النيل ، تنحدر من المصرية القديمة ، وتكتب حسب أبجدية إغريقية مقتبسة ، وهنا أيضا راحت القبطية تتلاشـى تدريجياً شأن الاغريقية ، ولكن حسب نسق أقل تسارعاً ، في وجه اللغة العربية • وهناك بعض التواريخ التي توضح لنا معالم هذا الاضمحلال : فقد حدث فتح مصر بين عامي ٦٣٩م و ٦٤١ ، وتظهر أول وثيقة بردي مزدوجة اللسان ، اغريقي وعربي ، في عام ٦٩٣ وآخر وثيقة سنة ٧١٩ ، غير أن آخر ورقة بردي مكتوبة بالاغريقية كليا تعود لعام ٧٨٠ م ، وأول ورقة بردي باللغة العربية كلياً تعود لعام ٧٠٩ • وهناك بعض القرائن الاخرى التي يمكن استخلاصها من المصادر الادبية والرقيمية : فمن المعروف مثلا أن البطريرك ميخائيل ، الذي شغل منصبه بين ٧٢٨ و ٧٥٢ ، كان يجهل العربية ، وأن الخليفة العباسي المأمون اصطحب تراجمة لدن زيارته مصر عام ٨٣٢ م • وتجاه ذلك هناك أسباب طيبة تدفعنا للاعتقاد بأن

طبقة الكهنوت المسيحية كانت تعرف العربية في القرن التاسع ، فهناك شاهدة قبر نصراني مكتوبة باللغة العربية تعود لعام ٩٠٩ • ومن المؤكد أن أشعاراً شعبية قبطية ظلت دارجة حتى نهاية القرن التاسع ، ولكن منذ القرن العاشر أخذ الكهنوت القبطي يكتسب بالعربية اذا ما أراد أن يكون كلامه مفهوماً لدى الجمهور • ورغم كل شيء فقد ظلت اللغة القبطية بالتأكيد أكثر من لغة طقوس دينية ، ومع حظر استعمالها ، فقد بقيت مستعملة لمدة طويلة ، اذ كان يعرفها الافراد المثقفون من الكهنوت حتى القرن الثاني عشر ، كما كان بطاركة ذلك العصر يكتبون فيها بأناقة لاتقل عن العربية • وتعود أواخر الكتابات القبطية للقرن الثالث عشر • وكانت هذه القبطية هي قبطية كتابة وأدب • أما باعتبارها كلغة تخاطب فقد كان اندحارها أكثر سرعة إذ تلاشت في القرن العاشر أمام العربية ، ولكن على كل حال ، بعد مضي قرن كامل من تحول العالم الآرامي الى اللغة العربية •

واذا كان الوضع اللغوي قد شهد انتصار العربية في المناطق الوسطى من الامبراطورية ، فإن الحال لم يكن على هذا المنوال في جناحيها ، حيث بقيت بقعتان لغويتان على قيد الحياة رغم استعراب الاوساط الحضرية والثقافية وهما الفارسية في الشرق والبربرية في الغرب •

ففي الشرق لم يعد الناس يتكلمون بغير الايرانية العادية ، الناتجة عن اللهجة الفارسية القديمة القريبة من اللهجة التي كتبت بها الآفستا Avesta وهذه الايرانية الوسطى أو البهلوية هي الجدة المباشرة للفارسية الحديثة ، وهي التي ظلت دارجة الى جانب اللغة العربية • وهكذا مرت المؤثرات الايرانية في العصر العباسي بكل تأكيد عن طريق اللغة العربية• وفي القرنين العاشر والحادي عشر شهدت الفارسية يقظة في عهد أمراء بني سامان الخراسانيين وكذلك في الفترة الغزنوية من بعدهم • وتعتبر شاهنامة الفردوسي احدى روائع الادب الفارسي ، والتي تعود لتلك الحقبة : ٩٥٠ ـ ١٠٢٠ م •

أما البربرية فقد ظلت لغة التخاطب ابتداء من غربي وادي النيل وبرقة حتى الاطراف الغربية للمغرب من ناحية وحتى الساحل[1] النيجيري في السودان الغربي من جهة أخرى . وكانت للعربية الارجحية في المدن نظراً لأنها لغة الدين ولغة الحضارة العمرانية ، ولكنها لم تتقدم الا ببطء شديد في ظهير البلاد البربري ، وعلى هذا الاساس استطاعت العربية أن تسود في مجال المستعمرات القرطاجينية الحضري القديم ، ويذكر القديس أوغسطين في القرن السادس مثلما يشير بروكوب[2] Procope الى أن اللغة البونية Punique [3] كانت لاتزال دارجة حول المراكز القرطاجينية المروّمنة romanisés ، أي المتأثرة بالمدنيّة الرومانية . ومن المحتمل أنه كان هناك نوع من دعم يفسر تأثيره سرعة تبني العربية في المدن الرومانية في افريقيا الشمالية ، تلك هي على الاقل فرضية س. جل S. Gsell [4] .

ومهما كان عليه الامر فإن من الممكن تفسير التحول المفاجيء من اللاتينية الى العربية ، على كل حال ، بالحاجة الماسة التي شعر بها سكان المراكز الحضرية للاعتماد على لغة حقيقية مكتوبة ، هي لغة الادارة الحكومية ولغة المبادلات التجارية ، لغة أسمى بالطبع من اللهجات المائعة والاقليمية غير المكتوبة ، كالحال الذي كانت عليه اللهجات البربرية ، وقد أمكن من ناحية أخرى ملاحظة نفوذ العربية حقيقة في جبال القبائل الصغرى ، وهي « بلاد كتامة » ، وذلك في القرنين العاشر والحادي عشر ، نفوذ كان له علاقة بالحركة الفاطمية . هذا كما أدى زحف بني هلال في القرن الحادي عشر الى نوع من تعريب بين ظهراني قبائل

(١) يقصد بالساحل في افريقيا المنطقة الواقعة الى جنوب الصحراء الكبرى مباشرة والمؤلفة من المراعي .

(٢) مؤرخ يوناني ، ولد في قيصرية (فلسطين) في نهاية القرن الخامس ومات عام ٥٦٢ م وكان مؤرخ الامبراطور جوستينيان ، وهو مؤلف «كتاب الحروب» و «المطول في الابنية الهامة» و «التاريخ السري» .

(٣) أي اللغة الفينيقية الافريقية .

(٤) ستيفان جل . عالم أثري فرنسي ولد ومات في باريس (١٨٦٤ ـ ١٩٣٢) مؤلف كتب هامة عن افريقيا الرومانية أهمها « التاريخ القديم لافريقيا الشمالية » .

افريقية البدوية ، مثلما امتد ذلك الى الهضاب العليا الجزائرية ، بدورها ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر • ولكن كان هـذا بالواقع عبارة عن تطور بطيء لم يكن يصيب بالواقع سوى المدن والاراضي المحيطة بها •

أخيرا ، ترى ماهو الوضع اللغوي الذي كان قائماً في اسبانيا المسلمة ، والواقعة في النهاية الغربية للعالم الاسلامي ؟ لقد توطدت اللاتينية هنا وتطورت نحو لغة رومانية مؤهلة لأن تصبح أصل اللهجات الايبرية • والى جانب اللاتينية كانت هناك بعض المؤثرات البربرية ولاسيما في المناطـق الجبلية في الجنوب الغربي ، والمأهولة بجماعات تعود من حيث الاصل الى الشـمال الافريقي • وكانت الجماعات اليهودية تستعمل اللغة الآرامية ، وأخيراً ، وعلى أثر الفتح جاء عنصر جديد هو اللغة العربية • وكانت بادىء ذي بدء هي اللغة العامية ، وهناك فرضية تقول بوجود مجموعة من لهجات عربية غربية كانت تسود بين سكان مدن اسبانيا الاسلامية وسكان المغرب ومالطة وصقلية[١] • هذه اللهجة العربية الغربية هي التي دعيت باسم الغربية ، أو Algarabia بالاسبانية ، والتي تحرفت مؤخراً الى كلمة Charabia بالفرنسية • والى جانب هذه اللغة العامية كانت هناك اللغة العربية الفصحى ، لغة المؤلفات الادبية والفلسفية ، وهي اللغة نفسها المعهودة في كل رقعة العالم الاسلامي ، والتي هي أيضا لغة الدين والادارة، والتجارة والحضارة ، والتي تلعب دور اللغة اللاتينية نفسه سابقا ، في العالم النصراني في الغرب ، أو دور الاغريقية في العالم البيزنطي •

لغات التجارة :

غير أن اللغة العربية لم تقنع بتحقيق تفوقها ، أو باستئثارها بالنطق تقريباً،

---

(١) Cf. Colin, « Un document nouveau sur l'arabe dialectal d'Occident au XIIe. siécle », Hespéris, XII, 1931, pp. 1-32.

في داخل الامبراطورية الاسلامية[1] ، بل لقد اخترقت حـدود الامبراطورية المذكورة بواسطة التجار اليهود الرادانيين المقيمين في منطقة ناربونة في جنوب غرب فرنسا ، أو بواسطة التجار البربر المقيمين في السودان ، وكذلك حتـى المراكز التجارية العربية الفارسية في المحيط الهندي ، وأندونيسيا ، والهنـد الصينية والصين الجنوبية ، اذ كانت مدينة كانتون تضم جالية كبيرة من تجـار وفدوا من العالم الاسلامي ، أو في اتجاه الشمال ، حتى الجاليات الاسلامية المقيمة في المعارض التجارية القائمة على الانهار الروسية مثل إتل وبلغار وكييف ، كما كانت القسطنطينية تضم مسجداً يؤمه المسلمون الذين كانوا يعيشون فيها .

بقي علينا أن نتكلم ، قبل أن نختتم هذه اللوحة اللغوية، عن اللغات المزيجة التي تطورت على هوامش الامبراطورية الاسلامية ، والتي نشـأت في ذلك العصر ، والتي راحت تتطور بصورة عميقة فيما بعد ، وتضـم هذه اللغات : السواحلية التي كانت دارجة في موانىء المحيط الهندي ، وهي لغـة افريقية ، مشحونة بالعديد مـن التعابير المستعارة من العربية ومن الفارسية ومن لغات الهند ، ولغة الآزر ، وهي لغة وكالات تجارة الذهب والرقيق في نطاق الساحل السوداني ، والتي استعارت قوامها من العربية ومن البربرية ، ومن اللغـات الافريقية مثل لغة السونينكة والسونغاي بشكل خاص ، واللغة الصغدية التي كانت لغة التجارة الكبرى في العصر الساساني ، وهي لغة ايرانية تمثلت كلمات مختلفة مقتبسة من اللغات المجاورة ، ولغة الفرنجة في البحر الابيض المتوسط والتي ظلت حية مدة طويلة ، لان آخر رجل كان يتكلمها توفي في أواسط القرن التاسع عشر في راقوزة ، وهي دوبروفينك اليوغوسلافية . وهناك نوع من لغة

---

(٢) يعتذر مراسل يهودي كتب من مدينة القيروان وتجول في العراق ، وفي الاندلس وفي افريقيـا الشمالية ، يعتذر لانه لا يكتب بالعبرية بل بالعربية ، وذلك لانه على عجل وهذا ايسر له . انظـر كولدزيهر « متفرقات يهودية عربية » رقم ١٣ ، مجلة الدراسات اليهودية ، ل ١٩٠٥ ص ١٨٢ ـ ١٨٨ بالفرنسـية .

ماليزية ، والتي يتكلم بها أهل موانىء الارخبيل الاندونيسي ، وقد لعبت دورا مماثلا ، ولكن في وقت متأخر •

وتكتسب هذه الرقع اللغوية التي تبدو هامشية على الخارطة ، تكتسب، في الحقيقة ، أهمية عظيمة لانها كانت البوتقة التي تشكلت فيها العبارات التقنية، والتعابير أو المصطلحات البحرية أو التجارية ، والتي انتقلت فيما بعد الى اللغات المجاورة • وهنا تجب الاشارة الى أهمية هذا التطور ، ولاسيما بالنسبة لدخول عبارات تقنية من العالم الاسلامي الى اللغات الرومانية[1] •

وتسمح هذه اللمحة عن لغات التخاطب ، في داخل وعلى هوامش العالم الاسلامي ، تسمح بتصور أكبر لتعريف كلمة « اسلامي » وبإقامة تمييز بين عالم عربي وبين عالم عربي اللسان[2] • ويجدر بنا الآن استبعاد عبارة « عالم عربي»، إذ سبق وقلنا ان العنصر العرقي العربي البحت هو قليل الاهمية العددية ، وغارق في أقوام أكثر تكاثفاً بكثير ، وأكثر تمدناً ، وأكثر تحضراً عمرانياً • ومع أنعبارة « العالم العربي اللسان » تظهر أحسن حظاً فهي لا تبدو مع هـذا كافية • ففي الواقع تبدو حواف هذا العالم في حالة تطور ، هذا فضـلا عن خلوه من أي تكتل ، فالمدن والشبكة الحضرية تتنافر مع الريف من ناحية ، كما كان في نهايتي هذه الكتلة لغتان أساسيتان ، تصمدان وتتجددان ، كما سبق ورأينا ، وهمـا الفارسية والبربرية ، اللتان كان لايزال ينتظرهما مستقبل طويل •

* * *

ومما لاشك فيه أن التعبير الذي يجـب أن نحتفظ به هو عبارة « العالم الاسلامي » ، وهو تعبير يبدو بالتأكيد التعبير الوحيد الذي يمكن قبوله ، ولكن يشترط الاتفاق تماما على اللفظ • وهنا أيضاً نكون في معرض مجال يتطور على

(١) أي اللغات ذات الجذور اللاتينية وهي الايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية ولغـة سكان رومانيـا •

(٢) لا نتفق هنا مع الكاتب لان العروبة حسب تعريف الرسول الكريم هي عروبة اللسان : « ليست العروبة لاحدكم بأب او بأم انما العروبة عروبة اللسان » •

الصعيد المكاني ، وهنا كذلك تكون نقاط تماسك الهيكل هي المدن والاتصالات فيما بينها ، فانطلاقاً منها كان ينتشر تأثيرها كبقعة الزيت على العالم الريفي أو البدوي المجاور . ولكن الاسلام كان لايتوسع أحيانا في خارج هذه المدن الا ببطء ، مثال ذلك ، في بعض زوايا الجبل البربري ، ذلك أن هذا الدين مع مايستدعيه من حقوق وعادات، لم يكن لتتوطد أركانه هناك الا منذ عهد قريب في القرن التاسع عشر ، بتأثير ظاهرة خارجية هي المركزية الادارية الفرنسية . وهناك ملاحظة أخرى وهي أن العالم الاسلامي هذا لم يكن يضم بعد فيما بين القرن الثامن والحادي عشر حوض الغانج في الهند ولا أندونيسيا . وأخيراً كانت لاتزال في داخل اطار الخلافة أقوام عديدة تعيش في معزل عن الاسلام ، كالنصارى واليهود ، والزنادقة ، والمزدكيين ، والصابئة ، والبوذيين ، والمانويين الـخ ..[1] .

وإجمالا من الاحرى بنا الكلام عن عالم « مشمول بالسيادة الاسلامية » . واذا احتفظنا بعد كل شيء بعبارة « العالم الاسلامي » فإنها ستكون تقريبا مثل قولنا « عالم هيللينستي » أو « عالم روماني » ، أي كأننا نتكلم عن شعوب شتى تحت وشاح حضارة مشتركة ، أو على الاصح ، شعوب داخلة ضمن شبكة علاقات حضرية تؤلف جوهر هذه الحضارة التركيبية التوفيقية Syncrétique

وهكذا يتميز العالم الاسلامي ، بعد تعريفه ، بالملامح التالية :

ـ مجال اقتصادي فسيح أولا ، ومن ثم ، رقعة حضارية تستمد جذورها الشديدة التنوع من الفكر الاغريقي والسامي والايراني والهندي وبالطبع من العربي . وهو قبل كل شيء عبارة عن تركيب ، ويشهد الفن الاسلامي على ذلك بما فيه الكفاية ، فهو يعود لأصول كثيرة التنوع : فارسي ، ومن بلاد ما بين النهرين ، بيزنطي ، وحتى ويزيقوطي ، وتأتي براعة الاسلام من أنه صهر كل

---

(١) وهذه من ابرز ملامح العالم الاسلامي ونقصد به التسامح الذي لم تعرفه الديانات الاخرى « لا اكراه في الدين » .

هذه العناصر في حضارة وحيدة، بحيث يكون من المتعذر أحياناً تمييز العناصر الأصلية فيها : فقطعة ما من الفن الاسلامي مثلا تحجب في أغلب الاحيان مصدرها ، والاقليم الاثري الذي تنتسب اليه ، هذا اذا لم تكن المشكلة محسـومة بكتابة صريحة • فلا نعرف ما اذا كانت قد قدمت من الهند أو من اسبانيا ، من مصر أو من آسيا الوسطى • وللّسان العربي صفة العالمية نفسها ، فهو في الوقت نفسه لغة الدين والادارة والتجارة والحضارة •

وعالم الاسلام هذا ، والذي هو عالم تركيبي ، مثـل العالمين الهللينستي والروماني ، يتميز بشيء أكثر منهما : وهي أبعاده • فهو أكثر اتساعا واشتمل على شطر من العالمين المذكورين • واذا ما قمنا بخيالنا بتنضـيُد حدود امبراطورية الاسكندر والامبراطورية الرومانيـة والخلافة الاسلامية ، فاننا سـنصل الى الخلاصات التالية ، وهي أن العناصر البشرية في الخلافة انما استُمِدّت مـن العالم الهللينيستي ومن العالم الروماني : انها اذن شعوب الشرق وشعوب البحر الابيض المتوسط • أما فيما يتعلق بالمجال الجغرافي فإن أراضي الخلافة تغطي في الوقت نفسه الشرق الاوسط والحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، أي كما كان الحال بالنسبة للعالم الهللينيستي ، ولكنها تضـم في الوقت ذاته الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط كالعالم الروماني سابقا • وينفتح عالم الخلافة العباسية على نطاق واسع وأكثر اتساعا أيضا من العالم الهللينيستي، أي على المحيط الاطلنطي والشمال الغربي كالعالم الروماني • ولكن العـالم الاسلامي يتفوق على العالمين الهللينيستي والروماني بنوافذه المطلة على الانهار الروسية ، ونحو طرق بحر الخزر ، وبحر البلطيق ، وكذلك نحو السـودان وافريقيا الوسطى • وعن هذا الطريق يمكن ترجمة حَدَث ظهور الامبراطورية، فهو يعني اتساعا في الافق التجاري ونشوء مجال اقتصادي أكثر اتساعا ، وأكثر تنوعا ، وأخيرا أكثر قدرة •

الجزء الثاني

القوة النقدية والأنماط العمرانية

الفصل الخامس

المشكلات النقدية (1)

لقد كان بحثنا حتى الآن جغرافياً وتناولناه منطقة فمنطقة ، وعلينا الآن أن نقوم بدراسة اجمالية لبعض المظاهر الكبرى لقدرة العالم الاسلامي وقوته ، وأولها محركها الاساسي ، وهو النقد ، ثم نتعرض للنهضة العمرانية ، وأشكال الغليان الاجتماعي التي لامندوحة من أن تتمخض عنها الانقلابات الاقتصادية .

الوضع النقدي عشية الفتوح الإسلامية

يدل إنشاء خارطة نقدية للعالم القديم قبل نشـوء العالم الاسلامي على وجود ثلاثة مجالات نقدية متميزة تماماً ، أو ثلاثة أنظمة اقتصادية .

ــ الغرب الهمجي الذي خسر ذهبه تماماً لحساب الفضة ، وهي معـدن محلي . ونحن نعرف من هذه العملة الفضية التي كانت في أغلب الاحيان مـن

(1) Pour une étude plus détaillée des questions abordées dans ce chapitre, voir M. Lombard, « Les bases monétaires d'une sup - rématie économique. L'or musulman du VIIe au XIe siécle», Annales E. S. C., II, 1947, pp. 143 - 160 et Ètude d'économie médiéyale. I. Monnaie et Histoire d'Alexandre à Mahomet (à paraître prochai - nement).

نوعية رديئة ، نعرف ثلث الآس as، أو ما يسمى triens الميروفنجي ، وهي عملة نحاسية مغموسة بالفضة وضئيلة الوزن ومن عيار منخفض جداً . وكانت المنطقة تفتقر للتجارة الكبيرة ، مثلما كانت تجارة استيراد سلع الترف بأيدي المشارقة ، ولا سيما السوريين ، الذين استنزفوا احتياطات الغرب الهمجي من الذهب . ونظراً لحرمان هذا الغرب من الذهب الذي هو العملة الاساسية في تجارة بحر الروم الكبرى ، فقد أصبحت منطقة جنحت فيها الاشكال الريفيـة والملكية الواسعة للتفوق بصورة متزايدة أكثر فأكثـر بينما كان الانحطاط العمراني يستفحل مع الاتجاه نحو الاقتصاد المغلق .

أما الامبراطورية البيزنطية فقد كانت تتعرض بدورها لمصاعب جمة في الحصول على حاجتها من الذهب . فهناك أولا عجز وعدم انتظام في حصولها على الذهب الجديد ، أو ذهب المنجم : فقد قام برابرة الشمال بقطع الطـريق عليها نحو السهوب الروسية والخزرية ، في حين أخذ البلميّون[1] في مصر العليا على عاتقهم قطع طريق أفريقيا عليها . وفضلا عن ذلك كان عالم المحيط الهندي مغلقاً في وجهها بسبب هيمنة التجارة الساسانية .

وقد استفحل الافتقار للذهب بتأثير الاكتناز ولاسيما الكنائسي والذي أدى الى سحب قدر كبير من المعادن الثمينة من دارة التداول ، وذلك لمصلحة أديرة بلاد الشام ومصر والقسطنطينية . وقد كان هذا العوز الى الذهب يزداد خطورة في الوقت نفسه الذي تضاءلت فيه وتلاشت تيارات الذهب المسكوك القادم من الغرب الهمجي ، أو الذي كان يتسرب كما رأينا بفعل تجارة السوريين. وقد أدى مجمل هذه الظواهر الى انكماش ولزوجة متزايدة في التداول النقدي في الامبراطورية البيزنطية .

غير أنه بقيت هناك احتياطات كبيرة من الذهب في الاقاليم الشرقية مـن

---

(١) او Blemmeys ، وهو شعب الحبشة القديمة الذي اجتاح مصر في عدة مناسبات ولاسيما في عصـــر الاباطـــرة ديسيوس Décius (الثالـث قبل الميـلاد) و اوريليان ، قاهـر زنوبيا (٧٢٠ ـ ٧٢٥ م) وديوقليسيان الذي حكم بين ٢٤٥ـ٣١٣ م .

الامبراطورية مثل سورية ومصر ، وهي بلاد عبور عريقة ، أو « بلاد اسفنجية » بين الغرب الهمجي وبين الشرق الساساني • وقد استطاعت بيزنطة بفضل هذه المدخرات من التغلب على أزماتها النقدية وأن تحافظ على وحدة نقدها وهو نوميزمه nomisma (دينار قسطنطين denarios chrusous و Solidus aureus والذي ظل دوماً الاداة الوحيدة في المبادلات في حوض البحر الابيض المتوسط وإحدى الاوراق الرابحة الرئيسية في يد الدبلوماسية البيزنطية •

بيد أن الامبراطورية البيزنطية ظلت مع ذلك تعاني على الصعيد النقدي : وهكذا تباطأت التجارة فيها وتقلصت ، حتى انها انكمشت لدرجة أصبحت فيها محصورة ضمن دائرة محدودة ، وعلى التحديد ضمن الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط ،أي بين الاسكندرية ــ أنطاكية ــ القسطنطينية ــ الاسكندرية • والى جانب المراكز العمرانية التي ظلت قائمة ظهر التشنج بتأثير الملكيات الواسعة التي زادت اتساعاً ، وهذا ما تدلنا عليه أوراق البردي بالنسبة لمصر ، والتي تعود للقرن الخامس والسادس والسابع ، وكذلك بالنسبة للامبراطورية،تلك المراسيم الصادرة عن الاباطرة والتي تحاول الكفاح ضد كبار ملاكي الاراضي الذين حازوا على أهمية جارفة •

وفي مقابل ذلك كان الشرق الساساني يجهل تداول الذهب اذ كان مجال العملة الفضية الوحيدة ، القائمة على أساس الدرهم • ولكن كانت تتكدس في هذه المنطقة مدخرات ضخمة من الذهب ، على شكل مجوهرات أو أثاث ثمين ، كانت تتراكم في قصور ملوك الفرس وأمرائهم • وهكذا ظهر الشرق الساساني بفضل هذه المخزونات الذهبية وكأنه مستهلك حقيقي للذهب •

وهكذا أقام هنا نشاط اقتصادي كبير تمخض عن نهضة عمرانية فوق أساس من العملة الفضية التي كانت تهيمن على أسواق الشرق الاوسط والمحيط الهندي مع استطالتين باتجاه آسيا الوسطى ومنطقة الانهار الروسية • وراحت الملامح الريفية والملكيات الزراعية الكبرى تجنح للتلاشي لفائدة المشهد العمراني

الحضري والتجاري • وأصاب الطبقة النبيلة القديمة من ملاكي الاراضي الضعف مع نمو النشاط التجاري باتجاه أقطار المحيط الهندي والبحر الاحمر وآسيا الوسطى والانهار الروسية • وفضلا عن ذلك راح الساسانيون يشرفون من الآن فصاعداً على تزويد بيزنطة بالسلع الثمينة الآسيوية باعتبارهم وسطاء لاغنى عنهم ، ففي صدر الخليج العربي كانت مدينتا طيسفون والأبلّة تلعبان دور المدينتين الهللينيستيتين سلوقية وآبولوغوس Apologos وهو نفس الدور الذي آل فيما بعد لمدينتي بغداد والبصرة •

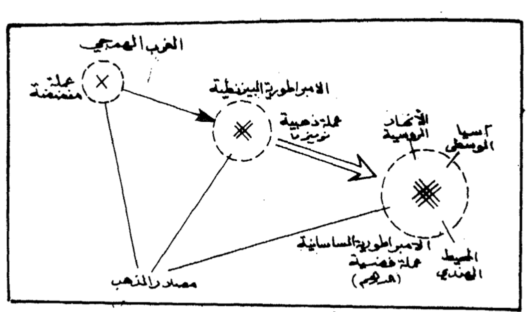
وقد تجلت هذه الهيمنة الاقتصادية للرقعة الساسانية على الصعيد الفني بإشعاع الصيَغ التقنية ، والهندسية ، والايقونية ، والتزيينية في بلاد ما بين النهرين وايران ، وذلك سواءً في اتجاه الشرق ، كما في مغاور آجنتا في الهند[١] ، ورسوم خوتان وكوشتا في طرفان في آسيا الوسطى ، وفي الشمال في الحلي الذهبية المحززة لدى شعوب السهب ، ونحو الغرب في المنسوجات البيزنطية على الخصوص •

وبعد أن تعرفنا على هذه المجالات النقدية الثلاثة بقي علينا أن نوضح اتجاه التيارات التي نشأت فيما بينها • فقد كانت هذه التيارات تتجه في خاتمة المطاف من الغرب نحو الشرق : لقد خسر الغرب ذهبه لفائدة بيزنطة ، كي تتخلى هذه عن ذهبها لفائدة الشرق الساساني •

وهكذا كنا نشهد عشية الفتوح الاسلامية حركة خطية من الغرب نحو الشرق ، حركة تستنزف الغرب الهمجي ومنطقة حوض البحر الابيض المتوسط لفائدة أقطار الشرق الاوسط والمحيط الهندي • وراح كل هذا الذهب يغوص في الادخار الساساني والهنديّ •

---

(١) آجنتا : قرية في دولة ماهاراشتا بالهند تضم معبدا محفورا بالصخر حيث توجد رسوم ذات طابع بوذي تعود للفترة الممتدة بين القرن الرابع والسابع الميلادي •



شكل ٨ ـ مخطط التيارات النقدية عشية الفتح الاسلامي

وفي بداية القرن السابع ظهر اختلال توازن ، متزايد في خطورته ، في توزع حجم الذهب الاجمالي ، اختلال يتمثل بالادخار وفي التداول • فقد أصبحت ممالك الغرب الهمجية barbares ، التي نضبت تقريبا كل مخزوناتها الذهبية مفتقرة للذهب النقدي ، هذا في الوقت الذي كان تداول الذهب على شكل عملة ينكمش في الامبراطورية البيزنطية ، هذا على الرغم من مدخراتها التي لاتزال على قدر لا بأس به من الاهمية ، بينما كانت الامبراطورية الساسانية تتصف بانعدام تداول الذهب النقدي وبتخمة في الذهب المدخر • وهكذا ظهر اتجاه نحو تحديد حجم الذهب المتداول على شكل نقود ، ونحو انكماش المجال الجغرافي للذهب الذي أخذ يتقهقر في وجه مجال الفضة المتوسع •

فقدانكمش الذهب أو الوحدة البيزنطية نوميزمه nomisma لينحصر في الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، أي في الممتلكات البيزنطية ، المحصور بين مجال الذهب الغربي الذي قام في الغرب الاوروبي ، وبين مجال الذهب الساساني الذي نما وانتصر في الشرق ، نظراً لأن الاسباب الثلاثة في هذه الحركة الاجمالية كانت ، في خاتمة المطاف ، الادخار ، وضعف واضطراب الانتاج التعديني ،

وأخيراً للطابع الخطّي الوحيد الاتجاه ، من الغرب نحو الشرق ، والذي فرضه الميزان التجاري على التيارات النقدية •

وأخذت الفتوح العربية وتكوين العالم الاسلامي تؤثر سوية على الوقائع الثلاث التي أشرنا اليها قبل قليل وعلى تبدل الخارطة النقدية •

المعادن النقدية في العالم الإسلامي

لقد كان الحدثان الاساسيان هما تدفق الذهب الذي سيستخدم في ضرب الدينار denarios ، واستغلال موارد كبيرة ، من الفضة من ناحية ، وهو معدن سيكون أساس الدرهم drachme ، ومن النحاس ومن القصدير من ناحية أخرى ، وهما المعدنان اللذان سيسمحان بضرب النقود الصغيرة ، أي الفلوس ، من كلمة فولّيس phollis البيزنطية •

وقد اتخذ تدفق الذهب أشكالا ثلاثة : إعادة الذهب المخزون للتداول ، ووصول ذهب جديد ، وتقدم تقنيات معالجة الذهب الخام • أما عودة الذهب المدخر للتداول فقد كان نتيجة التغذية الذهبيــة بالغنائم ، أي ذهب قصــور الساسانيين ، ومن ذهب الكنائس السورية وذهب كنائس بلاد ما بين النهرين ابتداءً من عصر خلافة عبد الملك الاموي الذي حكم بين ٦٨٥ و ٧٠٥ م • فهذا الخليفة الذي دفع بحركة التعريب بشدة عن طريق اتخاذ العربية لغة رسمية في المكاتب الحكومية ، وضرب ديناراً إسلامي الطراز ، عمل على إلغاء امتياز أعضاء الكهنوت ، الذين كانوا حتى عهده معفيين من الجزية • فمن الآن وصاعداً صار عليهم أن يدفعوا قطعة ذهبية عن كل رأس ، أما بالنسبة لممتلكاتهم فقد جردت وخضعت لضرائب عقارية عادية ، أي للخراج •

وهكذا لعبت مدخرات الكنائس والاديرة في العالم الاســلامي ، خلال القرن الثامن والقرن التاسع ، دور تلك المدخرات التي يعتمــد عليها الملك في ساعات الشدة ، وهذا على الضبط مثل مدخرات المعابد القديمة التي حــاول

الامبراطور قسطنطين[1] أن يستغلها لإنشاء عملته سوليدوس أوروس Solidos Aureus • واذا كانت أولى التدابير التي اتخذها الخلفاء الامويون لاستخراج الذهب من الخزائن الكهنوتية تعود لعام ٧٠٠ م فإن أوائل التدابير، التي اتخذت في بيزنطة كانت على يد الاباطرة الايصوريين isauriens[2] الذين كافحوا عبادة الايقونات ، تعود لعام ٧٢٦ ، أما في أوروبا الغربية فإن بداية سياسة مصادرة أملاك الكنيسة التي اتبعها شارل مارتل[3] تقع في عامي ٧٣٠ و ٧٣١ ، ونلاحظ اننا تجاه حركة تبدو وكأنها تنتشر من الشرق الى الغرب ، أي من العالم الاسلامي نحو بيزنطة ، ثم نحو الغرب الفرنجي ، حركة وضعت حداً لدورة الادخار •

وكانت آخر كمية مدخرة من الذهب مكتشفة هي ذهب المدافن الفرعونية• فقد توقف اختزان ذهب المدافن،الذي ظل متبعاً في مصر،عند الفتوح الاسلامية• وتشير نصوص وثائق ذلك العهد الى اكتشافات عديدة تمّت على أيدي **أصحاب المطالب** ، وهم أصحاب مهنة حقيقية كانوا يسلّمون خمس ما يعثرون عليه الى الدولة ، وكانوا يعملون بتعاون وثيق مع **دار السكة** ، وهو وضع يماثل اذن الوضع في أمريكا عند فتحها على أيدي الاسبان Conquistadors حيث كانت جماعة المنقبين gugeros مختصة في البحث عن القبور البيروفية القديمة guacas ، أو يماثل أيضا الوضع الذي كان معروفاً في العصر الوسيط في غربي أوروبا ، حيث كان « لصوص القبور » يحصلون على ثروات هزيلة ، بالمقارنة مع أمثالهم المصريين والاسبان •

واذا عدنا للكلام عن ذهب الفراعنة وجدنا أن وزن الذهب الصافي الذي

---

(١) ولد في نيش سنة ٢٧١ ، وانتخب امبراطورا سنة ٣٠٦ ومات في ٣٣٧ م • وقد اتخذ الديانة النصرانية ديانة رسمية وهو الذي منح بيزانس اسم القسطنطينية •

(٢) اسم اطلق على اسرة حاكمة في بيزنطة اسسها ليون الثالث والتي حكمت في القسطنطينية بين ٧١٧ و ٨٠٢ •

(٣) وهو الذي قهر عبد الرحمن الغافقي في معركة بلاط الشهداء في بواتييه عام ٧٣٢ •

اكتشف في قبر توت عنخ آمون كان يبلغ عدة آلاف من الكيلوغرامات ، وكان يمثل ضعف احتياطي بنك مصر في عهد قريب . غير أن هذا الفرعون كان عبارة عن ملك متوسط القدر : اذن علينا أن نتصور حينذاك قيمة ذهب مجمل القبور الفرعونية التي نبشت أكثريتها . واذا تصورنا ، في أيامنا هذه ، أن هذه المكتشفات كانت محفوظة ، أي اذا انتقلنا بذلك من الادخار في المقابر الى الادخار العلمي ، المتمثل في متحف الآثار في القاهرة ، أدركنا ماكانت تفعله عودة ذلك الذهب للتداول ، وعرفنا مقادير النقود التي ضربت بهذا الذهب المسترد .

أما الشكل الآخر لتدفق الذهب فقد كان وصول الذهب الجديد الناتج عن الاستغلال التعديني ، وقد كان الذهب الجديد ، أي ذهب المنجم ، كان بالفعل من نتاج الممتلكات الاسلامية نظراً لتوسع دار الاسلام ، ولان المسلمين كانوا يملكون عملياً مواقع مناجمه ، أو لانهم كانوا يسيطرون على الطرق التي ينقل عليها الذهب من الاقطار الاجنبية . وهكذا كانوا يهيمنون بصورة مباشرة أو غير مباشرة على مناجم شبه جزيرة العرب والقوقاز وأرمينية وجبال الاورال والألطائي ، حيث كانت المناجم الاخيرة تغذي تجارة القبائل التركية البدوية ، ومناجم التيبت والدكّن التي كان ذهبها يصدر نحو أسواق نهر الهندوس وساحل مالابار الهندي ، ومناجم أفريقيا الشرقية التي كانت تشكل ثروة بلاد «سفالة[1] الذهب» ، ومناجم النوبة ، وأخيراً مناجم وادي العلاّقي التي يتكلم عنها اليعقوبي ، والتي كانت تنتج ذهباً يصدر بعدئذ باتجاه أسوان .

ومن ناحية أخرى فقد استحوذ العالم الاسلامي على مصدر جديد للذهب أكثر أهمية بكثير والذي أخذ على عاتقه تغذية تيار الذهب الرئيسي الجديد نحو البحر الابيض المتوسط من القرن التاسع حتى القرن الخامس عشر ، وهو ذهب السودان ، وكان يتم الاستخراج على أيدي معدّنين زنوج من الذين ظلوا على نشاطهم حتى أيامنا هذه . أما نقل المعدن الحاصل فقد كان من مهام التجارة

(١) سفالة هي الساحل الافريقي في موزمبيق وتجاه جزيرة مدغسكر « مالاغاسي » .

العابرة للصحراء الكبرى ، أي بواسطة أصحاب قوافل الابل من البربر ، وذلك انطلاقا من مراكز تخزين التبر في منطقة السنغال ـ النيجر حتى نهاية خطوط القوافل في الشمال ، على الحافة الشمالية للصحراء الكبرى مثل مدن نول لمطة، سجلماسة ، ورقلة والجريد ، وكلها بلاد أو مدن هي عبـارة عن موانىء الذهب في المغرب ، ولا سيما سجلماسة ، التي تأسست سنة ٧٥٧ في اقليم تافيلالت ، والتي كانت تمثل ميناء دخول بلاد السودان الكبير،والتي كانت تسمى أيضاً بلاد التبر ، والتبر هو الذهب النقي المصهور على شكل قضبان مضفورة .

وهناك عنصر ثالث موائم لتدفق الذهب : وهو تقدم التقنيات في معالجة الفلز ،وذلك باستعمال الملغمة[1] بشكل شامل ، وهي عبارة مشتقة من كلمـة عربية هي بحد ذاتها تحريف لكلمة اغريقية malgama ، أو بكل بسـاطة مشتقة من الكلمة العربية **المجمع** أو عمل **الجمع** . وكانت هذه الطريقة تستعمل زئبق اسبانيا المسمى الزوءق ، وفي الاسبانية azoque . وكان يعمل في مدينة المعدن Almaden قرابة ألف عامل ، وكان الزئبق يلعب الدور الذي كان عليه أن يلعبه فيما بعد بالنسبة للمعادن الثمينة في أمريكا . وكان يصدر بالواقع من اسبانيا نحو مملكة المغرب والسودان ونحو مصر والنوبة ونحـو بلاد ما بين النهرين وآسيا الوسطى والمحيط الهندي ، أو بعبارة أخرى نحو كل الاقطار المنتجة للذهب الخام . وقد بقيت كلمة من هذه التقنيات حتى أيامنا هذه وهي الباته la batée ، وهي أداة تستعمل لغسل الذهب وتدعى بالاسبانية باتيئـا batéa والمأخوذة من كلمة بطيخة العربية .

والى جانب مصادر الذهب هذه كانت هناك مصادر للفضة . وكانت أكبر المناطق المنتجة للفضة في العالم الاسلامي هي نفس المناطق في العصور القديمة : ونذكر أولا اسبانيا الجنوبية أو بلاد طرطسوس القديمة Tartessos التي

---

(١) الملغمة تعني صهر الذهب ، وهو مع شوائبه في الزئبق ثم يصفى الناتج كي يحصـل عـلى الذهب الصافي .

تردد عليها الفينيقيون والقرطاجيون والرومان قبل أن تؤول للمسلمين الذين تلافوا الثغرة الناتجة عن انخفاض الانتاج بسبب زحف البرابرة من الشمال أو توقفه تماما ، وقد أدى دخول المنطقة في حوزة المسلمين الى استئناف النشاط التعديني بصورة شديدة . هذا وكانت تستغل مناجم الفضة في جبال أطلس المغرب على أيدي السكان المحليين ، الذين أوجدوا تياراً تصديرياً قوياً كان في أيدي الفينيقيين المقيمين في مدينة ليكسوس Lixos أو العرائش الحالية . وظلت هذه المناجم مثابرة على انتاجها حتى القرن السادس عشر .

ولكن ظهر أن زمرة المناجم الواقعة في أرمينية وشمالي ايران وفي آسيا الوسطى كانت مراكز أكثر أهمية ، فقد كانت عبارة عن نطاق فضي كبير كان الساسانيون يستغلونه بصورة كبيرة لضرب درهمهم . وكانت أهم المناجم هي الواقعة في معدن بنغير ، في جبال كابل ، حيث كان يعمل فيها ١٠٠٠٠ عامل ، ومعدن الشاش في بلاد ماوراء النهر ، في شمالي فرغانة . وهناك نقود فضية من عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ومن أيام أسرة الصفاريين ، في القرن التاسع ، تحمل عبارة معدن بنغير ومعدن الشاش ، وهي اشارة تؤكد قيام دار سك عملة الى جوار المناجم . وأخيراً كانت منطقة طوروس في كيليكية في شمالي بلاد الشام شهيرة بوجود موقع بلغار معدن الذي سبق أن استغله الفينيقيون الذين كانوا يصدرون الفضة نحو مصر الفرعونية .

وهكذا يضم العالم الاسلامي على الخصوص منطقتين كبيرتين منتجتين للفضة وهما : اسبانيا في أقصى الغرب وآسيا الوسطى وايران الشمالية في أقصى الشرق . وكانت هاتان المنطقتان تزودان ، كل واحدة بدورها ، ورشات الغرب وورشات الشرق الاسلاميين ، والتي كانت تنتج **الدراهم** .

وكانت هناك أخيرا مصادر النحاس والقصدير . ولنتصور الاواني والادوات العديدة الفنية التي لازالت محفوظة حتى أيامنا والمصنوعة من النحاس ومن البرونز أو من النحاس الاصفر (نحاس وتوتياء) . وكان تعدين النحاس

يغذّي دور ضرب النقود الصغيرة مثل الفلوس وهي عملات محلية ومساعدة. وكانت قبرص تنتج هذا المعدن ولكن منجم أرغانة المسمى حاليا أرغاني معدن في شمالي الجزيرة العليا أكثر أهمية ، والذي لا زال حتى أيامنا هذه يقدم كل لوازم الصناعة الحرفية في الشرق الادنى ، كالاواني المطبخية أو الاواني النحاسية المرصّعة ، وتصدر نحو الموصل ودمشق . وكانت أفريقيا الشمالية من جهتها تنتج النحاس من منطقة كتامة الجبلية ، الواقعة في كتلة جبال قبايل بايور ، والتي كانت تؤمن مورداً ثابتاً للفاطميين . وكان المغرب الاوسط أو بلاد دائي ، الواقعة على المجرى الاوسط والاعلى لنهر أم الربيع ، كان يصدر النحاس نحو فاس ونحو الجنوب باتجاه سجلماسة ، ومنها نحو بلاد السودان. أما السوس الاقصى فقد كان من جهته ، يصدر نحو السودان سبائك النحاس ، وكذلك على شكل حوضات وحلقات . أما اسبانيا فقد اشتهرت منذ العصور القديمة بغناها بالنحاس. وأخيراً كان نحاس بلاد القفقاس وآسيا الوسطى يغذي صناعة الاواني المنزلية الحرَفيّة التركية .

أما القصدير الذي يصنع منه البرونز أو الخارصين ، بعد مزجه بالنحاس، فكان يأتي من مصدرين كبيرين نائيين كان اقتصادهما مرتبطاً بالتجارة العالمية الكبرى وهما : جزر كاسّيتيريد Cassitérides أولا ، وهي الجزر البريطانية، ومنها جاء الاسم العربي لهذا المعدن ، أي القصدير ، وثم من بلاد قاله Kalah ، أي من شبه جزيرة ماليزيا ، وهذا النوع من القصدير هو الذي اشتهر باسم القلعي . وكان قصدير جزيرة بريطانيا العظمى يصل اسبانيا عن طريق المحيط ، وعن طريق بلاد الغول (فرنسا) ومدينة ناربونة الى الاقطار الاسلامية المطلة على البحر الابيض المتوسط ، والى الشرق الاسلامي عن طريق ممرات جبال الالب والبندقية . أما القصدير الماليزي فكان يصل الى العالم الاسلامي عن طريق الخليج العربي والتجارة العربية الفارسية في المحيط الهندي والبحر الاحمر .

سك العملة وتداولها

لقد وفّر تدفق الذهب وغزارة موارد الفضة، وموارد النحاس والقصدير بصورة لاحقة، أقول وفّرت جميعاً امكانات ضخمة لسك العملة الاسلامية. وهكذا تكاثرت دور ضرب النقود، مثلما جنحت دور ضرب العملة الذهبية الى اللامركزية وأصبحت مألوفة في سائر المدن الهامة في العالم الاسلامي، وطُرحت في الاسواق مقادير عظيمة من النقود الذهبية والفضية التـي ضربها الخلفاء، وكذلك كل ملوك الدول الاسلامية، وذلك بعد تفكك أوصال الخلافة. وراحت النوعية تصاحب الكمية، شأن كل عملة سـائدة، اذ كان يتم ضـرب الدينار بعناية فائقة.

ويشهد الجغرافي ابن خرداذبة الذي كتب مؤلفه في حدود العام ٨٥٠ م على حقيقة وكثافة هذا التداول النقدي، ووفرة النقد المعدني من ذهبي وفضي، حتى في أصغر البلدان، ويشير الى مجموع الضرائب بالنقد، أو الى المبالغ التي كان ينفقها الخلفاء على الابنية التي تشهد بما فيه الكفاية على النهضة العمرانية. وهذا التداول النقدي الذي كان يحرك كل العالم الاسلامي، كان في الوقت نفسه، يمتد الى ماوراء حدود بلاد الاسلام، فكان يمتـد لمناطق واسـعة في المجالات الاقتصادية المجاورة.

هذا ولم يتشكل طراز النقود الاسلامية، من دينار ذهبي أو درهم فضي، دفعة واحدة. فلم ينتج عن الفتح، في بدايته، تبديل في نموذج النقود الدارجة، ذلك لان الدراهم الساسانية في الولايات الشرقية، والدنانير البيزنطية في الاقاليم الغربية ظلت في التداول، ولم تعمل أوائل دور ضرب النقد الاسلامية أكثر من من تكرار سك هذه النماذج وهذا حتى عهد الخليفة الاموي عبد الملك. وعلينا أن نبحث عن سبب هـذا التأخير في تغيير النماذج النقدية القـديمة في الطابع التقليدي والروتيني الذي يؤدي الى تشبث عالم التجـارة بأدوات التبادل،

وبالريبة الغريزية في كل تجديد في ميدان العملة ، فالتغيير لايحدث الا عنـــدما يصبح ضرورة بسبب التحولات الطارئة على الاقتصاد ذاته[1] .

فهذا التأخير في ظهور نموذج نقدي اسلامي يفسر لنا التطور الاقتصادي. فاذا كانت نقود التجارة الكبرى قد بقيت دوماً هي النقود الذهبية البيزنطية والقطع الفضية الساسانية حتى نهاية القرن السابع ـ لأن اصلاح عبد الملك في المجال النقدي يعود للعامين ٦٩٦ ـ ٧٩٧ ـ فذلك يعـود الى بقـاء الدارات التجارية المعهودة في العالم البيزنطي Circuits ، من ناحية ، ودارات العالم الساساني من ناحية أخرى . ولكن ابتداء من القـرن السابع نشأت الوحدة الاقتصادية وتفاغمت الشبكتان : أي نشأت أوضاع جديدة سمحت بالانتقال الى نموذج موحد ، قائم على الدينار الذهبي وعلى الدرهم الفضي .

ومن الممكن توضيح مراحل هذا التطور . فقد جرب الخليفة علي بن أبي طالب (رضي‌اللهعنه) ولاول مرة القيام بمحاولة في هذا المنحى ، وذلك في البصرة عام ٦٦٠ م مع كتابة بالحرف الكوفي . ولكن لم يقدّر لهذه المحاولة التوفيق. ولكن بعد أربعين سنة استؤنف هذا التجديد بنجاح. إذن لقد حدث خلال هذه السنوات الاربعين تبدل في الوضع النقدي ، وهو اشارة الى تحول في الوضع الاقتصادي : فقد فشلت العملة الاسلامية ثم نجحت في هذا الامتحان الرئيسي الذي كان ، بالنسبة لكل نموذج نقدي جديد ، عبارة عن ظهوره في السوق ، ومجابهته مع الانماط الموجودة سابقا .

فقد كانت أول عملية نقدية هي التي حققها المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي‌اللهعنه) (٦٣٤ـ٦٤٤م) هي تنسيق وزن العملات الفضية . فبينما

---

(١) هذا صحيح تماما بالنسبة للعطالة في تداول النقد ، فقد ظلت النقود الفضية العثمانية متداولة في سورية حتى عام ١٩٣٥ اي بعد انسحاب الاتراك وهزيمتهم بمدة ١٧ سنة الى ان عمدت السلطة المنتدبة الى تكسير هذه النقود .

كانت العملة الذهبيـــة مستندة على نظام واحد هو وحـــدة الدينار البيزنطي نوميزمه nomisma كان العالم الاسلامي يواجه ثلاثة أنظمة من العملة الفضية: الدرهم البغلي ، في فارس ، والدرهم الرومي بالنسبة للمبادلات مع بيزنطة ، والدرهم الطبري في آسيا الوسطى . وقد أدى الاهتمام بتكوين مجال كبير موحد للعملة الفضية الى تحديد وزن الدرهم بمقدار أربعة عشر قيراطا ، وكلمة قيراط مأخوذة من الكلمة اليونانية كيراتيون Keration التي تحولت الى carat باللغات الاوروبية ، أو حوالي ٢٫٩٦ غراما . ومن الجدير بالملاحظة أن تحديد وزن الدرهم الفضي النظامي كان مأخوذاً من قياس موروث من النظام الاغريقي، أي من **القيراط** ، وليس حسب القياس الفارسي أو **الدانق** : فقد كان المقصـــود من وراء ذلك ربط هذه العملة الفضية الجديدة بالعملة الذهبية الموروثة هي ذاتها ، كما رأينا ، من النظام الاغريقي .

ولم يظهر النموذج الاسلامي حقيقة الا بعد الاصلاح النقدي الذي قام به الخليفة عبد الملك في عامي ٧٤ــ٧٥ هـ أو ٦٩٣ــ٦٩٥ م على اثر ضرب الدينار الذهبي في دمشق . ومنذ ذلك الحين امتدت الحركة لأنحاء أخـــرى : ففي عام ٧٥ــ٧٦ هـ (٦٩٤ ــ ٦٩٦ م) ضرب والي العراق الدراهم الفضية ، كما ظهر الطراز الاسلامي النقدي في البصرة . وسارت بقية الاقاليم على نفس المنوال : ففي عام ٧٧ هـ/٦٩٦ ــ ٦٩٧ قام والي مصر الامير عبد العزيز بضرب الدنانير الذهبية في الفسطاط .

وكان يشتمل الدينار الجديد ، في واجهته ، وذلك على شكل كتابة دائروية، تاريخ الاصدار : « باسم الله . ضرب هذا الدينار سنة ... » ويصاحبها ابتداء من الخليفة العباسي المأمون ، اسم المدينة التي تم فيها الضرب . أما في الدائرة، وضمن الواجهة طبعاً ، فقد كتبت آية قرآنية في ثلاثة أسطر . وعلى القفا كتبت على الدائرة عبارة فيها الثناء على محمد ﷺ ، وفي داخل الدائرة آية قرآنية في

ثلاثة أسطر • ويتصف الدرهم بالشكل نفسه ولكن مع أبعاد أكثر اتساعاً لأن المجال يكون بالواقع أوسع على قطعة فضية أكبر حجماً وأكثر سماكة •

وأخيرا كان هناك الفلس الذي يحمل كتابات عربية من نماذج شتى • وعلينا أن تتذكر هنا أن هذه العملة ليست أكثر من نقد محلي وثانوي ، وغير خاضع لحق الاشراف الملكي ، وتسكّها السلطة المحلية • وبالفعل لم يكن هناك من علاقة نظامية بين البرونز وبين المعادن النقدية الاخرى •

وهكذا كان النموذج النقدي الناشيء متميزاً بالكتابة بالحروف الكوفية المربعة وبفقدان صورة العاهل • أما التمثيل الشكلي ، مثلا ، والذي يمثل الخليفة المعتصم جالساً على العرش ، حسب النمط الساساني ، فقد كان عبارة عن استثناء • هذا كما تم تثبيت وزن هذه العملة الجديدة بالتوازي مع نموذجها الخارجي • فقد تم الاحتفاظ بوزن الدرهم الفضي حسب المعدل الذي أقامه الخليفة عمر ، وبعدئذ تمّ تثبيت وزن الدينار ، وذلك استناداً الى معدل متوسط بناء على وزن عدد كبير من القطع الذهبية البيزنطية المتداولة ، لان وزن دينار قسطنطين الذهبي كان يعادل ٤٫٢٥ غرامات• ولكن لما كانت هذه القطع النقدية قد سبق وأن تداولتها الايدي بكثرة ، أي خسرت نوعاً ما شيئاً من وزنها الذهبي ، فقد تتج عن ذلك أن كانت النقود الاسلامية الجديدة أقل وزنا بقليل، من الدنانير البيزنطية ، من حيث وزن الذهب الصافي • ولما كانت العملة الضعيفة هي التي تطرد العملة القوية حيثما كانت في الاسواق ، فإن الاختلاف البسيط في الوزن بين قطع العملتين المتنافستين لم يكن بلا ريب غريباً عن سرعة انتشار العملة الجديدة في كل العالم الاسلامي • وقد سحبت قطع العملة القديمة شيئاً فشيئاً .وكان على الصرافين وأرباب المصارف تسليم ما لديهم أو ما يردهم منها الى المصالح الرسمية التي كانت تقوم بصهرها وبضربها من جديد • وكذلك كان عليه الحال في خارج المجال الاسلامي اذ مدّ الدينار ، وهو العملة الكبرى لدى الخلافة ، مدّ ووسّع نطاق تداوله ، ولاسيما في البلاد التي يكون الدينار

الاسلامي في صراع مع الدينار البيزنطي nomisma مثل روسيا الجنوبية أو بلاد الغرب الاوروبي الهمجي ٠

وهكذا ارتبطت منظومتان نقديتان ، كانتا في الماضي متباعدتين ، ارتبطتا الواحدة بالاخرى بواسطة الدينـار والدرهم الاسلاميين ، وريثـي الدينار البيزنطي والدرهم الساساني وذلك حسب المخطط التالي :



عملتا التجارة الكبرى ٠ مجالان مترابطان

وهكذا نشهد تحقق ارتباط العملة الفضية بالعملة الذهبية ، أو ازدواجية المعدن في عالم البحر الابيض المتوسط ، على أساس أن كل دينار يعادل عشرين درهماً ، والوحدة التدريجية بين مجاليْ النقدين السابقين : البيزنطي والساساني، وانتصار المعيار الذهبي ، واتساع تداول الذهب نحو الشرق ، أي فوق المقاطعات الساسانية القديمة ، ونحو الغرب ، أي في الغرب الهمجي وفي أسبانيا ٠

بقي علينا أن نوضح مراحل هذا الاتساع في مجال الذهب في داخل العالم الاسلامي ٠ فقد ازدهر ضرب النقود الذهبية نفسه بسبب تدفق المعدن على شكل موجات متعاقبة متمثلة بالغنائم ، ثم بوضع الذهب المدّخر تحت التداول وأخيرا لوصول الذهب الجديد من أنحاء العالم قاطبة ، ولاسيما من السودان ٠ وفي أعقاب هذا التدفق من المعدن الاصفر جنحت قيمة الذهب ، وبالتالي القدرة الشرائية للعملة التي تتضمّنها الى الانخفاض ٠ ونظراً لعزوف الناس عن ادخار عملة تفقد قيمتها بالتدريج ، ونظراً لإعادة توظيفها فوراً في الصفقات التجارية

والعقارية استجابة لاقتصاد متوثب حيث تكون الارباح آخذة في الازدياد تدريجيا ، فإننا لا نجد مجالا للدهشة اذا رأينا حركة إثراء تحرض العالم الاسلامي بعد الفتح ، ولاسيما بين صفوف التجار .

ولنتريث الآن قليلا كي نتكلم عن ذهب السودان. فهذا الذهب الذي يغذي التيار الرئيسي المموّن بالمعدن الثمين ابتداء من نهاية القرن الثامن ولاسيما من مطلع القرن التاسع ، كان يصل ، كما سبق وقلنا ، عن طريق مدن القوافل الصغرى الواقعة في جنوب المغرب : ذلك أن كل التاريخ السياسي في أفريقيا الشمالية وتاريخ الأسر المالكة فيها كان يدور حول الاهتمام بالسيطرة على نهاية الطرق الشمالية أي عند محطات توقف القوافل الناقلة للذهب . ولكن هذا الذهب لم يكن ليستقر في المغرب ، بل لا شيء أكثر من عبور أراضيه ، كما حدث تماما فيما بعد للذهب والفضة القادمين من أمريكا ، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حيث كان يتم تفريغهما في ميناء قادس الاسباني ، كي يشحنا فيما بعد نحو مراكز التجارة ، والمصارف ، ومراكز الصناعات ، وهي المراكز المحرّكة لاقتصاد ذلك العصر .

لقد كان ذهب السودان يتجه اذن نحو المناطق الكبيرة للانتاج والتي تعمل لتجارة التصدير : الى مصر التي تنتج القمح وأوراق البردي والاقمشة ، والى بلاد ما بين النهرين المنتجة لقصب السكر والمنسوجات . كما كان يتوجه نحو مناطق تجارة العبور حيث تصل البضائع القادمة من خارج العالم الاسلامي ، مثل اسبانيا التي كانت تستقبل أفواج الرقيق ، والمنتجات الاخرى المرغوبة في الغرب النصراني ، ونحو أسواق مصر والشام وبلاد ما بين النهرين التي تستقبل منتجات آسيا ولاسيما التوابل ، ونحو المراكز التجارية في آسيا الوسطى كسمرقند وبخارى وخوارزم التي تسيطر على الطرق المتجهة نحو منطقة الانهار الروسية ، وبلاد الاتراك والصين والهند . وأخيراً كان الذهب السوداني يتجه نحو العواصم السياسية ، أي نحو بلاط الملوك . مثال ذلك نحو عاصمة

الطولونيين في مصر الذين كانوا يدفعون في القرن التاسع سنويا مبلغ ٣٠٠٠٠٠ دينار لخليفة بغداد العباسي .

ولكن هذا الذهب لم يكن يتوزع بشكل منسجم . فلم يكن يصل منه سوى مقادير زهيدة الى المناطق الواقعة في معزل عن طرق المبادلات التجارية، ولكنه كان يتكدس في المدن الكبرى التجارية والمصرفية ، وكذلك في أسواق المدن وفي قصور الملوك . وهذه الحواضر الكبرى هي التي كانت تضرب النقود الذهبية والفضية ، والنحاسية بشكل ثانوي ، والتي كانت تقوم بتوزيعها فيما بعد . اذن كان هناك نوع من تنشيط للاقتصاد الاسلامي بواسطة ذهب السودان وذلك عن طريق هذه الشبكة من التيارات النقدية . ولم يكن المغرب يلعب أكثر من دور موزع نحو المراكز الاقتصادية الكبرى .

* * *

ولتقدير مدى تداول العملة الذهبية في العالم الاسلامي لدينا خمسة مصادر للمعلومات هي : أولا ، بالطبع ، العملات نفسها والمحفوظة في المتاحف مثل متحف الارميتاج في موسكو ، ومتحف دمشق ، والقاهرة ، وبغداد والمتحف البريطاني ، وفي ديوان النقود في المكتبة الوطنية في باريس ، الخ .. وتسمح لنا هذه النقود بالتعرف على مكان ضربها وبتثبيت دور سكّ العملة على الخارطة. وأول هذه الدور هي دمشق في عهد الامويين ، ثم في بغداد اعتبارا من سنة ٧٦٣ م . واتجهت دور ضرب النقود نحو اللامركزية في عهد المأمون الذي حكم بين ٨١٣ و ٨٣٣ . وابتداء من عام ٨٢٧ أصبحت العملة الذهبية تصنع في كل المدن الرئيسية ، الغربية منها والشرقية . وهكذا وبعد توحيد طرائق سك النقود وتوحيد مخطط الضرب تأكد اندماج المجالين : مجال الوحدة الذهبية ، أي أهل الذهب ، ومجال الوحدة الفضية ، أي أهل الورْق .

وهناك مصدر آخر للمعلومات : وهو تقدير الضرائب التي كانت تسدّد في كل أنحاء الخلافة العباسية بالذهب . وكانت ميزانية خلافة بغداد تحسب حتى نهاية القرن التاسع بالدنانير بالنسبة للمغرب وبالدراهم بالنسبة للمشرق .

ولكن ابتداء من القرن العاشر أصبحت تقدر عموماً بالدنانير مما يشهد على التوحيد النقدي على الصعيد الاداري (شكل ٩) .

وتقدم اسبانيا الاسلامية مثالاً آخر عن هذا الاتساع في التعامل بالذهب . فأمويو قرطبة الذين ظلوا حتى القرن التاسع لا يسكون سوى العملة الفضية أخذوا يضربون النقود الذهبية ، وهي رمز القوة ، التي أكدها في القرن العاشر اتخاذ لقب الخلافة أو « أمير المؤمنين » . وفضلا عن ذلك شهدت اسبانيا تداولا كثيفا في النقود الذهبية الواردة من الشرق ، وكان قسم من هذا الذهب يصدر نحو الغرب الهمجي لشراء الرقيق الذي كان يعاد تصديره نحو المشرق ، وكانت هذه التجارة تحقق لهذا القطر دور بلد تجارة العبور ، أي الترانزيت . وأخيرا تعرفت اسبانيا على ذهب السودان وكانت تتدخل ، فيما وراء البحر ، أي في شؤون البر الافريقي ، لكي تحقق لنفسها الاشراف على النهاية الشمالية لطرق التجارة العابرة للصحراء الكبرى . وكان كل هذا الذهب المسكوك في قرطبة أو في مدينة الزهراء كان يتسلل جزئياً لمجال الفضة القديم ، أي الى الغرب الهمجي[1] .

ومثل آخر عن امتداد رقعة التعامل بالذهب : وهو ازدياد سك هذا المعدن على أيدي الفاطميين . فبعد أن استغنى هؤلاء من ذهب السودان في القرن العاشر ، ذلك الذهب الذي استحوذوا على احتكاره ، فأصبحوا بفضله يمتلكون ميزانية حربية سمحت لهم بالفوز في حملتهم على مصر التي انحازت لقضيتهم بفعل سياسة الدينار النشيطة . وراح الفاطميون يكثفون سك العملة الذهبية مثلما جرى ضرب مقادير ضخمة من نقود الذهب في مناطق مملكتهم ابتداء من بلاد الشام حتى صقلية ، كما أوجدوا ، من ناحية أخرى ، ربع الدينار الذهبي ، الذي قلدهم فيه الطليان بالقطعة الذهبية المسماة « كواترينو » أي «الربعية» .

(١) نقصد بكلمة الغرب الهمجي التي هي تعريب كلمة barbare اقطار اوروبا الغربية التي كانت تعتبر في ذلك العصر متخلفة جدا بالنسبة للعالم الاسلامي وتدخل في عداد بلاد البرابرة : وليس البربر المغاربة .

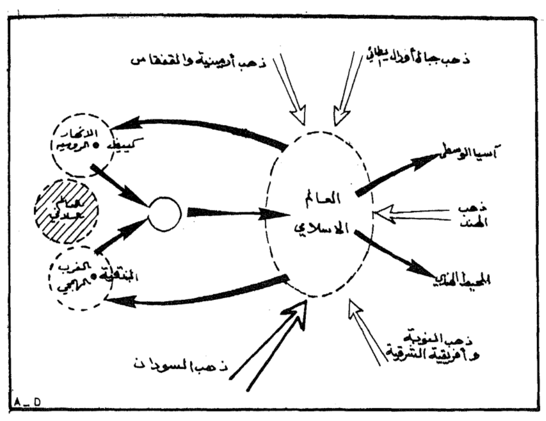
شكل ٩ ـ الذهب السوداني

وأخيراً نستدل على حجم تداول الذهب من الارقام التي يعطينا اياها المؤرخون والجغرافيون العرب • وتكفي بعض الارقام للحصول على لوحة عن أبعاد هذا التداول • فقد وجد في خزينة الخليفة الاموي عبد الرحمن الثالث في قرطبة ، على أثر وفاته في عام ٩٦١ م ، مبلغ خمسة ملايين دينار ، أو مايعادل ٢٥٠ قنطاراً من الذهب المسكوك[١] • وفي عهد الخليفة الحكم الثاني، الذي حكم بين ٩٦١ و ٩٧٦ كان مجموع الضرائب الواردة لخزانة المال ترتفع الى ٤٠ مليون دينار • وعلى أثر موت الوزير الشهير الفضل (القرن الحادي عشر) في مصر عثر في خزاانته على ستة ملايين دينار تزن ٣٠٠ قنطارا من القطع الذهبية[٢] • وفي عهد الخليفة هارون الرشيد ، في بغداد ، والذي حكم بين ٧٨٦ و ٨٠٩ كان يدخل بيت المال سنويا مقدار ٧٥٠٠ قنطار من الذهب المسكوك ، أو مليار ونصف من الدنانير • أما الخليفة الواثق ، الذي حكم بين ٨٤٢ و ٨٤٧ فقد منح تجار الكرخ وهو شطر من بغداد نكب بحريق ، مبلغ ٥٠٠٠٠٠ دينار بلغ وزنها ٥٢ قنطارا من الذهب •

وتشهد هذه الارقام المنتقاة من بين كثير من أمثالها ، من كتابات مؤلفين كان لهم اطلاق على وثائق المحفوظات في ذلك العصر، تشهد على مدى اتساع حركة النقد • واذا كان من الممكن الشك في أنها ليست صحيحة بصورة مطلقة ودقيقة ــ ذلك لان الاحصائيات الحديثة تكون أحيانا مدعاة للارتياب ــ فإنها تعطي على الاقل فكرة نسبية وتبرر الفكرة التي نحصل عليها عن النمو العظيم في العملة الذهبية المتداولة من خلال كل العالم الاسلامي • ويكون هذا الواقع أكثر جسامة اذا ما أخذنا بعين الاعتبار العلاقة بين حجم الذهب المتداول وبين عدد السكان ، لان هذا العدد كان حينذاك أقل بكثير مما هو عليه اليوم •

(١) او ٢٥٠٠٠ كيلو غرام او ٢٥ طنا من الذهب قيمتها بالاسعار الحالية ٦٢٥ مليون ريال سعودي أو حوالي ١٧٨ مليون دولار •

(٢) القنطار او الكنتال يساوي ١٠٠ كيلوغرام •



شكل ١٠ ـ مخطط التيارات النقدية بعد الفتح الاسلامي

والخلاصة : تتميز شخصية العالم الاسلامي في تاريخ البشرية النقدي بتدفق المعدن الثمين ، تدفق قمنا بدراسة مصادره وآليته • وقد استطاعت مراكز عمرانية ضخمة بفضل هذه الاداة المتفوقة في المبادلات ، وهي الذهب ، مراكز في أوج نموها ، أن تستدعي اليها كل المنتجات التي هي في حاجة اليها ، مهما بعدت مصادرها ، حاجة تشتد قوة نظراً لانها كانت مرتبطة بثراء وبظهور بعض الطبقات الاجتماعية • وهكذا تتراءى لنا تيارات نقدية جديدة في العالم الاسلامي وفي خارجه ، وذلك على طول الطرق التجارية الكبرى التي كانت تنطلق منه ، اذ لم يعد الامر كما كان قبل الفتح عبارة عن انتقال خطّي ينتاب الكتلة المعدنية الذهبية ، بل حسب خارطة جديدة ، وحسب دورة حقيقية •

الفصل السادس

النهضة العمرانية ونداء الاستهلاك[1]

منقحة

النسق العمراني قبل وبعد تشكل العالم الإسلامي

لقد كان العالم الاسلامي بين القرن الثامن والحادي عشر ميدانا لنهضة عمرانية خارقة . وتتميز هذه النهضة أولا بإنشاء المدن التي تحول بعضها بسرعة الى أكبر مدن العالم . فإذا أمكن القول أن سان باولو كانت « أسرع مدن العالم نمواً » ، إذ كانت تضم ٦٠٠٠٠ نسمة في ١٨٨٢ و مليونين في عام ١٩٥٠ ، فما القول ببغداد ، التي قفز عدد سكانها في فترة أقصر أي من ٧٦٢ الى ٨٠٠ م من بضع مئات من السكان ـ لأن موقعها لم يكن يحوي قبل الفتح سوى قصراً ساسانياً وبعض الاديرة النسطورية ـ الى حوالي المليونين ؟والى جانب هذه المدن الضخمة والتي احتفظ معظمها بدورها كمدن كبرى حتى العصر الحالي ، فإن مراكز قديمة ابتعثت من جديد ، والتي بلغ اتساعها وسكانها وإشعاعها أبعاداً لم تكن معهودة حتى ذلك العصر .

وهكذا نشأت شبكة حضرية واسعة ، كانت تشكل بسبب اتصالها من مدينة لمدينة أخرى ، الهيكل المادي للعالم الاسلامي ، هذا في الوقت نفسه الذي كانت فيه تؤلف دارة التيارات الحضارية الكبرى . وهذا الواقع، الذي اتخذ أبعاداً عظيمة لم يتعرض لتسليط الانوار عليه حتى الآن،كان يتجاوز من حيث القوة والاتساع حركة العمران التي شهدتها الامبراطورية الرومانيـة ، ويرقى الى

(١) M. Lombard, « L'évolution urbaine pendant le haut Moyen âge », Annales E. S. C., XII, 1957, pp. 7-28.

المستوى ذاته الذي كانت عليه حركة الانشاء العمراني في العصر الهللينيستي أو نفس الاندفاع في نمو المدن في أوروبا الغربية ، وذلك على الاقل في بداياتها .

وهنا أيضاً لانجد مندوحة مَن تحديد اتجاه التطور العمراني والتنويه به قبل وبعد تكوّن العالم الاسلامي . فقبل ذلك ، أي في النصف الاول من القرن السابع ، نقف ، كما كنا في معرض كلامنا عن العملات ، تجاه ثلاثة مجالات حيث يواكب نسق العمران ونشاطه تقريبا نفس النمو والتطور . فالغرب الهمجـي الذي كان يتصف كما رأينا بتداول نقدي معـدوم أو يكاد ، بسبب العزلة ، العمرانية . فلم تعد المدينة سوى قلعة Castrum ضـيقة ، مهيـأة للدفاع وتجفف وتفتت الشبكة التجارية ، وبسبب الاسترقاق الزراعي الذي حل مكان الاستعباد الحضري ، أقول كان الغرب المذكور يتعرض لطمس معالم الاشكال واللجوء . ذلك هو عصر انتصار الاطيان الكبرى والاقتصاد الريفي . وهكذا اجتاحت البربرية والاستفلاح ruralisation كل الغرب الاوروبي بصورة متفاوتة مثلما اجتاحت البداوة كل أفريقيا الشمالية .

وكانت الدورة cycle البيزنطية في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي متميزة بتداول نقدي تتزايد لزوجته بفعل انكماش المبادلات التي جعلت الدارة circuit التجارية تتقلص على شكل دورة قصيرة المدى ، تدور حول مدن ثلاث هي الاسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية ، مثلما تميزت بتناقص أعداد الرقيق ، وأخيرا بركود النشاط العمراني والحضري وبانحطاطه مما أدى لتشنج في الملكيات الزراعية الكبرى تدل عليه في مصر كتابات البردي ، وانتشر نمط الحياة الرعوية أكثر فأكثر في بلاد الشام وفي آسيا الوسطى . وتمركز النشاط في بعض المدن الكبرى ، وهي مدن تعود للعصـر الهللينيستي كالاسكندرية أو أنطاكية ، أو في المدينة التي أنشأها الامبراطور قسطنطين أي القسطنطينية والواقع كانت هذه المدن عبارة عن جزر عمرانية في محيط ريفي .

وشهدت الامبراطورية الساسانية التي اتصفت بتداول نقدي قائم على

الدرهم الفضي ، وعلى مدخرات متراكمة ، وبأيد عاملة مستعبدة وفيرة جدا ، وبتجارة منفتحة على نطاق واسع على آسيا الوسطى والمحيط الهندي ، أقول شهدت تقهقرا في سلطة ساداتها من الملاكين العقاريين ، أو الدهاقين ، الى جانب استمرار في نهضة مدنها التي نشأت أعداد كبيرة منها حينذاك • وتوحي أسماء بعض منها التي تنتهي بكلمة آباد على أمكنة مأهولة ومزدهرة •

وهكذا نجد أن النسق العمراني ، وكثافة الحركة العمرانية ، يتناقص من الشرق نحو الغرب حسب تناقص رؤوس الاموال على شكل ذهب • وتناقص الايدي العاملة على شكل أرقاء ، وتقلص العلاقات العامة على صورة تجارة • وسيؤدي تشكل العالم الاسلامي في القرن السابع وفي مطلع القرن الثامن الى نشوء مجال فسيح متفاغم ، هو سوق مشتركة شاسعة ، يمتد من آسيا الوسطى الى المحيط الهندي ، ومن السودان الى الغرب الهمجي ومنطقة الانهار الروسية• وهذا المجموع الذي عمل على تشابك ثلاثة مجالات سابقة ، هي الامبراطورية الساسانية وبلاد الشام ومصر البيزنطيتين ، وحوض البحر الابيض المتوسط الغربي المتقهقر حضارياً نحو الهمجية barbariseé ، راح يتميز بتدفق الذهب ، وبورود أعداد غفيرة من الرقيق ، من أتراك وأفارقة وصقالبة، وبقيام شبكة من طرق كبرى تجارية ، تمتد من الصين الى أسبانيا ، ومن أفريقيا السوداء الى آسيا الوسطى ، وبوجود بيئة جديدة توائم نهضةعمرانيةلانظيرلها• أما في المجال الساساني القديم ، أي في بلاد ما بين النهرين وايران ، فقد أصبحنا نشهد استمرار الحركة العمرانية ولكن مع اندفاع منقطع النظير ، والتي سبق أن ابتدأت في العصر السالف ، وتعتبر بغداد وسامراء أبرز مثالين عن ذلك • وفي المجال القديم البيزنطي ، أي في بلاد الشام ومصر ، حدث استئناف لنهضة عمرانية كانت راكدة في العصر السابق ، ونتج عن هذا ازدهار دمشق وفسطاط — القاهرة • وأخيرا نلاحظ في المجال القديم من الغرب الهمجي ، أي أفريقيا الشمالية واسبانيا ، ظهور أشكال من المدن الكبرى مثل القيروان وفاس وقرطبة

التي كانت نماذج للحركة العمرانية الكبرى التي كانت تنتشر من الشرق نحو الغـــرب •

الحركة العمرانية بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر

سنحاول الاشارة الى الحركة العمرانية الاجمالية التي كانت عليه في كل من هذه المجالات القديمة الثلاثة وهي : الشـرق الساساني ، وبلاد الشـام ومصر البيزنطيتين ، وفي الغرب الهمجي ، ثم سنأخذ مثالا مختاراً عن كل من هذه المجالات وهي : بغداد ، فسطاط ــ القاهرة وقرطبة •

المجال الساماني القديم :

ويضم بلاد ما بين النهرين وايران •

ان بلاد ما بين النهرين ، أو ميزوبوتاميا ، هي أرض حضارات قديمة عريقة جداً ، وهي « بقعة مدن » حيث كان تفاوت أوضاع المدن بين انحطاط وازدهار، في كل الازمنة ، على علاقة بمشاريع الري القائمة فوق الاراضي الاطمائية الغنية، أو السواد ، وبمشاريع استصلاح البطائح وتجفيفها مما كان يسمح بالتوسع في الزراعات الغذائية• هذه المزروعات كانت تساعد على تضخم محتوى المدن من السكان ، كالقمح والشعير والذرة ، والرز الذي انتقل منذ أمد طويل من دلتات الهند الى المناطق المستنقعية في حوض الفرات الادنى ، وقصب السكر ، الذي وصل في وقت أقرب ، أي حوالي أواخر العهد الساساني ، في القرن السادس ، قادما من الهند الى اقليم خوزستان ، أو بلاد سوزيان القديمة ، كي يبلغ منطقة نهر قارون ، حول مدينة تشتر ، ثم النخيل وأصله من منطقة الخليج العربي، والذي لم يكن ينمو في جوار بغداد إلا بعد أن تأقلم فيه على يد بستاني أصله من البصرة ، والبرتقال ، أو الاترج ، الذي انتقل من الهند الى البصرة ، والى عمان ، وزرع في بغداد فيما بعد • ونستدل على أهمية هذا الاقتصاد بما فيه

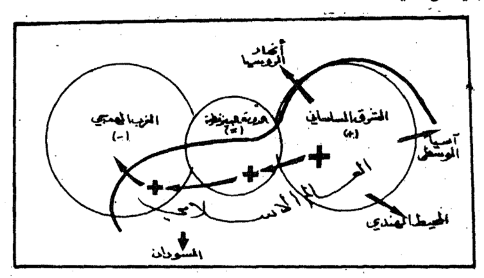
الكفاية من المصادر العربية التي تصف لنا تأسيس بغداد : اذ استُقدِم إليها حينذاك كل أرباب الاختصاص من تقنيين في الانشاءات المائية ، والبساتنة المختصين بأقلمة الانواع النباتية الجديدة •

واذا كانت هناك حاجة لتغذية الناس فمن الضروري تأمين كسوتهم أيضاً• فقد كانت المواد النسيجية مؤلفة من كتان السواد ، ومن القطن الذي وفد من الساحل الغربي لشبه جزيرة الهند ، وتأقلم في الجزيرة العليا وعلى الإخص في وادي الخابور • وكان القطن يزرع في العراق العجمي الى جانب قصب السكر وكانت مزارعها تتطلب الايدي العاملة ، مثل قوم الزنج ، وهمأرقاء سود جُلبوا من سواحل أفريقيا الشرقية • وهذا التشارك الثلاثي هو الذي تحقق فيما بعد في حوض البحر الابيض المتوسط وفي جزر أمريكا الوسطى على أيدي الاسبان•

وأخيرا كان من الضروري تأمين سكنى الناس • لقد كانت المادة الرئيسية في البناء ، هي اللبْن ، وهو صلصال الاراضي الاطمائية ، أي اللحقية،والمجفف تحت الشمس ، أو المشوي في النار ، والمسمى الطابوق • وهكذا كان لبغداد ثلاثة أسوار من اللبْن ، أو الطوب النيىء ، باستثناء الاساسات والمجاري التي تجر مياه القنوات والتي كانت مبنية طبعا من الطوب المشوي • وكان يصنع من الفخار المشوي ، بعد طلائه بالاصبغة أو بالمينا ، تلك الخزفيات والقيشاني ، وكسوة الجدران ذات الالوان الفاقعة والتي تعتبر من روائع فن بلاد مابين النهرين • ولكن الفخار مادة سريعة العطب اذ أصبحت كل العواصم القديمة عبارة عن تلول وأنقاض • أما الخشب فهو نادر حتى أن سفائن دجلة والفرات هي عبارة عن قفف مدورة مصنوعة من حصر مصفورة ومطلية بالقار المجلوب من ضواحي كركوك • ولهذا كان من الضروري استيراد الاخشاب من الخارج • لهذا كان يُستورد الخشب من بلاد الشام ومن أرمينية عن طريق التطويف وعلى شكل أرماث كانت تفكك عند نقطة وصولها في السافلة ، وحتى أيامنا هذه تهبط أرماث الخشب أو كلك من أرمينية نحو العراق الادنى•

وكانت أنواع أخرى من الخشب تأتي من الهند ، وعلى الاخص خشب الساج أو خشب التك ، الذي كان يجلب من ساحل ملبار نحو كل مدن الخليج العربي والبحر الاحمر •

والسؤال الآن ترى كيف سيتم هذا الحدث العربي في بلاد ما بين النهرين، تلك البلاد التي يرتكز النشاط العمراني فيها على تراث متراكم من التقاليد ، وعلى نمط حياة معيّن ، وعلى تقنية وعلى ناحية جمالية esthétique ،انبثقت جميعا من المدينة ؟



شكل ١١ ـ اتجاه التطور العمراني قبل وبعد انشاء العالم الاسلامي

لقد قدم العرب من الجنوب الغربي ، من بلاد تتقدم فيها الصحراء حتى الفرات • وقد بنوا أوائل مدنهم على ضفة النهر الغربية ، أو الضفة « العربية »• وقد استندوا على الصحراء عند منطلق طرق الحج الى مكة والمدينة ، على حدود بلاد المَرعى ، أي السهب أو البادية ، مع بلاد الزراعة الممثلة بوادي النهرومياهه الوفيرة وقنواته • وقد كانت هذه المدن في الاصل عبارة عن معسكرات محصنة، تحولت بعد قليل الى مراكز استقطاب والى مدن كبرى كثيفة السكان • وقد قامت الكوفة قرب موقع الحيرة التي كانت عاصمة اللخميين القديمة ، والتي لاتبعد كثيراً عن القادسية ، ساحة المعركة الحاسمة مع الجيوش الفارسية • أما البصرة فقد أنشئت عند نافذة بلاد ما بين النهرين على البحر ، فوق عتبة من

الارض اليابسة ، التي تفصل منطقة البطائح عن ساحل الخليج العربي • وقد قامت البصرة والكوفة فوق موقعين شغلتهما في الماضي قرى أو أديرة أو معابد للنار ولكنها لم يسبق لهما أي دور سياسي أو اقتصادي • وقد تأسستا فور وصول الجيوش العربية الى العراق في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، أي بين ٦٣٧ و ٦٣٩ ، وسرعان ما شهدتا نمواً سريعاً قام على عاتق أخلاط من الناس ، من عرب ومن معتنقي الاسلام الجدد،أي الموالي، ومن أشخاص من أهل الكتاب متمتعين بالحماية ، أو الذميين • وبعد ثلاثين عاما فقط أضبحت الكوفة تضم أكثر من ١٠٠٠٠٠ نسمة ، والبصرة أكثر من ٢٠٠٠٠٠ نسمة ، وبكلمة وجيزة كانت عبارة عن اثنتين من « مدن الفطريات »[1] •

وقد بلغت البصرة عصرها الذهبي في أيام العباسيين ، اذ أصبحت المستودع الكبير لتجارة المحيط الهندي ، وميناء بغداد ، وكانت تستخدم حينذاك العديد من القنوات المائية التي تربط مختلف ضواحيها بشط العرب • وكان يقع الى جوار الباب الغربي المربد ، وهو محطة القوافل الذاهبة نحو البادية • وكانت الارصفة الواقعة على شط العرب تؤلف حي الاعمال ، بأسواقه ، ومع حياته الثقافية ، لوجود الجامع الكبير ومكتبات الوراقين • وبين البصرة والكوفة ، أي في وسط الطريق ، رأت مدينة أخرى النور لاول مرة ، وذلك حوالي العام ٦٩٥ م وهي واسط ، التي أسسها والٍ كان يهتم بالاشراف على مدينتي البصرة والكوفة بصورة أوثق ، فكانت تشكل مع المدينتين المذكورتين الثلاثي المؤلف من المؤسسات العمرانية الكبرى في النصف الثاني من القرن السابع •

وقد عمدت الاسرة الحاكمة الجديدة ، وهم بنو العباس ، وهي رأس حركة نشأت في خراسان ، حوالي العام ٧٥٠ ، التي هي مركز تقاليد ايرانية ،عمدت الى التخلي عن دمشق الشديدة التعاطف مع الامويين الذين فقدوا سلطتهم ،

---

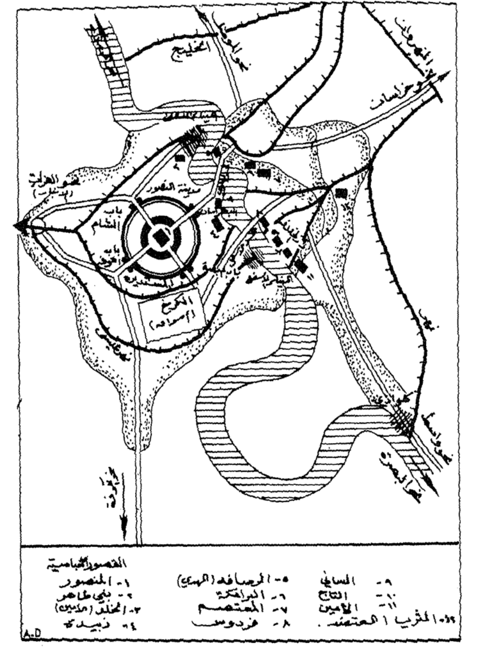
(١) عبارة مأخوذة عن الانكليزية mushrooms - towns او من الفرنسية villes - champignons اي مدن تنمو بسرعة مذهلة وخاطفة كنبات الفطر •

وبحثت عن عاصمة واقعة الى الشرق أكثر ، فاختارت عاصمتها في العراق ، البلد الغني بموارده الطبيعية وبتقاليده الحضرية ، وهو القطر الانتقالي بين العالم السامي والعالم الايراني ، وهكذا عادت بلاد ما بين النهرين لتلعب دور مركز السياسة والحضارة •

وقد أقام أول خليفة عباسي ، أبو العباس السفاح ، على ضفة الفرات ، ولكن ليس في الكوفة ولا في البصرة ، وهما مدينتان كبيرتان مضطربتان ، متعاطفتان مع العلويين ، بل في بلدة الهاشمية ، قرب الانبار ، ذات الاسم المشتق من عبارة فارسية تعني المستودع أو النبر ، والتي اشتقت بدورها من الكلمة الاغريقية آمبوريون emporion ، والتي رأى فيها العرب صيغة جمع لكلمة عربية هي نبر التي لها المعنى نفسه ، والتي تقع عند اشتقاق قناة الارتباط الكبرى التي تصل الفرات بنهر دجلة ، والمسماة نهر عيسى • ولكن الخليفة العباسي الثاني المنصور اختار عاصمته عند النهاية الاخرى لنهر عيسى ، عند اقترانه مع الدجلة ، وهكذا ولدت بغداد • وتعود أهمية نهر عيسى الى دوره كصلة وصل بين التيارات التجارية الكبرى بين وادي الفرات الاعلى وبين الدجلة الادنى • والواقع يكون نهر الفرات فيما وراء الانبار ، أي نحو السافلة ، مستنقعياً بصورة متزايدة • كما أن البطائح ، التي ترقد فيها مياه الفرات ، تعرقل الملاحة ، اذن يكون طريق الدجلة الادنى أفضل مسلك للمواصلات[1] •

وتقع بغداد عند تقاطع ثلاث طرق نهرية وطريقين بريين • فالطرق النهرية تقود شمالاً نحو حوض الدجلة الاعلى ، الى الموصل وأرمينية ، ونحو الشمال الغربي ، بواسطة نهر عيسى ونهر الفرات الى بلاد الشام ، ونحو الجنوب الشرقي بواسطة الدجلة وشط العرب الى الخليج العربي والى المحيط الهندي• أما الطرق البرية فتؤدي باتجاه الشمال الشرقي الى ايران وآسيا الوسطى

(١) انظر الخارطة رقم ٢ ص ٤١.



شكل ١٢ ـ مدينة بغداد

والصين ، ونحو الجنوب الشرقي ، الى جزيرة العرب ، والى المدينتين المقدستين في الحجاز أي مكة والمدينة .

وكما هو الحال بالنسبة لموقع البصرة فان موقع بغداد كان مأهولا قبل الاسلام . فقد كان هناك قصر ساساني ، مع جسر من المراكب على نهر الدجلة ، كما كانت هناك قرية تقوم الى جانب أديرة نصرانية . ويشير اشتقاق اسم المدينة الى أصولها .فمن المرجح أن اسم بغداد قد نتج عن عبارة ايرانية هي «بغ‍ـداده» أي « هبة الله » ، وأن الحي التجاري فيها الكرخ ، مأخوذ من كلمة أرمنية ، كركا ،أي سوق .

ولم يكن لبغداد ما قبل الاسلام سوى أهمية محلية ، شأن الكثير من هذه المراكز المأهولة . وقد كان مؤسسها الحقيقي هو المنصور الذي دعاها مدينة السلام . وتقع بداية تأسيسها في عام ١٤٥ هـ = ٧٦٢ م . وقد استدعى الصناع إليها من كل حدب وصوب ، حتى لقد بلغ عدد العاملين فيها ١٠٠ ٠٠٠ في وقت واحد ، وكذلك كل المختصين بشؤون العمران ، وكان كل هؤلاء الرجال في آن واحد من البنّائين ، وهم أوائل سكان المدينة[١] . وهكذا قامت في خلال أربعة أعوام مدينة مستديرة متحلّقة حول القصر والجامع الكبير ، على شكل زمرة من الاسوار المتحدة المركز قامت بينها بالتعاقب بيوت الوجهاء ومساكن حاشية الخليفة . وكان يطيف بها سور مجهز بثلاثمائة برج . وكانت هناك أربعة شوارع تقطع المدينة من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي ، ومن الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي . وكان يتم الوصول للمدينة بواسطة أربعة أبواب ذات مداخل متعرجة . وكان اختيار مخططها المستدير من وحي شرقي يذكرنا بالشهرستان ذات الابواب الاربعة ، المختلف عن المخطط الهللينيستي المستطيل، مع Cardo و documanus أو الشارع المستقيم . وعلينا أن نفكر أيضا بالتحصينات المستديرة في مدن آسيا الوسطى وبشيوع المخطط المستدير لدى

(١) اليعقوبي . كتاب البلدان . ترجمة ج. فييت . البلدان ـ القاهرة ١٩٣٧ ص ١١ .

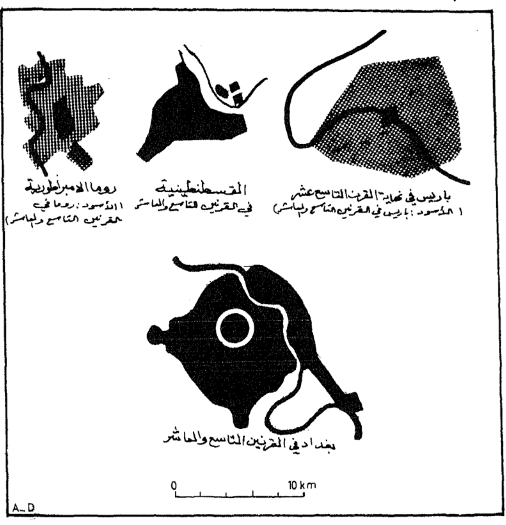
البارثيين Parthes [1] . وفي مقابل مدينة سلوقية ، وهي مدينة هللينيستية ذات مخطط مستقيم،كانت تقوم طيسفون التي خططت على شكل معسكر مستدير .

وسرعان ما وجدت مدينة المنصور هذه ، حيث كانت الحوانيت قائمة تحت قناطر،على طول الطرق الاربعة المتعامدة،وجدت نفسها متناهية في الصغر والضيق . فقد أدى ضيق المكان الى اندفاع المدينة في اتجاهين : نحو الجنوب حيث يقوم ربض الكرخ ، وهو حي التجارة والصناعات الحرفية ، ونحو الشرق ، الى ماوراء النهر الذي يجتازه جسر من المراكب ، حيث كان يقوم الحي السكني ، بعيدا عن الجمهور الصاخب ، وحيث كانت توجد في المقام الاول دار الخلافة . وقد ابتدأت هذه الحركة في اتساع المدينة على الضفة الشرقية في عام ٧٦٨ م . وبعد ثلاثين أو أربعين عاماً من ذلك الوقت ، وبالتحديد في عهد الخليفة هرون الرشيد وولده المأمون ، أي في مطلع القرن التاسع ، أصبحت بغداد كثيفة السكان ، ممتدة على مسافة عشرة كيلو مترات في تسعة كيلو مترات تقريبا ، أي رقعة مدينة باريس الحالية مع ضواحيها الخارجية،وغدت آنذاك أكبر مدينة في العالم .

وقد عمد الخليفة المعتصم ، الذي حكم بين ٨٣٣ و ٨٤٢ الى هجر بغداد في عام ٨٣٦ كي يؤسس على مسافة تعادل مسيرة ثلاثة أيام الى الشمال،فوق موقع سامراء مقراً جديداً لقصوره . ولم يكن الاعتزال في « مدينة ــ قصر » بعيداً عن أن يذكرنا برغبة ملوك فرنسا في الابتعاد عن باريس الى بلدة فرساي . ويفسر هذا التصرف ، في هذا المجال ، بالرغبة في الابتعاد عن الاضطرابات الناجمة عن شغب الحامية التركية ، والتي كانت تثير الشحناء مع سكان مدينة كبيرة كانت دائما في حالة هياج ، ولاسيما في مواقع الاسواق . وهكذا ظلت سامراء مقر الحكومة خلال مدة خمسة وخمسين عاما ، بين ١٣٦ و ٨٩٢ : وقامت حول القصر مدينة كثيرة السكان . وفي سنة ٨٩٢ عاد الخليفة المعتمد الى بغداد

(١) شعب كان يقيم في منطقة تقع في جنوب شرق وشرق بحر الخزر وقد ثار في القرن الثالث قبل الميلاد على السلوقيين واستمرت مملكتهم حتى عام ٢٢٤ م ، ويعتقد انهم اصل الاكراد ، وكانوا فرسانا محاربين من الطراز الاول .

هرباً من المرتزقة الاتراك ، مما أدى الى توسع أحياء المدينة على الضفة الشرقية. وفي أواخر القرن العاشر أخذت بغداد بالانحطاط ، وثبت ذلك على الخصوص في القرن الحادي عشر في عهد الاتراك السلاجقة ، وبلغت حضيضها على أثر سقوطها بيد هولاكو في عام ١٢٥٨ م في نفس العام الذي سقطت فيه قرطبة بيد الاسبان .



شكل ١٣ ـ المساحات المقارنة لكل من روما والقسطنطينية وباريس وبغداد خلال القرنين التاسع والعاشر

غير أن الحركة العمرانية لم تنحصر أبداً ، في مجمل بلاد مابين النهرين ، بغداد ـ سامراء ، وهما أكبر المؤسسات العمرانية الاسلامية ، بل ستمتد أيضا

الى مدن سبق أن وجدت في العصر الساساني والتي ستشهد نمواً طبغرافياً واقتصادياً وبشرياً • ففي خوزستان ، وهي بلاد سوزيان القديمة ، والتي هي عبارة عن بلاد قديمة معروفة بازدهار الري بواسطة سدود كبيرة سمحت بزراعة قصب السكر والقطن ، توسعت مدن أخرى مثل تشتر وسوز والاهواز • أما في أعالي بلاد مابين النهرين ، وهي بلاد زراعة القطن في حوض نهر الخابور ، فقد نمت الموصل الشهيرة بمنسوجاتها ، ولاسيما الموصلين ، وبأوانيها النحاسية، المصنوعة من فلزات مناجم آرغانة ، على وادي الدجلة الاعلى •

هذا وكان المجال الساساني يغطي أيضاً ، فيما عدا بلاد ما بين النهرين ، بلاد ايران : وهذا المجال هو عبارة عن عالم يقع عند تماس عالمين مختلفين : فهو يلامس بلاد طوران،وهي بلاد بدو السهوب،وهم أتراك أوراليون ــ آلتائيون، وهذا العالم يجهل المدن اللهم إلا مدن الآخرين ، والتي يحلم بنهبها وسكناها كمتغلّب قاهر • فقد كان للتركي البدوي موقف يماثل موقف الاعراب البدو تجاه مدن بلاد الشام ومابين النهرين • وقد سبقت حركة تسلل الاتراك هنا مرحلة الاجتياح التي ابتدأت في القرن الحادي عشر • وفضلا عن ذلك كانت ايران على تماس ، من الشرق ، مع سلسلة الواحات ،وهيذات حضارة صينية، ذاك هو « طريق الحرير » الذي يؤدي الى أقوام من المستقرين الفلاحين • وأخيراً كانت ايران تتصل من الجنوب الشرقي ، بواسطة ممرات بامير وسلسلة هندكوش ، بالهند ، وهي ذات حضارة أخرى من المستقرين المزارعين •

أما في ايران فلا تنطبق خريطة المدن على مرتسم الشبكة النهرية كما هو الحال في بلاد مابين النهرين ، بل استناداً الى طرق القوافل التي تربط هذا القطر بآسيا الوسطى عبر هذا البلد • وقد اتخذ الفتح العربي هنا ، والذي حدث بين عامي ٦٤٢ و ٦٥٢ م ، صفات مختلفة عن تلك التي عرفناها في المناطق الاخرى • ففي حين كان السكان الساميون أو المتأثرون بالسامية في بلاد ما بين النهرين يتكلمون الآرامية وحيث وقع انصهار الفاتحين الجدد بسرعة ، نجد في ايران ،

على العكس ، مقاومة الاساس الفارسي القديم الى جانب الديانة الوطنية ، وهي عبادة النار،أي الزرادشتية،والتي كانت منفتحة على مؤثرات بوذية ومانوية[1]. وقد رأينا أن البرامكة ، وهم وزراء أوائل الخلفاء العباسيين ، كانوا أمراء مدينة بلخ Bactres القديمة ، وكانوا سدنة الدين البوذي الكبير في مدينة ناوباهار Nawbahar أو الدير الجديد ، من السنسكريتية فيهارا Vihara ومعناها الدير ، وحيث كانوا يشغلون وظيفة بارماكا Parmaka أي الشمامسة . وهذا مايسمح لنا بفهم السبب الذي حدا ببلاد فارس لأن تعتنق الاسلام بشكل فريد ، وهو المذهب الشيعي . واذا ما ظهر كتاب كبار بالعربية من أصل فارسي ، فإن هذه الظاهرة لم تحل دون استمرار بقاء اللغة الفارسية ، ومن ثم نهضتها ابتداء من القرنين الحادي عشر والثاني عشر .

وقد أقام الفاتحون العرب في البداية ضمن أحياء جديدة ، الى جانب المدينة القديمة . وهكذا كان يجاور المدينة الفارسية القديمة ، أو الشهرستان ، ربض أو « بيرون بالفارسية » يضم القلعة والجامع الكبير والسوق ، أي أصبحنا نشهد ظهور مدن مزدوجة ، أو توأمة المدن مثل مرو ، وبلخ التي ظهرت الى جانبها مدينة جديدة حقيقية ، هي باروكان ، على مسافة بضعة كيلومترات من بلخ ، وكذلك الحال في بخارى وسمرقند . وبعد فترة وجيزة اندمجت هذه المدن المزدوجة ، وهذا في العصر العباسي ، وأصبحت الشهرستان مركز السلطة مع الجامع الكبير والسوق طبعا ، أي عودة تالية نحو النواة الحضرية الاولى.

وقد استدعى وجود سكان حضريين جدد نمواً موازياً ومكافئاً في الري ، فتوسعت شبكة القنوات الباطنية[2] ، كما اقتضت ضرورة الدفاع ضد هجمات

---

(١) ديانة تنسب الى مانس المولود في القرن الثالث الميلادي ، والذي حاول دمج النصرانية مع الوثنية الشرقية ولاسيما مع البوذية .

(٢) وهي القنوات التي انتشرت من ايران غربا فيما بعد لتشمل معظم ارجاء الوطن لعربي ، وتسمى كيريز في ايران وكهريز في تركيا ، والقنوات الرومانية في سورية : والسرابات في منطقة منبج ، والافلاج في شرق جزيرة العرب ، والفجارات في الصحراء الكبرى ، والخطارات في المملكة المغربية ، ويوجد منها في منطقة الخرج وفي منطقة الاسياح في نجد وقد تخربت واهملت بعد استعمال المضخات الآلية .

البدو الاتراك وجود نقاط عسكرية ، أو الرباطات ، وأسوار كبيرة دائروية تحيط بالمدن الهامة ، وتضم ضواحيها المزروعة وقرى الفلاحين . وهكذا نشأت أسوار تمتد حوالي مائة كيلو متر حول بخارى وسمرقند وبلخ ، أسوار تذكرنا بالسور العظيم الذي شيدته الصين لحماية نفسها من هؤلاء الطورانيين أنفسهم .

وقد ارتبط التوسع العمراني الكبير في ايران ، شأنه في الاصقاع الاسلامية الاخرى ، بنمو التجارة في العصر الاسلامي ، تجارة تتعاطاها طبقة من كبار التجار الذين أثروا من تجارة القوافل . لهذا كانت المدن المزدهرة على الخصوص هي المدن الواقعة عند عقد الطرق ، وتأتي سمرقند في الطليعة ، وهي التي كانت تشرف على تلاقي الطرق التجارية القادمة من الهند ومن بلاد فارس . ويقدر بارتولد[1] أن عدد سكان سمرقند ارتفع في عصر السامانيين الى قرابة ٥٠٠٠٠٠ نسمة . وكانت المدينة تتخذ في ذلك العصر مشهداً جسيماً ، بأسوارها الاربعة، والتي كانت تضم بالتعاقب كل النطاق المروي في الواحة ، وهو السور الكبير، ثم الارباض والمدينة ، وحولها سور كبير ذو أربعة أبواب ، والمدينة الاصلية المسماة شهرستان مع أربعة أبواب أيضا ، وأخيراً القلعة في الوسط ، وكان لها مخطط شعاعي يذكرنا بمخطط بغداد . وكانت تحوي قناة كبيرة تتشعب الى مالانهاية لتزويد المدينة بالمياه ، وكانت طرقها مرصوفة بالحجارة ، ومزدانة بموارد وبأحواض من نحاس تشهد على قرب المناجم ، وعلى أهمية الصناعة الحرفية لهذا المعدن . أما الحدائق العامة فكانت تحوي ، كما يذكر لنا الجغرافي ابن حوقل ، أشجار سرو مشذبة لتمثل أكثر المشاهد غرابة ، كالخيول والثيران، والابل والحيوانات الوحشية ، متقابلة ، أو كأنها تخوض معارك ، حسب أشكال تركيبية توحي بفن السهوب .

---

(١) Turkestan down to the Mongol invation. 2e éd. Londres 1928 (Gibb Memoria Series. New Ser. V), p. 98.

المجال البيزنطي القديم :

ويضم بلاد الشام ومصر •

ولنتعرض لبلاد الشام حيث يمكن تصنيف المدن هنا ضمن ثلاث مجموعات:

أولا ـ مدن الداخل التي كانت بحالة انحطاط في العصر البيزنطي والتي راحت تشهد في العصر الاسلامي نهضة قائمة على دورها كمفترق طرق،ونقطة تماس مع بلاد مابين النهرين ، ثم الموانىء بعدئذ ، والتي ظلت تمارس نشاطها في العصر البيزنطي ، ولكن نشاطها تضاعف مرات عديدة في ظل الحكم الاسلامي، وأخيرا مدن الثغور الكيليكية التي تهيمن على ممرات جبال طوروس ، والتي دخلت عصر الاسلام بعد تثبيت الحدود ، أما المدن التي تخربت بفعل الهجمات البيزنطية المعاكسة ، فقد أعاد خلفاء بني العباس بناءها ، في حين نشأت حصون جـديدة •

ونأخذ دمشق كمثال عن مدن الداخل ، تلك المدينة الواحة القائمة على نهر بردى الذي ينحدر من أعضاد جبال لبنان الشرقية • وتلعب هذه المدينـة دور سوق بين سكان الغوطة الحضر وبين بدو سهب بادية الشام ، وهى مدينة آرامية قديمة ، تتوأمت مع جالية اغريقية في العصر الهللينيستي ، فكانت تزود الجيوش التي تحرس الحدود الرومانية limes بالقمح • وبعدئذ تعرضت لانحطاط يشهد عليه استفحال البداوة في ضواحيها في العصر البيزنطي • وقد ابنعثت دمشق من جديد بعد أن جعل منها الخلفاء الامويون عاصمتهم ، وكانت وظيفتها مثل الكوفة ، وهي السيطرة على مناطق السكان المستقرين دون أن تقطع علاقاتها مع صحراء جزيرة العرب ، كما كان هناك اهتمام مزدوج أيضاً ، هو التمتع برفاه حياة المدينة الى جانب مسرات حياة البادية وممارسة الصـيد دونما عوائق ، ولهذا قامت عدة قصور لأمراء بني أمية في البادية ، ومن أهمها قصر الحير الشرقي والغربي وقصر الحلابات الخ •

وقد أنشىء الجامع الكبير وقصر الخليفة « الخضراء » في قلب المدينة القديمة المحصوران نوعاً ما ضمن الارباض المتعددة والكثيرة النشاط • وقد أنشأ الخلفاء فروعاً عديدة لنهر بردى ، مثل نهر يزيد ، وأعادوا توزيع المياه في سائر أنحاء الغوطة ، وهي سياسة نجم عنها ازدياد في رقعة المساحات المزروعة ، وبظهور قرى جديدة ضمن بساتين الخضار الناشئة • وفي بداية القرن الثامن ، أضاف الخليفة الوليد انشاءات ضخمة على الجامع الكبير ، مما تطلب استدعاء أيد عاملة من كل حدب وصوب تقريباً بالاضافة الى الاختصاصيين بفن الفسيفساء من أبناء البلاد ومن بيزنطة • وينطبق عصر دمشق الذهبي على وظيفتها كعاصمة للامويين • ولكن بعد أن سقطت عام ٧٥٠ بأيدي العباسيين الذين قوضوا أسوارها القديمة ونبشوا أضرحة الامويين ، عادت لوضعها السابق كمدينة اقليمية • ومع هذا ظلت دائماً مدينة كثيفة السكان،ومركز انتاج زراعي وصناعي وحرفي ضخم ، تشتهر بانتاج الخوخ والاعناب ولاسيما المشمش الدمشقي الذي ظلت مشهورة به وكانت مربياتها تصدر لأقاصي البلاد ، تماما مثل المصنوعات الفولاذية والادوات والاواني النحاسية المرصعة حسب الطريقة الدمشقية damasquinés أو الاقمشة الشامية damassées المصنوعة من القطن والحرير •

والى جانب دمشق يجب أن نذكر مدينة القدس ، وهي مركز ديني كبير كانت تعيش قبل كل شيء من استغلال « الحج » إذ كان يقصدها المسلمون والنصارى واليهود ، ومدينة حمص وحماه ، وهما من أهم مدن وادي نهر العاصي ، ولاسيما انطاكية وحلب •

أما الموانيء فكانت أهمها السويدية ، ميناء أنطاكية ، واللاذقية ، بالاضافة الى الموانيء الفينيقية القديمة مثل طرابلس وجبيل Byblos وصيدا Sidon وصور Tyr وعكا Acre • وقد شهدت كل هذه الموانيء انتعاشاً وازدهاراً في العصر الاسلامي ، فشيدت فيها أرصفة جديدة ، مثلما تم بناء مكاسر جديدة،

بفضل تطبيق تقنيات البناء التحتمائي الجديدة . ويشهد لنا على ذلك وصف الجغرافي المسعودي في مطلع القرن التاسع في معرض كلامه عن ميناء عكا .

أما مدن الحدود الكيليكية فقد اشتهرت باسم « الثغور » أو حصون الحدود ، لأن مراقبة ممرات طوروس التي تتطلب حملات سنوية « الصوائف » ووجود ورشات دائمة للبناء ، يؤلف مفتاح التاريخ الاسلامي لمدن الحصون هذه ، والتي تتهدم مرة كي يعاد بناؤها وترميمها كرة أخرى ، وتخلو من سكانها أو يعاد إعمارها بالاهالي الجدد . وهي مراكز استهلاكية كبيرة لان السوق العسكري يؤدي لاستدعاء الكثير من الناس ومن الجنود ، والغذاء ، والالبسة، والاسلحة ، ومواد البناء.والطابع الثاني في هذه المدن هو كثرة اختلاط القوميات فيها ، فنصادف فيها الزنوج والصقالبة والايرانيين والارمن ، فضلا عن أخلاط أخرى من الناس . وكانت الحياة الحضرية في مدن الثغور مثل طرسوس وآضنة والمصيصة Mopsueste تحوي نمطاً من حياة فريدة جداً ، وهنا أيضاً يجدر بنا الاشارة الى حركة توسع عمراني محسوس جداً ، وذلك على الاقل حتى النصف الثاني من القرن العاشر ، عصر حملات نقفور فوكاس الذي دمّر حلب وأنطاكية وأريافهما وعمل على استنزاف قوى دولة الحمدانيين.

لكن مصر ، وهي القطر الذي كان يؤلف المصراع الثاني للمجال البيزنطي، والتي انتقلت لمجال الاسلام ، فإن من الممكن متابعة التطور الاستفلاحي ruralisation [1] فيها بالتفصيل ثم توقفه في نهاية العصر البيزنطي وذلك بفضل وثائق أوراق البردي . وقد أدى الفتح الاسلامي لحلول اقتصاد تجاري واسع مكان اقتصاد لم يتحول تماماً الى اقتصاد ريفي ولكنه كان يجنح لأن يكون كذلك ، وهذا ما تدل عليه المعلومات التي يقدمها الجغرافيون والرحالة، والذي صاحبه بالطبع نهضة عمرانية ، نهضة يمكن التعرف عليها بفضل علم

(١) نقصد بالاستفلاح تفوق الحياة الريفية على النمو العمراني في المدن .

الآثار وطبغرافية العمران الكبير المستمر في العصر الاسلامي ، ونقصد به مدينة الفسطاط ـــ القاهرة •

ففوق موقع المدينة المذكورة كانت تقوم قبل العصر الاسلامي مدينة صغيرة إغريقية رومانية هي بابيلون Babylone التي ينطبق موقعها على القاهرة العتيقة الحالية ، أي على حي قصر الشام • وقد أهمل العرب كلمة بابيلون المشتقة من تسمية محلية مصرية قديمة ، ولكن الاقباط استمروا على استعمالها • وتظهر هذه الكلمة بكتابات مختلفة : باباليون ، بابيلوان ، بابللونيا ، في الوثائق الغربية وفي الادب الاوروبي ، كناية عن القاهرة • وبابليون مصر هي عبارة عن قلعة ، ومكان استراتيجي عند ذروة الدلتا • فهي تسيطر على الطريق البري المؤدي الى بلاد الشام ، وغرباً نحو أفريقية والمغرب ، متحاشية بذلك مروحة الدلتا ، حيث تواجه المسافر صعوبات اجتياز فروع النيل العـديدة والقنوات والترع التي لاتحصى • فعلى خلاف ذلك يمكن ، عند بابيلون ، اجتياز النيل بسهولة عند جزيرة الروضة ، أو جزيرة مقياس النيل ، بواسطة جسرين من المراكب • وفضلا عن ذلك يعتبر موقعها نقطة انطلاق القناة التي تحقق الوصول الى البحر الاحمر بواسطة قناة الفراعنة ، التي دعيت باسم نهر تراجان Trajani amnis في عهد الرومان ، وأخيراً عرفت باسم قناة الخليفة ، أو خليج أمير المؤمنين • ويجب أن نضيف الى هذه الطرق المذكورة طريق النيل النهرية الكبيرة مـن الشمال الى الجنوب والتي تربط مصر العليا بالدلتا •

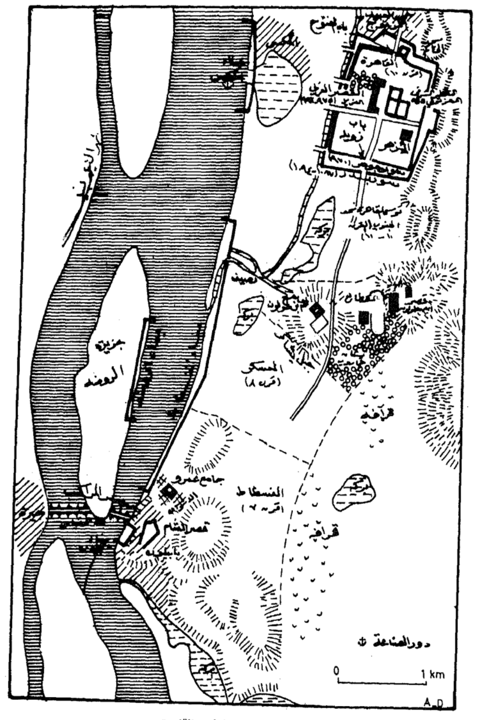
ويكون موقع القاهرة ، بصورة أكثر دقة ، مؤلفاً من ضفة منخفضة ، أي حافة سهل ومن مصاطب اطمائية تمتد حتى أوائل أعضاد جبل المقطم المسمى أيضاً جبل يشكر • وكان هناك بعض البرك التي تحولت بعد تجفيفها الى بساتين لزراعة الخضار •

وتعتبر القاهرة من وجهة النظر التاريخية ، عبـارة عن سلسلة من مدن متعاقبة ، فبعد بابيلون قامت الفسطاط ، وهي وليدة الفتح العربي ، والتي أسسها

قائد الجيوش العربية عمرو بن العاص سنة ٦٤١ ، على شكل معسكر الى الشمال من المدينة القديمة . وتعني كلمة فسطاط ، مخيماً عسكرياً ، أو على الارجح ، خندقاً دفاعياً ، من الكلمة البيزنطية fassaton ومن اللاتينية fossatum. وتاريخ الفسطاط هو شاهد طيب على تحول معسكر الى مدينة . فحتى بداية القرن الثامن ، ظلت الدواوين التي كان يديرها موظفون أقباط يكتبون باليونانية، في بابيلون ، الى أن طرأ تغيير حاسم في عهد الخليفة عبد الملك ، بعد فرض اللغة العربية في المكاتب الحكومية وظهور عملة اسلامية الطراز . وهكذا نما مركز عمراني جديد في الفسطاط حيث شيدت الابنية الحكومية الى جانب مستودعات البضائع ، ودار صناعة ، وميناء ، ومؤسسات معقدة تنم عن انزلاق الحياة النهرية نحو المركز الجديد ، والتي عملت جميعها على دعم مدينة الفسطاط الجديدة ، مدينة جامع عمرو الكبير ، ودار الامارة والاسواق .

وفي عامي ٧٤٩ ــ ٧٥٠ تأسست مدينة جديدة في شمالي الفسطاط على أيدي القواد العباسيين الذين اندفعوا في مطاردة آخر خليفة أموي . ودعيت هذه المدينة الجديدة : **العسكر** ، وكانت تضم بدورها قصر حكومة وأسواقاً الى جانب جامع كبير .

وفي عام ٨٧٢ بنى ابن طولون ، حاكم مصر باسم الخليفة العباسي ، والذي كان بالواقع مؤسس أسرة حاكمة محلية مستقلة ، بنى قصراً فسيحاً عند أقدام جبل المقطم ، ثم شيد في عام ٨٧٥ جامعاً كبيراً فوق جبل يشكر ، جامعاً ينم عن مؤثرات هندسية قادمة من سامراء حيث كانت تمثل المنارة مع درجها المروحي، فوق مخطط مستدير ، تمثل هندسة الزيقورات Ziggurats القديمة في بلاد مابين النهرين . هذا كما أنشأ ابن طولون **ميداناً** لسباق الخيل من أجل لعبة العكثرة polo ، كما اكتملت هذه المنشأة الحضرية الجديدة بظهور اقطاع الاراضي للضباط ولرجال الحاشية ، ومنه جاء اسم **القطايع** الذي اتخذته المدينة الجديدة .



شكل ١٤ ـ (الفسطاط ـ القاهرة)

وأخيراً وفي عهد الفاطميين ولدت القاهرة : ففي عام ٩٦٩ استولت جيوش الفاطميين القادمة من أفريقيا الشمالية بقيادة جوهر الصقلي ، والتي قدمت الى وادي النيل عن طريق الواحات . وقد أنشأوا شمال المؤسسات العمرانية القائمة مدينة جديدة بقصورها وبجامع الازهر الذي بني عام ٩٧٢ م ، وقد دعيت المدينة الجديدة : القاهرة ، أي المدينة المؤسسة عند شروق كوكب المريخ ، ونمت بسرعة كبيرة جـداً حول الابنية الرسمية . وبلغت القاهرة عصرها الذهبي في القرنين العاشر والحادي عشر ، في العصر الذي شيدت فيه زمرة من الأبنية التي وصلتها بالقطايع . وكانت المدينة تحوي حينذاك قرابة نصف مليون نسمة .

غير أن انحطاط القاهرة يبدأ في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، على أثر اضطرابات فترة حكم المستنصر الذي حكم بين ١٠٣٥ و ١٠٩٤ ، ومجاعة ١٠٥٤ ، ونهب القصر الفاطمي على أيدي رعاع الجند ، وعندئذ تشكل **الخراب**، وهو خندق زاد اتساعه أكثر فأكثر بين القاهرة والفسطاط ، الى أن شبَّ حريق التهم الفسطاط في عام ١١٦٨ ذلك الحريق الذي حدد للقاهرة منذ ذلك الحين مستقبلها كمدينة .

مجال الغرب الهمجي :

ويضم أفريقيا الشمالية وأسبانيا وصقلية .

لقد اجتمعت في أفريقيا الشمالية ، التي تؤلف أهم منطقة في هذا المجال ، الشروط العامة لقيام نهضة عمرانية فريدة في أهميتها وذلك بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر . فقد كانت أفريقيا الشمالية بلاد تجارة عبور ، ترانزيت ، بين الاطراف الغربية للامبراطورية وبين الشرق الاسلامي ، وبين صقلية وأسبانيا، وبين المجال الاسلامي ككل وبين عالم السودان وعالم الصحراء الكبرى . وقد شهدت حينئذ نهضة عظيمة ، قائمة على التجارة العابرة للصحراء والتي كانت تحقق بالمقابل نفوذ أشكال عمرانية ابتداءً من شمالي الصحراء الكبرى مثل

سجلماسة ، ورقلة ، المزاب ، وحتى ضفاف نهر النيجر . وقد كان تأسيس ونمو مدينتي فاس أو القيروان على صلة مع تلك الواجهة الجنوبية لتجارة المغرب ، ومع نهضة مدن القوافل الكبرى ، أي محطات وصول طرق الذهب والرقيق .

وقد كان أول هجوم على أفريقية ونجاح الفتح ، بالرغم من مقاومة الداخل البربري ، كان متبوعاً في عام ٦٧٠ بتأسيس القيروان على يد عقبة بن نافع . وقد خططت المدينة كي تكون موقعاً دفاعياً ومعسكراً للتدريب وللاستعراض وقاعدة الانطلاق، أي تحوي كل الوظائف التي يشتمل عليها اسمها القيروان «مدينة الحامية » . وقد قامت القيروان بالفعل فوق موضع ــ مفتاح position - clé على تخوم الصحراء الكبرى، والسهول السهبية ، وشطوط الجنوب التونسي[١]، تحمي طريق واحات كبير ، شأن الكوفة ودمشق والفسطاط ، وتستطيع متى شاءت أن تحفظه أو أن تقطعه ، هذا الطريق هو طريق الواحات الممتد حتى مصر .

وعلى أثر انتفاضات الخوارج الكبرى في أواسط القرن الثامن سقطت المدينة عدة مرات في أيدي البربر المتمردين وتعرضت أسوارها للتخريب . وفي عام ٧٧٢ أعيد بناء الاسوار والجامع الكبير ، وهو تاريخ التأسيس الثاني للمدينة حسب كتب المؤرخين ، وكان ذلك منطلقاً للتوسع العظيم الذي عرفته القيروان في عهد الاغالبة بين ٨٠٠ و ٩٠٩ ، وفي ذلك الحين تم بناء الخزانات الكبرى والمواجن[٢] التي كانت تغذيها قناة فوق حنايا تمتد على مسافة ٢٥ كم ، وتمت توسعة بناء الجامع الكبير بعد أن أضحى صغيراً للغاية ، وفي ذلك قرينة على التضخم العمراني ، تماماً كما حدث في دمشق وفي قرطبة . وفي الوقت نفسه وعن طريق تكاثر الضواحي حول المدينة ، نشأت مراكز جديدة ، هي زمرة من مدن سكنية ، أو قصور سرعان ما أحيطت بأسواق وأصبحت مراكز أو نويّات لمدن جديدة آهلة بالسكان .

(١) الشط في المغرب يعني السبخة .

(٢) جمع ماجن ويقصد به بركة الماء المربعة لخزن ماء السيول في بلاد تونس .

وفي عامي ٨٠٠ و ٨٠١ تم بناء « القصر القديم » في اتجاه الجنوب الشرقي أو قصر العباسية ، على شرف سيدهم الخليفة العباسي ، والذي جرى فيه استقبال سفراء شارلمان ، وهي مدينة جديدة كبيرة مع سور ذي خمسة أبواب ، والعديد من الحمامات والخانات Caravan - sérails والاسواق ، وجامع شبيه بجامع سامراء[1]، وميدان سباق خيل ، وقد ظلت المدينة هذه مأهولة حتى بعد نزوح البلاط الملكي عنها في عام ٨٧٧ م •

وقامت مدينة جديدة بين ٨٧٦ و ٨٧٧ هي الرقّادة جنوب غرب القيروان وكان يبلغ طول محيطها ٢٤٠٠ ذراعاً أو أكثر من عشرة كيلو مترات ، ولكن مع وجود مساحات واسعة مكشوفة ، ومروج وساحات عامة وبساتين • وعلى أثر سقوط الاغالبة وبعد فتح القيروان على أيدي الفاطميين تعرضت الرقادة للنهب بعد أن انقض عليها جيرانها القيروانيون الذين استبدت بهم الغيرة والحسد تجاه هذه المدينة الجديدة •

وأخيراً قامت مدينة ثالثة ملحقة ، الى الشرق من القيروان ، وذلك في أيام الفاطميين ، خلال عامي ٩٤٨ و ٩٤٩ ، وهي صبرة منصورية ، التي أسسها الخليفة الفاطمي المنصور ، في أعقاب ثورة القيروان • وقد كان لهذه المدينة خمسةأبواب كان دخل كل منها ٢٦٠٠٠ درهماً يومياً من رسوم المكس • ولما كانت صبرة مدينة قصور ومدينة تجارة أيضاً فقد تعرضت بعدئذ للاندماج في داخل سور القيروان الموسّع وأصبحت أحد أحيائها ، في داخل السور • وهكذا نجد في ذلك مثالا عن تكاثر مدن بفعل انفجار عمراني ثم تلاحم ، كحال الفسطاط ـ القاهرة أو قرطبة •

ويجب علينا أن نشير الى تونس في عداد المؤسسات العمرانية الاخرى في أفريقية ، والتي أنشئت بعد القيروان بقليل ، وعلى أثر التخلي عن مدينة قرطاج القديمة ، التي أصبحت عبارة عن ميدان أطلال ، وانتقالها الى موقع جديد فوق

(١) انظر مجلة الفيصل السعودية عدد ٤٠ شهر شوال ١٤٠٠ او آب ١٩٨٠ •

أحد أرباض قرطاج القديمة واسمه تينس Tynés . واستُقدم صنّاع مصريون لكي يعملوا في صناعة السلاح وفي بناء السفن . أما من الناحية السياسية فإن تونس كانت تتبع مملكة الفاطميين أو أتباعهم من زيريين وحمّاديين . ولنذكر ، عدا مدينة تونس ، المهديّة التي تأسست سنة ٩٥١ الى الشرق من القيروان على الساحل ، وعشير في عام ٩٣٥ الى الشمال من منخفض الحضنة ، ومدينة الجزائر ومليانة وميدية في ٩٤٦ وقلعة بني حماد في ١٠٠٧ .

أما في المغرب الاوسط فقد تأسست مدينة تاهرت في عام ٧٦١ على مسافة عشرة كيلومترات من مدينة تاهرت أو تيارت الحالية، وكانت عاصمة الرستميين الخوارج وقد سقطت بأيدي الفاطميين سنة ٩٠٨ وطردوا الخوارج منها مما اضطر هؤلاء الى التوغل جنوبا في الصحراء بحثاً عن ملجأ لهم . وهكذا أنشأوا سدراتة قرب ورقلة . وعلى أثر الاضطهادات التي نالتهم في آخر القرن العاشر وفي مطلع القرن الحادي عشر انسحبوا مرة أخرى نحو مناطق ذات سحنة صحراوية وهي قفار الشبكة في المزاب، حيث احتفروا آباراً على عمق بلغ عشرات الامتار . وفي ١٠٧٧م ظهرت مدن المزاب الخمس التي تشهد مرة أخرى على حضارة عمرانية . وهناك مؤسسات عمرانية أخرى : فقد ظهرت تينس في عامي ٨٧٥ ــ ٨٧٦ ووهران في عامي ٩٠٢ ــ ٩٠٣ التي قامت على أيدي مغامرين أندلسيين أقاموا فيها سوقاً بالتعاون مع بربر المناطق المجاورة[1] . وقد كان سوقاً حافلا استحق بعد مرور مرحلة من المخيمات تشييد قلعة ثم مدينة بكل ما في الكلمة من معنى .

هذا وقد كان المغرب الاقصى يمر ، شأن المغرب الاوسط ، بمرحلة تلاشي شبه كامل للمدن الرومانية مثل وليلي Volubilis وسبتة Septem وطنجة Tingis . وفي عام ٧٨٨ أي عند قدوم ادريس الصغير ، وهو كما نعرف ، مشرقي ، كالاغالبة ، والفاطميين ، والرستميين ، وهم من كبار بناة المدن ، كانت المدينة الرئيسية في هذه المنطقة كلها هي طنجة ، التي تشرف على نقطة عبور بحر الزقاق الى الاندلس ، وفي عام ٨٠٧ أنشئت فاس .

(١) انظر وصف افريقيا . الحسن الوزان (ليون الافريقي) ص ٣٦٩ .

وتشهد فاس بصورة بليغة على تسرب حضارة عمرانية من نمط شرقي في مجتمع ريفي بربري ،فهي مدينة بأسوارها ، وبأحيائها ، وبأسواقها،وبصناعاتها، وببورجوازيتها « الفاسيّة » . وكان أهلوها ينتسبون الى أصل مزدوج : أولا من القرطبيين الذين أجلوا على أثر ثورة الربض، الى هذه المدينة ، وثانيا من سكان القرويين ، الذين كانوا يشكلون الحرس المشاغب لدى حكام أفريقية ، والذين أفلحوا في التخلص منهم . وقد بنيت فاس على شكل شطرين على جانبي النهر، أي نهر فاس ، وهما عُدوة الاندلس وعُدوة القرويين ، وكان كل منهما يشتمل على جامعه الكبير وعلى أسواقه وعلى دار لضرب النقود . وتعود جاذبية المدينة ، فضلا عن جوانب الجمال الاخرى ، الى الماء الذي يجـري في كل أرجائها . وكانت القنوات المشتقة من وادي فاس ومن اشتقاقاته تنفذ الى كل المساكن، المبنية حول صحن الدار المخضرض . وكانت أزقة المدينة وشوارعها مرصوفة بالبلاط ، ويذكر لنا الجغرافي ابن حوقل ، في القرن العاشر ، أن ماء النهر كان يسلّط على الاسواق في كل يوم من أيام الصيف ، والذي كان يغسل أرضيتها ويرطب البلاط . وكان الماء هذا يغذي ، من جهة أخرى ، عشرين حماماً عامة وثلاثمائة طاحون . وقد كان نمو فاس سريعاً ، إذ بلغ عدد سكانها قرابة ١٠٠٠٠٠ نسمة في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر .

والى نفس العصر يعود نشوء مدينة البصرة،في شمالي المغرب الاقصى[1]. ولم يبق منها سوى الاطلال ضمن سورها الذي لا يزال ماثلا : وهو سور غليظ، بني من الحجر الغشيم ، وتقوم أبراج نصف دائروية على خواصره مستوحاة من فن المشرق ، وهذا الطراز من الابراج هو طراز مميز للفن العباسي،والذي وصل المغرب عن طريق مصر وأفريقية[2]. وهناك انشاءات عمرانية أخرى : فقد بنيت وجدة في ٩٦٤ ، كما شيدت ايغلي ، في القرن التاسع ، في منطقة السوس الاقصى نظراً لارتباطها بنهاية طرق عابرة للصحراء الكبرى ، وأخيراً ، وفي عام ١٠٧٧ ،

(١) انظر وصف افريقيا . مرجع سبق ذكره ص ٣١٠-٣١١ .
(٢) المقصود بكلمة افريقية بلاد تونس الشمالية.

بني المرابطون القادمون من الجنوب ، والذين سلكوا دروب السودان ، مدينة مراكش •

وتعطي هذه المؤشرات ، المعروضة بسرعة مفرطة ، عن التاريخ العمراني في افريقيا الشمالية ، تعطي مع ذلك فكرة عن الانبعاث المذهل في الحياة الحضرية وعن الانفجار العمراني في هذه المناطق • وقد كانت هذه النهضة بالطبع على علاقة مع تكاثف العلاقات التي تشد المغرب الى المشرق ، والى اسبانيا وصقلية، وعلى الاخص ، على أثر فتح أفق تجاري جديد ، هو السودان الغربي ، الذي كان عالم الذهب والرقيق ، والذي أمكن الوصول اليه عن طريق المسالك العابرة للصحراء الكبرى • ومن ناحية أخرى كانت النهضة العمرانية مرتبطة باندفاع ديموغرافي شديد جداً : فقد كانت بلاد البربر ، خلال أوائل العصر الوسيط، مصدراً للرجال ، كما يشهد على ذلك اعمار الصحراء الكبرى بأهل الإبل من البربر ، كما تم فتح أسبانيا بجنود من نفس الاصل ، وكذلك فتح صقلية ، في عهد الاغالبة ، وضم بلاد الشام ومصر الى التاج الفاطمي •

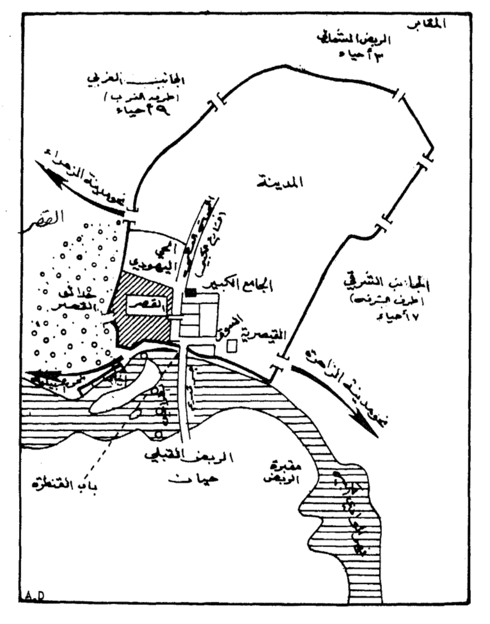
وتنضوي أسبانيا تحت نفس الاعتبارات العامة مع تحفظ بسيط ، وهو أن قائمة المدن الناشئة في العصر الاسلامي كانت أقل طولا بكثير ، كما أن النهضة العمرانية تستند على نمو عظيم انتاب بالواقع مدناً قديمة ، والتي انبعثت بعد ضمورها في العصر الهمجي ، مثل المدن الكبرى في منطقة بطقة[1] وبلاد بايتيس Baetis ، أي حوض نهر الوادي الكبير : كقرطبة Corduba وأشبيلية Hispalis وقادس Gadix ومالقة ، ومدن وادي نهر التاج ، مثل طليطلة Toletum وإشبونة Olisipo ، وأخيراً مدن وادي الايبر كسرقسطة Caesera Augusta • أما المؤسستان الكبيرتان الحقيقيتان ، والغنيتان مع ذلك بالدلالة ، فقد كانتا ، كما رأينا ، الميناءين الكبيرين اللذين كانا في الوقت نفسه عبارة عن داري صناعة ، وترسانتين ، تابعتين لمملكة قرطبة ، ونقصد بهما المرية أو المارية ، أي « برج

(١) الاسم القديم لبلاد الاندلس •

الرصد» على البحر الابيض المتوسط ، والقصر ، أو قصر أبي دانس Alcacer de sal القائم فوق بحيرة ساحلية « لاغون » في مواجهة المحيط الاطلسي ، أو بحر الظلمات . وتبرهن هاتان المنشئتان العمرانيتان ، اللتان قامتا تقريباً في نفس العصر ، على أيدي أوائل الامراء الامويين في أسبانيا ، على أثر تسنمهم مقاليد السلطة ، تبرهن على انفتاح تجارة اسبانيا الاسلامية ، في آن واحد ، على البحر الابيض المتوسط ونحو المحيط الاطلنطي . غير أن المرية التي بنيت سنة ٧٥٦ كانت تبدو أكثر أهمية من شقيقتها الغربية ، فقد كانت في الوقت نفسه ميناءً كبيراً ومدينة تجارية نشيطة ومدينة صناعات متنوعة ، كما تشهد على ذلك « معارض Aumarie » التي تتكلم عنها أناشيد رولان الفرنسية الحماسية . فقد كانت تصنع فيها الاقمشة الحريرية ، التي كانت تعتمد على الحرير الخام الذي تنتجه جبال البشرات[1] Alpujarras وهي جبال واقعة في ظهير هذه المدينة ، كما كانت تقوم فيها أحواض كبيرة لبناء السفن ، والتي استدعت قيام صناعة مزدهرة تقدم الاخشاب والحديد وأقمشة القلوع .

ولكن تظل الظاهرة العمرانية الكبرى في شبه جزيرة ايبريا الاسلامية ، على كل حال ، هي توسع قرطبة ، وتكاثر أرباضها . فبعد أن كانت قرطبة عاصمة بلاد «بَطِقة» أو بتيكا الرومانية أصبحت بليدة لاأهمية لها تستحق الذكر عند وصول المسلمين،وذلك في مطلع القرن الثامن:لأن المدينة الكبيرة،اذا صح استعمال هذا التعبير في ذلك العصر ، كانت حينذاك طليطلة ، عاصمة ملوك الويزيقوط . ولكن موقع قرطبة يتمتع بالارجحية ، اذ كان يقوم فيها جسر روماني ، هو القنطرة ، الذي يشير الى انتهاء الخط الملاحي على وادي النهر الكبير في اتجاه العالية ، شرقاً . وفي عام ٧١٩ قام الوالي السادس ، من طرف خلفاء بني أمية في دمشق على الاندلس ، قام بنقل مقره من أشبيلية الى قرطبة وقام بتنفيذ أوائل

(١) وهي اودية جبلية عالية في سلسلة جبال سراة نيفادا في جنوب اسبانيا والتي اندلعت فيها ثورات رهيبة بين ١٥٦٨ و ١٥٧١ قام بها مسلمو الاندلس الذين التجاوا اليها بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ والتي قمعت بالحديد والنار .



شكل ١٥ ـ مخطط قرطبة

المشاريع العمرانية فيها مثل تشييد الاسوار ، وترميم الجسر الروماني القديم ، وبناء الطواحين فوق سكر[1] مستفيداً من تيار النهر. ذاك هو عصر ظهور الربض الجنوبي ، حيث أنشئت بجانبه المقبرة الاسلامية . ومن ثم كان توسع المدينة غاية في تسارعه ، اذ تجاوز السور نحو الشمال ، ونحو الشرق والغرب ، بينما استمر الربض الجنوبي في توسعه من جهة الجنوب .

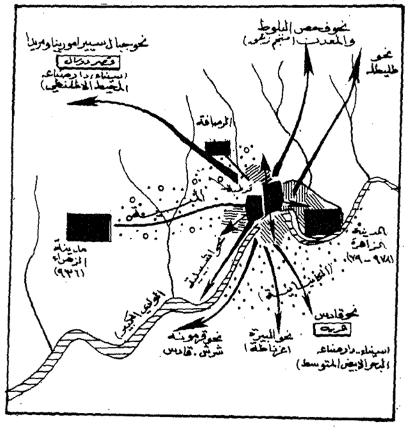
ويقع أكبر توسع شهدته قرطبة خلال القرن العاشر ، وعلى الاخص ، في عهد الخليفة الحكم الثاني وهشام الثاني . وكان للعاصمة الاصلية ، أو المدينة ، في الوسط ، سبعة أبواب . وكانت تحوي واحدا وعشرين حياً في خارجها ، تؤلف جميعاً ما يسمى بالربض ، الذي راح يمتد في سائر الاتجاهات : تسعة أحياء في الغرب ، وسبعة في الشرق ، وثلاثة في الشمال ، واثنان في الجنوب ، أي في ماوراء النهر ، في القسم المسمى Calahorra . هذا ويمكن التعرف على تزايد السكان ، الذي ألمحنا اليه ، من التوسعات المتعاقبة في جامع قرطبة الذائع الصيت : ففي عام ٧٨٥ أدخل عبد الرحمن الاول اصلاحات كبيرة على المسجد ، وأضاف اليه خلفه عبد الرحمن الثاني تسعة صفوف من الاعمدة باتجاه الجنوب ، وبنى الحكم الثاني في سنة ٩٦١ في اتجاه الجنوب أحد عشر صفاً اضافياً من الاعمدة ، وأخيراً وفي عام ٩٧٧ وسّع المنصور بناءه بمقدار الثلث ولكن في اتجاه الشرق هذه المرة ، هذا فضلا عن تسعة أروقة.وهكذا تدلنا أبعاد هذا البناء على تقدير عدد سكان المدينة بحوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة تقريبا.

والظاهرة النموذجية أيضاً في ازدهار قرطبة ، شأن توسعها البحت ، كان تبرعمها . فهنا أيضاً انسحبت قصور الخلفاء الى خارج المدينة الصاخبة لكثرة سكانها ، وكان كل منها نواة لمدينة جديدة ، أي تحولت مراكز لنشوء توسعي حسب أسلوب قصور الاغالبة والفاطميين في خارج القيروان . ففي البداية نشأت الرصافة على مسافة حوالي ثلاثة كيلومترات نحو الشمال

---

(١) سكر : بكسر السين وسكون الكاف يعني السيد التحويلي لتحويل الماء لتحرك رحى الطاحون.

الغربي في عهد عبد الرحمن الاول ، التي توحي بذكرى الرصافة الشامية التي كانت حيناً من الدهر مقراً لخلفاء بني أمية[1] • بيد أن الرصافة لم تكن الوحيدة التي أنشأها خلفاء قرطبة ، ففي البساتين الواقعة حول المدينة قامت أحياء غيرها ، والتي أدت الى توسع المدينة وبالتالي لإعمار سهل الفحص القرطبي بالسكان والذي انتشرت فيه الارباض والمقابر والحدائق •



شكل ١٦ ـ قرطبة : التبرعم العمراني

---

(١) تقع الرصافة السورية الى الجنوب من نهر الفرات او جنوب غرب الرقة الحالية • وقد شيدت بحجارة الآنهيدريت التي تتورم بعد تعرضها للهواء الرطب مما أدى لانهيار بنيان القصر بعد حقبة من الزمن • وهناك حي الرصافة في بغداد الذي ذكره علي بن الجهم في قصيدة يقول في مطلعها :

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

هذا بعد ان مدح الخليفة بقصيدة يقول في مطلعها :

أنت كالكلب في حفاظك للـود ... وكالتيـس في قـراعك للخطـوب

وهناك اخيرا رصافة دمشق وهو الحي الذي كان مقر قصور خلفاء بني امية في الضاحية الغربية من العاصمة ويعتقد انه كان يقع بجوار قصر العدل حاليا •

ومن بين هذه الارباض جميعا تظل مدينة الزهراء ، التي تأسست في عام ٩٣٦ على اسم جارية أثيرة عند عبد الرحمن الثالث ، تظل أكثرها شهرة . وقد شيدت على مسافة خمسة كيلومترات في شمال غرب قرطبة ، لتكون سكناً ملوكياً وإدارياً ، ومقراً للدواوين ، تحت حماية حرس من الصقالبة . وهنا أيضاً نجد الاهتمام بوضع العاصمة تحت مراقبة يقظة مع البقاء بمنأى عن الصخب ، وكيلا تكون في وسط سكان لاينفكون عن التكاثر ، وتحت رحمة انتفاضات كتلك التي شهدها الربض في القرن التاسع . وقد استدعى بناء مدينة الزهراء القيام بمشاريع ضخمة ، استغرقت عشرات السنين ، واستخدمت ١٠٠٠٠ عامل ، وجلب الرخام إليها من قرطاج وصفاقس ، والمأخوذ من أطلال قديمة . وكانت أسواقها حافلة ، وكان على كل تاجر يرغب في مباشرة أعماله فيها دفع رسم مقداره ٤٠٠ درهم .

وفي عام ٩٧٨ ـ ٩٧٩ قرر الحاجب المنصور الذي اغتصب السلطة كي يؤسس أسرة حاكمة من حجاب القصر ، وهم العامريون ، قرر بناء عاصمة جديدة ، كرمز للسلطة الجديدة . وهكذا ترك مقره في قصر العامرية كي يقيم في شرقي قرطبة ، في مدينة الزهراء . وقد أصبح المقر الجديد بسرعةكبيرة مدينة التحمت بقرطبة وأصبح اسم مدينة الزاهرة يعني مجموعة الارباض الشرقية في العاصمة .

وهكذا نرى أن هالة الارباض ، والانفجار العمراني ، وتلاحم الارباض، ونسق النمو العمراني في قرطبة ، كان شديداً وكثيفاً ، فكانت المدينة،وأرباضها، والمدينتان المضافتان ، أي مدينة الزهراء والمدينة الزاهرة ، كانت تؤلف جميعاً منطقة عمرانية حقيقية هي « قرطبة الكبرى » التي تؤوي قرابة نصف مليون نسمة ، وهو رقم جسيم في الغرب بالنسبة لذلك العصر ، لأن باريس التي كانت أكبر مدينة في العالم النصراني في الغرب آنئذ ، لم تكن تحوي أكثر من ٢٠٠٠٠٠ الى ٣٠٠٠٠٠ نسمة في القرن الرابع عشر ، أي بعد أربعة قرون من الزمن .

بقي علينا أن نتكلم عن صقلية حيث كانت تقدم بالرمو ، كما لاحظ الرحالة المسلمون بصورة موثوقة جداً ، نفس أشكال النمو التي رأينا في قرطبة • وكان يقوم في قلب المدينة أي في الجزء القديم ، كان يقوم القصر القديم Cassaro Vecchio الذي تحيط به هالة من الارباض الجديدة • واستناداً الى ما يرويه ابن حوقل ، الذي دوّن مشاهداته في القرن العاشر ، أن القصر القديم الذي كان يحيط به سور من الحجارة ذو تسعة أبواب ، كان يضم الجامع الكبير ، والسوق الرئيسي ومساكن أغنياء التجار • وكان يقوم حول المدينة أربعة أحياء هي : **الخالصة** ، وهي المدينة الاميرية والادارية ، التي يحميها سور ذو أربعة أبواب ، وتضم القصر ، والدواوين ، ودار الصناعة ، والحدائق ، والتي أصبحت فيما بعد مقر الملوك النورمان ، وحي **الصقالبة** بعدئذ ، وهو أكبرها ، والمأهول ، كما يشير اسمه ، بالارقاء الصقالبة ، ويشتمل على الميناء التجاري وأرصفته ، ولم يكن له سور ، مع واجهة بحرية عريضة ، ثم يأتي الحي المسمى حي مسجد ابن صقلاب ، وهي حي كبير أيضا ، كان يمتد نحو الريف بواسطة بساتينه ، وبطواحينه التي تدار بمياه الجداول ، أي كان ضاحية مخضوضرة بالبساتين ، أو **فحص** ، لتأمين تغذية المدينة ، ونذكر أخيرا **الحي الجديد** ، الذي يشير اسمه الى توسع العاصمة الصقلية •

ولدينا معلومات جمة الفائدة عن بالرمو يقدمها الراهب تيودوز[1] الذي سقط أسيراً على أثر سقوط سرقوسة في عام ٨٧٨ ، واقتيد الى بالرمو أسيراً • فهو يعطينا فكرة طيبة عما يكون عليه الصخب البشري في مدينة اسلامية ضخمة فيقول : « مدينة شهيرة جدا وكثيرة السكان ، تضم سكاناً عديدين من وطنيين وأجانب • ويمكن القول أن أقوام المسلمين قد تدفقت عليها • فمن الشرق للغرب، ومن الشمال حتى البحر ، لم تكن المدينة كافية أبداً لاستيعاب عدد سكانها

(١) Lettre éditée par C. Zaretti dans Centenario della nascita di Michele Amari Palerme, 1910, pp. 167-173 et par M. Amari, Descr. de Palerme, Intròd., pp. 7-8 .

الجدد • وعندها ابتدأ بناء منازل خارج الاسوار • وهكذا تشكلت على قرب منها بضع مدن أخرى لاتقل ازدهارا ، كما لاتقل عنها احاطة بالاسوار »•

* * *

تلك هي المدينة الاسلامية ، في أوج توسعها ، من طرف الامبراطورية حتى الطرف الآخر • ويجب علينا أن نرى كيف كان الناس يعملون بها ، وما هي الاشكال التي يتخذها نشاط الناس وما هي أشكال الغليـان الاجتماعي التي تتمخض عن ذلك •

* * *

الفصل السابع

تنظيم العمل والحركات الاجتماعية

هناك ظاهرتان رئيستان تطيفان بحياة المدن وبتطورها الاجتماعي : تدفق الذهب وتعاظم التداول النقدي من ناحيــة ، وتسارع نسق العمـران ونمو الاستهلاك الناجم عن ذلك من ناحية أخرى • وكان من جراء تعدد وســائل التسديد ، وضرب النقود بشكل حثيث وتداولها الاكثر .برعة ، وامتداد مجال الاقراض والاعمال المصرفية ، واشتداد الطلب على الاستهلاك الناتج عن تطور ونمو العواصم الكبرى ، كان من جـرائها جميعاً تسارع في الفعالية التجارية وتنشيط الانتاج الزراعي والصناعي ، وانخفاض في قيمة المعادن الثمينة ، وارتفاع الاسعار على الامد الطويل ، الذي يدعمه التدفق المستمر مــن المعادن النقدية بصورة تفــوق تزايد حجم الانتاج ، وهذا بالرغم مــن النجاحات المتحققة في هــذا المضمار •

وكانت تنحصر فائدة هذا الصعود في الاسعار تقريبــا في أيدي الطبقة التجارية وبأوساط الحاشية،فكان تمركز الثروة في أيدي التجار يحثهم على اعادة توظيفها ، والى عقد صفقات مربحة أكثر فأكثر ، في حين كانت جماعات الحاشية، أو البلاط ، تستدر عن طريق الضريبة ، التي كانوا يلتزمونها،وعن طريق وسطائهم من الصيارفة ، كانت تستقطب شطرا هاما من هذه الثروة الجديدة وتتباهى ببذخ غريب • وكان يؤلف ثراء الطبقة التجارية الذي يشهد عليه المسكن الحضري، وزينة وزخرف قصر الحاكم المتمثل بالقصر الملكي ، كان يؤلف قاعدة الحضارة

المادية في المــدن ، **وعن طريق** رعاية الفنــون والآداب ، **دعامة** الحضارة بكل معنى الكلمة •

وفي الوقت نفسه ، كان سواد الجماهير الشعبية يتعرض للافتقار ، فالاجور كانت ترتفع بنسبة تقل عن ارتفاع الاسعار ، نظرا لوجود أعداد وفيرة من الايدي العاملة تحت الطلب • وهكذا أضيفت الى الظاهرة الاجمالية ، أي ظاهرة ارتفاع الاسعار والرخاء ، ظواهر وسيطة تحوم حول التوزع المتفاوت في الفوائد وفي المصالح بين مختلف الطبقات[1]•

وكان من نتيجة اشعاع المدينة على ريفها تمزق خلية الملكية الريفية الواسعة• فقد أخذ الثراء في الامتعة والاثاث يجنح للحلول مكان الثروة العقارية ، فامتدت هذه الضائقة وفقدان السلطة الى الاريستوقراطية المحلية من الملاكين العقاريين• وكان من مفعول التفكك في خلية الملكية الريفية الواسعة حدوث انفجار اجتماعي، اذ تجاوبت انتفاضات عامة أهل الارياف مــع ثورات الرقيق ودهماء المدن • وقد تفاعلت كل هذه الحركا تالاجتماعية ، التي كانت منعزلة أولا ، فاندمجت في حركة واسعة جماعية حيث تضافر كل المتمردين ، العبد والحر ، والحضري والفلاح ، وهذه الحركة المسماة القرمطية ، أدت الى هــزّ كل أركان العالم الاسلامي في القرن العاشــر ، وقادت الى تنظيم جديد للعمل ، هو الجمعيات الحرفية Corporations •

---

(١) لقد كان من جراء عدم تطبيق نصوص الشريعة الاسلامية بحذافيرها ولاسيما الزكاة في العصور المتاخرة من الحكم الاسلامي ظهور تفـاوت صارخ بين فئات المجتمع دون اعتبــار الكفاءة بل على العكس تماما كما يقول أبو تمام :

ينـال الفتـى من عيشـه وهـو جاهـل … ويكـدى الفتـى في دهـره وهـو عـالم
ولو كانـت الارزاق تجـري عــلى الحجـا … هلكــن اذن مــن جهلهــن البهــائم

وقول أبي العلاء المعـري :

ياتـي الشـتاء وفيـه فقـير … معــرًى أو أمــير مــدوّج
وقـد يـرزق المجـدود أقوات أمة … ويحـرم منها واحد وهو أحـوج

الطبقة التجارية والبلاط

لقد كان التجار هم المستفيدون الوحيدون من التضخم النقدي ، كما سبق وأشار الى ذلك في النصف الثاني من القرن الثامن المدعو دنيس التلمهري Denys de Tell Mahre's[1] • ففي الواقع كان نشاط التجار في قمة النهضة الاقتصادية ، ذلك أن روح المبادهة في الناحية التجارية هي ظاهرة تقليدية في عالم المشرق• وقد تجلّى ذلك آنئذ في تضافر رؤوس الاموال وفي قيام شركات تجارية ومصرفية • وراح التاجر المقاول ينشيء الصناعات ، ويؤمن فرص العمل ، ويقدم المواد الاولية ، ويقرض المال ويتعهد بتصريف المنتجات • ونظراً لشيوع روح المغامرة فقد اندفع نحو الاقطار البعيدة فوصل الى السودان وراح يتاجر بالذهب مقابل الملح والسلع الخفيفة التي تشكل وسق قوافل الابل ، كما بلغ المحيط الهندي ، كالسندباد البحري ، كي يقوم بشتى ضروب المقايضة•وكانت الشحنات الثمينة القادمة الى البصرة تحقق أرباحا طائلة ، اذ كانت تقدر حمولة سفينة قادمة من الصين بحوالي نصف مليون دينار • أما في منطقة الانهار الروسية فقد كان الرقيق يشكل السلعة التي تحقق أكبر ربح في أسواق الشرق الاسلامي • وقد كانت تلك الفترة هي فترة تكوين الثروات السريعة ، وشهدت تلك الحقبة بعثرة وانتشار الفروع التجارية على طول طرق العالم المعروف • ومن هذا جاء صعود الطبقة التجارية ، المتجسدة في نموذج التاجر الكبير المسلم ، وكذلك اليهودي أو النصراني •

وكان هذا التاجر الذي يتصرف برؤوس أموال ضخمة ، شخصية أو عائلية، كان يتشارك مع آخرين لاقامة بيوتات تجارية ، قائمة على الإقراض بصورة يضمن فيها بعضهم بعضاً ، ويتكامل فيها كل المتشاركين • وكان يتكرر توظيف رؤوس الاموال بصورة مستمرة في المؤسسات الاكثر اتساعا ، في عالم الصفقات المحموم ، والذي تؤيده الوثائق العبرية المحفوظة في كنيس القاهرة العتيق •

(١) Chronique. Ed. et trad. J. B. CHABOT. Paris, 1895, p. 168.

فنعرف مثلا رسالة أرسلها تاجر يهودي(١) من بلاد الشام ، وأصله من أفريقيا الشمالية ، اذا نظرنا الى كنيته وهي المغربي ، والتي أرسلها في أوائل سنوات القرن الحادي عشر من القدس الى القاهرة عن طريق ميناء الفرما(٢) ، والتي تتكلم عن وصول سفن الى صقلية ويطلب معلومات عن سفينة اسبانية ، وعلى العموم ، عن كل سفينة أخرى قادمة الى الاسكندرية ، ويأمل كاتب الرسالة وصول أجوبة فيما بعد من مراسليه في القيروان وفي صور . وهناك وثيقة أخرى(٣) تعود لمنتصف القرن التاسع تشهد على تنظيم مؤسسة تجارية تشرف عليها مجموعة عائلية . وتقع المؤسسة الاصلية في الفسطاط ويديرها رب الاسرة وولده البكر ، أما الابن الاصغر فقد عهد اليه بإدارة مخزن عدن ، والذي قام برحلتين الى الهند ، وحتى سيلان وكولومبو ، أما خال الاخوين ، فقد أوفد كعميل الى بلاد الهند ، حيث وافته المنية هناك .

وكان التاجر الكبير مثقفاً ، اذ يمكننا تصور ذلك من خلال دفاتر حساباته، ومن مراسلاته ، ومن بطاقات قروضه . فقد كانت توجد بالواقع مطولات تقنية ومراجع كانت معدّة غالبا للموظفين ، والتي يشهد محتواها على ثقافة عملية خاصة برجال الاعمال ومؤلفة لفائدتهم . فقد ألّف أبو الوفاء ، الذي عاش بين ٩٤٠ و ٩٩٧ م ، وهو من أصل فارسي ، والذي عاش في خراسان وبغداد ، ألّف كتابا في علم الحساب العملي عنوانه « حول ماهو ضروري للكتبة وأساتذة مادة علم الحساب » . ومن ناحية أخرى كان هؤلاء التجار على معرفة بفن المصطلحات وبالرسائل السرية . فكانوا يطّلعون على استعمال الارقام الهندية ، والتي نسميها العربية ، القائمة على تسع اشارات بالاضافة الى الصفر ، وذلك منذ أواسط القرن التاسع ، وتظهر هذه المنظومة في المؤلفات العلمية ، كي تنتقل فيما

(١) R. GOTTHEIL, Fragments from the Cairo genizah in the Freer Collection. New-York, 1927, pp. 116-129, no XXVII .

(٢) قرب موقع بورسعيد الحالية .

(٣) Ibidem, pp. 44-57, no IX .

بعد من الاوساط العلمية الى الاوساط التجارية • وكان التاجر الكبير يضيف في أغلب الاحيان ، من ناحية أخرى ، الى هذا التعليم ثقافة حقيقية ، فكان يقبل طواعية نحو التفقه بالدين ونحو الشعر • ففي بداية القرن الحادي عشر كان شقيق الشاعر ابن اللبّانة في الاندلس يقرض الشعر أيضا ، ولكنه لم يجعل من القريض مادة للتكسب، لأنه كان تاجرا، وفي مقابل ذلك نال الشاعر أبوبكربن عبد العزيز مبلغاً كبيراً من المال لقاء احدى قصائده ، فأقام في المرية كي يتعاطى فيها تجارة مجزية •

هذا كما كان التاجر الكبير يلعب دور حامي الفنون والآداب والعلوم الى جانب دور المحسن بفضل صدقاته وعونه لفقراء طائفته ، فكان يساهم بأمواله في تجميل دور العبادة من جوامع وكنس أو كنائس ، حسب ديانته ، وفي تشييد المؤسسات الخيرية ، وتشمل هذه العبارة في الاسلام الانشاءات ذات الصالح العام كالمدارس أو سبل الشـرب مثلا • فكان التاجر يؤمن المأوى والغـذاء للطلاب ، والاساتذة ، كما كان يوفر المأوى للحجاج المسافرين • وكان يقوم أغنياء تجار الطوائف اليهودية في الاسكندرية وفي القاهرة بافتداء أبناء طائفتهم الذين سقطوا أسرى بأيدي المجاهدين المسلمين في البحار ، مقابل ثلاثة وثلاثين ديناراً ونصف عن كل رأس ، وهو سعر متعارف عليه في كل حوض البحر الابيض المتوسط ، وهو نوع من « ضمان شخصي » لكل تاجر في السفر •

وكان التاجر يعيش في رغد من العيش ضمن قصره بالمدينة ، في وسـط حشد من عبيده وأتباعه ، وبين مجموعات كتبه ، وتذكارات سفره والاشياء الثمينة النادرة • وكان مستواه الاجتماعي الرفيع ، هو مستوى شخصية هامة ، فالتجار الذي يشتبه بهم أو يظن بهم التورط في ثورة مثـلا كانوا يتعرضون للتوقيف ، ولكن كان الحاكم يستضيفهم على مائدته • كما كان هؤلاء التجار يتوصلون أحيانا لمجلس وزراء الدولة ، كنموذج **الجهبد** ، وهو نموذج صاحب المصرف الرسمي الكبير ، صاحب الاتصالات مع الحاشية ، والذي يقرض الخليفة

وكبار الشخصيات ، والذي يعطي مثلا متميزاً عن هذه العلاقات . ولكن كان لهذا التاجر مجالات أخرى.. فهو الذي يزود القصر بالمؤمن، ولاسيما من البضائع الثمينة ، أو يكون ملتزم الضرائب . وقد كان بعض أصحاب المصارف اليهود في حاشية الخليفة يتسلمون حصيلة ضريبة اقليم الاهواز ، كي يوظفوها فوراً في صفقات السكر الكبيرة أو في تجارة الاقمشة وكانوا يدفعون للخليفة صكوكاً بالامر لسحبها من أموالهم في بيوتاتهم ببغداد . وكان هؤلاء **الجهابذة** يحققون بهذه الطريقة حركية الاموال عن طريق زمرة من الوصولات الكتابية بين الاقاليم وبين بيت المال الخليفي .

وعلى أساس هذا السمو الاجتماعي كان باستطاعة التجار بلوغ وضع رسمي حقيقي هو التطلع للوزارة ، أي الى الاشراف على مالية الدولة . ولكن هذه الشخصيات التي تبلغ أسمى الدرجات وأقصى النفوذ كانت تتعرض أحيانا أيضا الى نوائب ونكبات فجائية ، والى سقطات مريعة ، مصحوبة بمصادرة أرزاقهم، مما يضع خاتمة لنشاطهم . ولدينا مثال شهير عن ذلك ، وهذا ضمن اطار القاهرة ، ، في بداية عهد الخليفة المستنصر ، الذي عاش بين ١٠٣٦ و ١٠٩٤ م. فقد قدم أخوة من أسرة التشتري ، وهم صيارفة من يهود الاهواز وتجار الاحجار الكريمة في المحيط الهندي والصين ، قدموا للخليفة الظاهر الذي حكم بين ١٠٢١ و ١٠٣٦ جارية سوداء حسناء ، وقد أنجبت هذه المستنصر الذي تولى الخلافة فيما بعد ، والتي راحت تحكم مصر بعد موت الظاهر ، كوصية على ولدها بالتعاون مع سادتها اليهود السابقين. وقد استمر «حكم» الاخوة «تشتري» مدة اثنتي عشرة سنة ، أي من ١٠٣٦ الى ١٠٤٨ ولم يتوقف « حكمهم » إلا بتدخل وزير يهودي الاصل أيضا ، ولكنه اعتنق الاسلام . فبعد أن تسنم هذا الوزير مقاليد الحكم بدعم من أسرة تشتري المذكورة ، قام باغتيالهم بالاستعانة بالحرس التركي ، ولكن الملكة الوالدة انتقمت لمقتلهم وتآمرت على قتله بعد تسعة شهور .

وفي ذلك مثال ساطع ، ولكنه ليس بالحادث المنعزل الوحيد[1] . فهناك أمثلة كثيرة أخرى تنم بالفعل عن ثراء وسلطة[2] هذه الطبقة المؤلفة من أكابر التجار ، الذين كانوا أناسا ذوي نفوذ ، ولم يتورع بعضهم عن التورط في

---

(١) وهناك حادثة تدل على مدى تحكم اليهود في السلطة لدى بعض الحكومات الاسلامية نتعرف عليها من خلال قصيدة ابي اسحق الفقيه الالبيري الاندلسي التي يشكو فيها مرَّ الشكوى من استبداد الوزير اليهودي ابن نغريلة الذي يقال أنه تعرض لتسفيه بعض الاحكام الدينية الاسلامية . وقد ادت هذه القصيدة وما نتج عنها من هياج الجمهور الى القضاء على مايربو على أربعة آلاف يهودي ونهب اموالهم ، وتدمير منازلهم وذلك في عام ٤٥٩ هـ . وكان صاحب غرناطة حينذاك باديس الصنهاجي المتوفى سنة ٤٦٧ هـ . ويقول صاحب نفح الطيب « ولما استوزر باديس صاحب غرناطة ، اليهودي الشهير بابن نغريلة ، واعضل داؤه المسلمين ، قال زاهد البيرة وغرناطة أبو اسحق الالبيري قصيدته النونية المشهورة التي منها في اغرائه صنهاجة باليهود ... » . « وهي قصيدة طويلة ، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير المذكور فاراح الله البلاد والعباد ، ببركة هذا الشيخ ، الذي نور الحق على كلامه باد » .

الا قل لصنهاجة أجمعين … بدور الزمان واسد العرين
مقالة ذي مقة مشفق … يعدّ النصيحة زلفى ودين
لقد ذلّ سيدكم ذلة … تقرّ بها اعين الشامتين
تخيّر كاتبه كافرا … ولو شاء كان من المؤمنين
فعزّ اليهود به وانتخوا … وتاهوا ، وكانوا من الارذلين
ومنها : فكم مسلم راغب راهب … لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم … ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالالى … من القادة الخيرة المتقين
وانزلهم . حيث يستاهلون … وردّهم أسفل سافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا … ولم يستطيلوا على الصالحين

وفيها يخاطب السلطان :

اباديس ، انت امرؤ حاذق … تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفى عنك ما يعبثون … وفي الارض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا … وقد بغّضوك الى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى … اذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت الى فاسق … وقارنته وهو بئس القرين
ومنها: وانني حللت بغرناطة … فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها واعمالها … فمنهم بكل مكان لعين
ومنها: وهم امناكم على سركم … وكيف يكون امينا خؤون
ويأكل غيرهم درهما … فيقصى ويدنون اذ يأكلون
وقد ناهضوكم الى ربكم … فما يمنعون وما ينكرون
ورخّم قردهم داره … واجرى اليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده … ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا … فإنّا الى ربنا راجعون

(٢) وهناك ايضا ابن كلّس اليهودي الذي كان وزير المال لدى احد الخلفاء الفاطميين.

مؤمرات البلاط ، والذين كانوا يؤلفون حلقة اتصال بين حاشية القصر وبين الاوساط الثرية في المدينة . وقد كانوا الى جانب كتاب الدواوين والحاشية العناصر الرئيسية في حياة العالم الاسلامي الاقتصادية ودعامة ونَقَلة حضارته اللامعة بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلادي .

عَامَةُ ٱلشَّعْبِ فِي ٱلْمُدُنِ وَٱلأَرْيَافِ

السوق ، هو مركز المدينة الاقتصادي مع عامة أهله التقليديين : من حرفيين، وأيد عاملة حرة أو من العبيد،ومن الدلالين الوسطاء والحمالين. ولما أصبحت أسباب معيشة هؤلاء عسيرة أكثر فأكثر فقد غدوا بالتالي عرضة للشغب والاضطراب ومن جملة عناصر الفوضى بصورة متزايدة،وكثيراً ما كانوا مادة للفتن والثورات.

أما في الارياف فكان يعيش صغار الملاكين المفلسون مع المياومين البؤساء. وكان أثرياء مرابي المدن يعمدون الى طردهم من أراضيهم والى توظيف قسم من أرباحهم الضخمة التي تحققها لهم التجارة في عقارات ، وكانت المدينة تزيد من نفوذها على الريف عاما بعد عام . ومن جهة أخرى كان سكان الارياف ينوؤون تحت وطأة الضرائب التي كانت نسبتها تتزايد مع تناقص قدرة العملة الشرائية والتي كان تحصيلها مطلوبا بإلحاح من قبل الجهاز الاداري الاوراقي(١) Parperassière في الامبراطورية الكبرى المتمركزة . وتقدم المصادر المسيحية من نسطورية ويعقوبية لوحة مفصلة عن هذا البؤس في عالم الريف بالنسبة لشمالي بلاد الرافدين وبلاد الشام ، وهي تواريخ سريانية تعود للقرنين التاسع والعاشر ، وكذلك وثائق البردي المصرية . ولم يكن هناك عندئذ من خلاص سوى الهرب الى خارج القرية : فكان يهيم الهاربون ، والمطرودون من أراضيهم، على وجوههم في كل مكان تقريبا ، محاولين التخلص من الضريبة الاميرية ومن دائنيهم الحضر منزلقين شيئا فشيئا نحو احتراف قطع الطريق على السابلة والنهب.

(١) أي جهاز حكومي يشكو من فرط البيروقراطيين الطفيليين .

وقد أصبحت الثورات جرح الريف الدامي • وكانت الحكومة تكافح هذه الاضطرابات بقصد تأمين الاستقرار والحصول على الضريبة المفروضة ، واخضاع الاراضي للزراعة • أما في مصر فقد تأسس مكتب خاص للبحث عن الهاربين وصدر جواز سفر اجباري : فبالنسبة للاشخاص المتميزين كانوا يحملون وثيقة مختومة ، أما بالنسبة للبؤساء فكان يطبع ختم على ذراعهم أو يدهم ، أو كانوا يحملون علامة من رصاص معلقة في أعناقهم •

ويفسر هذا البؤس الذي اعترى العوام في المدن والارياف وجود حركات اجتماعية بصورة منعزلة ، تحمل عناصر سحرية دينية مع توقع ظهور المهدي بصبر نافذ • وكانت هذه الحركات تحرض ثلاثة أوساط مختلفة هي : الفلاحين، الارقاء ، والسوقة في المدن •

أما في صفوف الفلاحين فقد شهد ذلك العصر يقظة اتجاهات قديمة ايرانية نحو المساواة في الملكية الزراعية ، تلك الاتجاهات التي سبق أن أوحت بالحركة المزدكية في عهد الساسانيين حوالي نهاية القرن الخامس ، والتي ارتبطت اجتماعيا أيضا بالاندفاع الاقتصادي وبنهضة الحركة العمرانية • ولقد كانت ايران وبلاد ما بين النهرين خلال القرنين الثامن والتاسع مسرحا لثورات كان يتزعمها مدّعو النبوة الذين كانوا ينادون بأفكار مزدك ، ولاسيما سنباد الموبذان (٧٥٤ — ٧٥٥) وأوستاضاسيس الذي ظهر بين ٧٦٦ و ٧٦٩ وكلاهما كانا مرشدين وزعيمي حركة اختلطت فيها الاحقاد الناجمة عن اغتيال أبي مسلم الخراساني ، الذي يعتبر رائد الحركة العباسية العلوية في بداياتها • وقد أشير بعدئذ ، أي في عام ٧٧٤—٧٧٥ ، الى وقوع ثورة في أرمينية ، بسبب المظالم الضرائبية والبؤس ، ومن ثم تلتها حركة « النبي المقنّع » في خراسان وذلك خلال الفترة الواقعة بين ٧٧٠—٧٨٠ م ، ثم تمرد الباطنيين في جرجان ، أي في البلاد الواقعة في الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر الخزر والتي استفحل بها مذهب « الرايات الحمراء » في عام ٧٨٢ — ٧٨٢ • وحوالي العام ٨٠٠ وفي عهد

الخليفة هرون الرشيد استفحلت الحركة الخرّمية في خراسان والتي تجسدت في ثورة بابك بين ٨١٦ و ٨٣٨ وهي أشد هذه الانتفاضات خطورة •

فبعد أن دمج بابك كل المطالب الاجتماعية والسياسية السابقة أخذ يستفز سكان آذربيجان ، وانطلاقا من قلعة جبلية جعل منها مقر قيادته التي كان يعيد فيها تنظيم قواته بصورة منتظمة ، راح يندفع بحركته لمسافات أكثر بعداً ، أي حتى أرمينية غربا ، والى خراسان شرقا ، فالعراق جنوبا • وبعد أن سرت عدوى حركته على كل ايران وعلى شطر من بلاد ما بين النهرين أخذ ينهب القوافل ويعرقل التجارة • وقد تمكن من مجابهة بضعة جيوش جردت عليه من المرتزقة الاتراك وأخيراً سقطت قلعته ، وألقي القبض عليه وحُمل للخليفة المعتصم الذي فرض عليه عقابا كانت شدته على مستوى المخاوف التي سببها للدولة ، فقد طيف به في بغداد على متن فيل بعد بتر يديه ورجليه ، مع يافطة تعدد جرائمه ، وقد خيط جسمه في جلد ثور طري ، وكان القرنان على مستوى أذنيه ، كي يتعرض رأسه للانضغاط تدريجيا بالجلد المعرض للتجفف ، ومن ثم ربط جسمه الى خشبة المشنقة الى أن فاضت روحه •

وهناك حركة فلاّحية أخرى ، ونقصد بها ثورة الزط في العراق الادنى في عهد الخليفة المأمون أي بين ٨١٣ و ٨٣٣ وهؤلاء الزط Djatts أو Tzigane هم هنود يعود أصلهم لنهر الهندوس الادنى وقد أجلوا الى مناطق الاهوار في جنوبي العراق ، في منطقة برمائية حيث يكثر فيها غاب القصب ، وحيث انصرفوا لتربية الجاموس • وبعد أن سحقهم البؤس لم يكن أمامهم سوى التمرد الذي كان عبارة عن احتجاج المنبوذين،وبعد قليل التحقت بهم جماعات الرقيق الآبقين• وبعد أن ألحقت بهم الهزيمة سيقوا نحو التخوم البيزنطية والى شمالي بلاد الشام ونحو مستنقعات الغاب على نهر العاصي ، ومن هناك انتقلوا الى الاناضول فبلاد البلقان وبوهيميا في ألمانيا •

أما بالنسبة للارقّاء فأول حركة شهيرة هي تلك التي حدثت في عام ٧٧٠ ،

وهو التاريخ الذي ثار فيه العمال السود في المزارع وفي المناجم . ولكن ثورة هذه الجماعات السوداء ذاتها كانت في أوجها عام ٨٦٨ في العراق الادنى حيث أعلنوا تمردهم والتجأوا الى أهوار الفرات الادنى ، أي الى المكان نفسه الذي ثار فيه الزط قبل ذلك بحوالي ثلاثين عاما ، وكانوا بزعامة فارسي اتخذ لنفسه لقب « صاحب الزنج » ولقبه الناس « الخبيث » وكان يدعي أنه من سلالة الإمام علي وانحاز للنظريات المزدكية ، واستطاع أن يجابه الخلافة على رأس قواته لمدة خمسة عشر عاما ، أي حتى ٨٨٣، وتسبب في حدوث أشكال رهيبة من التخريب. وقد انضم الى العبيد المتمردين آبقون جدد . وقد استطاعوا أن يكبسوا وأن ينهبوا ويدمروا مدن الخليج الغنية وكذلك مدن العراق الادنى مثل الأبلة والاهواز والبصرة وواسط بعد أن أبادوا سكانها . وبذلك أصيبت الحركة التجارية بين بغداد والخليج العربي بالشلل . وقد تمكن الثوار من صد كل جيوش الخلافة بسبب صعوبات ميدان المعركة بالاضافة الى اندفاع وحماس المتمردين ، وأخيرا أخذ شقيق الخليفة الموفق على عاتقه مهمة قمع هذه الحركة وتمكن من محاصرة الزنج تدريجيا في زاوية من منطقة الاهوار . وبعد أن صمد رؤوس الفتنة لحصار طويل في آخر معاقلهم ، سقطوا بالأسر مع أتباعهم وأعدموا.

وأخيراً كان العوام من أهل المدن يتعرضون في بعض الاحيان لبؤس أشد من الذي تعرض له أهل الارياف مما كان يجعلهم هدفاً لاضطرابات لا تكاد تهدأ. ففي بغداد مثلا أصبحت الفئات البائسة في وقت من الاوقات الآمرة الناهية وذلك على أثر الهرج الذي وقع في أعقاب الخلاف بين الامين والمأمون على تولي منصب الخلافة ، ودعيت « ثورة العراة » . وفي عهد المأمون ، بين ٨١٣ و ٨٣٣ تمرد العمال الاقباط في دلتا النيل ، وكانت ثورة اجتماعية حقيقية ، في منطقة صناعات نسيجية مترفة ، موزعة في أعداد كبيرة من المصانع ، وفي زمرة من المدن الصغيرة. وهنا أيضا اتسعت الحركة وامتدت على منطقة أهوار ، هي مستنقعات الدلتا وعلى وجه التحديد في بحيرة بشتوم . وقد كان الوضع على درجة من الخطورة استدعت

ارسال جيوش وقدوم الخليفة بنفسه . وتمّ نفي المتمردين بعد هزيمتهم بالآلاف وبيعوا كعبيد في بلاد الشام وفي العراق . وقد أدى نقل هذه الجماعات لانتقال بعض التقنيات المصرية في النسيج . وقد استخدم هؤلاء المتمردون القدامى ، من ناحية أخرى ، في حرب الزط بسبب خبرتهم السابقة في معارك الاهوار .

وهكذا تبدّت للعيان الانتفاضات الفلاحية في القرن الثامن والتاسع والتي تستمد بواعثها من مذهب المساواة القديم في ايران ، وكذلك ثورات الرقيق وانتفاضات أهل المدن . أما في القرن العاشر فان كل هذه الحركات غير المتناسقة، والزائغة ، وغير المتجانسة ستندمج في فتنة واسعة منسجمة : هي القرمطية التي التبست في بداياتها مع الحركة الفاطمية وامتدت من ايران ومن الخليج العربي حتى مصر وأفريقيا الشمالية مع فروع امتدت حتى الاندلس ، حركة زعزعت قواعد كل العالم الاسلامي تقريبا .

وقد كانت القرمطية قبل كل شيء عبارة عن بداية لتنظيم جديد في عالم العمل ، هو التنظيم النقابي Corporations ، وهي نقابات المهنة ، ذات المحتوى الاجتماعي والطابع السرّي intiatique ، والتي تختلف بشدة عن المينيستريا ministria في الامبراطورية الرومانية السفلى وفي الامبراطورية البيزنطية . فما كان يدعى المينيسترويوم (أو كولليجيوم) في الامبراطورية السفلى كان عبارة عن تنظيم ، أو جمعية حرفيين تحت مراقبة موظفي الدولة . وقد استأنفت بيزنطة هذا الطراز من الترتيب مع السوماته Somata أو الجماعات الحرفية ، كما فعل الساسانيون نفس الشيء . وقد استمرت هـذه المنظومة بعد الفتح الاسلامي ، وكان الوالي وموظفوه يقومون بالاشراف على الاسواق ومراقبة الصناع . أما في القرن العاشر فقد تبدل كل شيء لان الجمعية الحرفية ، حسب أنموذجها الجديد ، لم تعد مؤسسة رسمية ، حتى انها كانت تدخل أحيانا في نزاع مع السلطة . فقد غدت من الآن فصاعداً جمعية أو شركة ضيقة هي عبارة عن « طريقة » نظراً لما تحويه من طقوس بالنسبة للمستجدين ، وحلف اليمين السرّي

وبرؤسائها المنتخبين ، الذين يدعون المعلّمين ، ومجالس مؤلفة من رؤساء ومن عقيدة صوفية اجتماعية في آن واحد •

وهكذا كانت الحركة القرمطية منذ نشأتها حركة اجتماعية وصوفية وسياسية في آن واحد • أما عقيدتها فتوفيقية بين مذاهب شتى ، نضجت في بوتقة العالم الاسلامي ، فهي تجمع شيئاً من المذهب العلوي ، مع اتجاهات رافضية ، وأفلاطونية جديدة ، ومانوية ، ومزدكية ، وشيئاً من مبدأ المساواة الذي نادى به بابك الخرّمي • وترتكز القرمطية ، التي انطلقت من بيئات حرفية وتجارية ، على تنظيم سري مع مستويات في التدرج ومندوبين سريين ، مهمتهم تهيئة الجو لقدوم « الإمام » المخفي ، أي المهدي ، مثلما تعتمد على تنظيم مشترك مع ديانات أخرى ، يضم النصارى واليهود والمزدكيين والرافضة • وهكذا نشرت القرمطية ، التي تضم بالفعل الاتجاهات المعارضة التي ظهرت في القرنين التاسع والعاشر ، والتي عاصرت في وقت ما أقصى نمو تجاري وصناعي وعمراني ، وتضم في حركة جماعية الاضرابات والازمات الاجتماعية والانتفاضات ، أقول نشرت القرمطية عقيدة فريدة ، لا مثيل لها ، عقيدة تلح على حرية الفرد ، وعلى التنكر للشريعة الاسلامية ، والتوكيد على الطابع النسبي في كل منظومة من العلاقات البشرية •

أما على الصعيد السياسي والزمني فقد تمخضت هذه الحركة ، في القرن العاشر ، عن الخلافة الفاطمية التي امتدت سلطتها وعقيدتها ، انطلاقا من افريقية وصقلية ، فشملت مصر والشام وغربي شبه جزيرة العرب ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى انتشرت سلطة القرامطة على بلاد الخليج العربي : مثل شرقي جزيرة العرب والساحل الفارسي وجنوبي العراق • أما على المستوى الاجتماعي والروحي ، فإن القرمطية كانت تعرض أسلوباً جديداً في نمط الطرق الصوفية الاسلامية Confrérie ، ذلك الاسلوب الذي ظهر خلال القرن العاشر ، وذلك

أولا في المناطق التي كانت خاضعة للفاطميين والقرامطة ، والذي احتفظ ببعض ملامحه الجوهرية في العالم الاسلامي حتى أيامنا هذه .

ومن المؤسف أن يكون من المتعذر دراسة تاريخ حركة سرية مثل هذه بصورة عميقة ، حركة ترتاب بكل وثيقة مكتوبة ، وترجح الإعلام والمسارّة الشفوية initiation . وهناك صعوبة أخرى وهي اتّصاف الكتابات القرمطية بالطابع التلميحي والرمزي ، وهذا استناداً الى الحكم الذي نمنحه لما وصلنا من نصوصها . وهناك واقع يبدو مؤكداً على الاقل : وهو الاهتمام الذي أبداه مؤسسو المذهب نحو العمل بصورة عامة ، ونحو تقنياته وتنظيمه . فقد أشادوا بنبل المهنة اليدوية .

أما في الاقطار التي تتبع المذهب السني ، أي التي لم تكن قرمطية ولا فاطمية ، فقد كانت النقابات عرضة للمضايقات ، هذا اذا لم تكن خاضعة لرقابة شديدة ولشتى أنواع التقييدات التي تنم عن استمرار حالة انعدام الثقة التقليدية من جانب السلطة ، وهو ارتياب لم يتخفف تماماً ببعض التعديلات التي أضيفت الى مبادىء أو الى الطقوس بتأثير النقابات القرمطية الجديدة وذلك على خلاف الاقطار الفاطمية حيث كانت النقابات تتمتع بازدهار كبير ، وكانت الدولة تعترف بها . وبعد تأسيس القاهرة بقليل ، في عام ٧٩٠ ، شهدت احداها نجاحاً كبيراً، وهي نقابة أساتذة وطلاب جامعة الازهر ، والتي تم تدشينها سنة ٩٧٣ م . ونرى في ذلك برهانا على الاهمية التي أولتها النظرية القرمطية للتربية والتعليم ، تلك الاهمية التي تؤيدها من جهة أخرى تلك الموسوعة الشهيرة ، الموسومة بـ « اخوان الصفا » ، والتي يتراءى لنا من قراءتها الاهتمام بتبجيل العمل بصورة عامة ، من فكري أو يدوي . ونظراً لتألق الحركة القرمطية في مصر ، فقد ساعدت على الارتقاء بالبلاد صناعيا وتجاريا ، والتي وجدت بالواقع تعويضها ، فعن طريق هذا الرقي انتشرت القرمطية على سواحل البحر الاحمر وفي المحيط الهندي .

ولكن صلاح الدين الايوبي قام عام ١١٧١ بكبح جماح هذه الحركة فورا ، وهذا في مصر على الاقل ، اذ حرم هذه النقابات من امتيازاتها •

هذا ويكون التداخل الديني في النقابات هو عنصر التمايز الجوهري عما كان عليه الحال في الغرب • وتذكرنا هذه الظاهرة بأن الشرق هو مرادف للشمولية العالمية ، وللانفتاح ، وللخلط وللتوفيقية ، في حين كان الغرب منطوياً على نفسه، منغلقا • ففي النقابات الشرقية كان المسلمون واليهود والنصارى يتمتعون جميعاً بالمساواة ، حتى أن غير المسلمين كانوا يؤلفون الاكثرية في بعض النقابات ، ولا سيما في نقابة الصاغة ، وتجار المعادن الثمينة وأرباب المصارف ، حيث كان اليهود يلعبون الدور الرئيسي • هذا كما كانت أكثرية الاطباء من اليهود ومن النصارى•

* * *

وهكذا نتوصل الى التعرف على ولادة هذه الحركة النقابية الجديدة وذلك بعد أن نربط مرة أخرى بين تلك النهضة الاقتصادية الفجائية في العالم الاسلامي وبين التوترات الاجتماعية الناجمة عنها • ونذكر من أهم مميزات هذه الحركة : طقوس الانتساب ، تضامن الجماعة ، أداء اليمين ، رؤساء منتخبون ، عقيدة صوفية واجتماعية ، وعلى هذه المميزة الاخيرة يجب أن نلح أكثر من سواها • فهي التي تميز النقابة الاسلامية عن التنظيمات القديمة مثل الكولليجيا في الامبراطورية الرومانية السفلى أو السوماتة البيزنطية ، وعن الجمعيات الحرفية في فارس الساسانية ، فكل هذه كانت من أصل رسمي ، حكومي ، وعبارة عن تجمعات بسيطة للصناع خاضعة لرقابة وثيقة من قبل الموظفين الحكوميين ولتنظيم مفروض من قبل السلطة •

إلا أن هذه النقابات الاسلامية لم تكن خالية من رواسب الانماط القديمة• فقد كانت هذه ، على العكس ، رواسب شرقية انصهرت من جديد في توفيقية جديدة ، والتي تميز النقابة الاسلامية في القرن العاشر ، كما رأينا ، عن النقابة

الغربية في القرن الحادي عشر والثاني عشر ، فالنقابة الغربية تأثرت بلا ريب ببعض ملامح النقابات الشرقية ، ولكن بعد أن واءمت بينها وبين بيئة مختلفة ، منطوية على نفسها ، والتي لاتزال تحمل في تضاعيفها ملامح ريفية • وسنلاحظ أخيراً أهمية الحركات الرافضية في أصول النقابات الاسلامية ، وهي حركات نجـد صداها لدى الباتارين Patarins [1] وهو اسم أطلق في القرن الحادي عشر على أعضاء مختلف المذاهب المنشقة المانوية في شمالي ايطالية ، أو في حركات الالبيجيين Albigeois [2] في حوض اكيتانيا ، بجنوب غربي فرنسا ، في القرن الثاني عشر ، والذين كانت تحركهم ، كالقرامطة ، اهتمامات دينية واقتصـادية وصوفية واجتماعية • وليس هناك من داع للدهشة اذا ما عثرنا لدى الباتاريين، أو لدى الالبيجيين على عناصر شرقية ومانوية ، لان ايطاليا الشمالية ومنطقـة أكيتانيا الفرنسية كانتا واقعتين عند ملتقى طرق التجارة الكبرى ، تلك الطرق التي كانت تربط الشرق بالغرب •

---

(١) وهو اسم اطلق في العصر الوسيط على اعضاء عدة مذاهب هرطقية مانوية ولا سيما في ايطاليا الشمالية وامتدت حركتهم من القرن الثاني عشر الى الثالث عشر •

(٢) الالبيجية : حركة قام بها هراطقة في جنوبي فرنسا منـذ مطلع القرن الثاني عشر ، والـذين اثارتهم حياة الترف والبذخ في بلاط دوقات مدينة طولوز ورفضوا أسرار القربان المقدس وابطلوا الطقوس الكاثوليكية وكان لهم كهنتهم او الاخيـار ، وألغوا التملك الشخصي والخدمة العسكرية وكـل شكل من أشكال السلطة وقد جرد البابا اينوسانت الثالث عليهم حملة صليبية في عام ١٢٠٨ وقد خربوا العديد من المدن في جنوبي فرنسا مثل بيزييه وكاركاسون وتم القضاء عليهم سنة ١٢١٨ •

الجزءُ الثالثُ

حركة المبادلات

الفصل الثامن

المنتجات والسلع التجارية

إن الطابع الرئيسي في المناخ الاقتصادي الذي تطور ضمنه انتاج العالم الاسلامي كان التوسع في الطلب على الاستهلاك ، استهلاك متنوع ، ناجم عن نشوء مدن ضخمة ، ذات حاجات أكثر الحاحاً ، سواء من حيث الكمية أو من النوعية ، بسبب ارتفاع مستوى المعيشة ، ولكن أيضا لوجود استهلاك مترف ، ناتج عن مطالب القصور الملكية والطبقات الغنية من السكان .

ومن المناسب في البداية أن نعمد الى دراسة جغرافية الانتاج التي تؤدي الى ظهور قائمة للسلع التجارية محددة الامكنة بصورة دقيقة . ولن تكون الخريطة المرسومة في خاتمة هذا التحقيق مجرد شرح لهذه المنتجات ، بل ستلقي النور على زمرة من المسائل . وستسمح دراسة كل قطاع انتاجي استناداً الى مراكز الاستهلاك التي تتطلبه ، ستسمح لنا بتمييز المنتجات المستهلكة محليا عن تلك التي يجري تصديرها لمسافة متفاوتة في بعدها ، أو بعبارة أخرى السلع

التجارية • وهكذا سنتمكن من تخمين تطور الحاجات والتعرف الى شكل وقوة المراكز العمرانية الكبرى في مختلف فترات تاريخها: نشوء ، تطور ، نهضة، انحطاط •

ان مانرمي اليه في النهاية ، هو التوصل لمعرفة جغرافية المنتجات، جغرافية تكون ديناميكية في المكان ، أي مشاكل التموين ، وفي الزمان ، أي مسألة تغيرات الطلب على الاستهلاك • وستكون دراسة أشكال الانتاج على شكل مجموعات كبيرة من المحاصيل أول مخطط عن صورة الخطوط الكبرى للشبكة التجارية، تحت هيمنة معطيات الجغرافيا الطبيعية والبشرية • وهكذا سندرس النباتات الغذائية ، ومنتجات تربية الماشية ، والاخشاب ، ومنتجات الغابة ، والاسلحة والمعادن ، المنسوجات والاقمشة ، والمنتجات الحجرية والترابية ، المنتجات البحرية ، وأدوات الكتابة : البردي ، الورق والرق ، المنتجات الصيدلانية ، والعبيد •

النَباتَاتُ الغِذَائيَة

يكون غذاء الشعوب الحضرية الشرقية وشعوب البحر الابيض المتوسط نباتياً بصورة جوهرية • فهو يقوم على الحبوب ، من دقيق وخبز وجريش وبرغل وكسكسي ومعجنات مختلفة ، وعلى الزيتون ، الذي يقدم زيته المادة الدهنية الاولى في المطبخ ، وعلى الخضار والثمار ، ولاسيما العنب الذي يعطي الخمر الذي يتصف به العصر القديم في منطقة البحر الابيض المتوسط ، وعلى التمر ، الذي هو أساس غذاء سكان الواحات • ويفترض هذا الغذاء النباتي ، الباهت المذاق بحد ذاته ، يفترض وجود التوابل والبهارات•

أما غذاء الاقوام البدوية في آسيا الوسطى وايران وجزيرة العرب والصحراء الكبرى فكان ، على العكس ، يستند على منتجات القطعان من لحوم وألبان ، أما المادة الدهنية في المطبخ فتتألف من الشحم أو من السمن •

ويجب أن تكون دراسة العادات والنظم الغذائية ، وهي مظهر هام ، لانها المحرك للتاريخ الاقتصادي،يجب أن تكون مصحوبة بدراسة تنقل النباتات.فالمزروعات القديمة في حوض البحر الابيض المتوسط تتألف على الخصوص من مزروعات الارض البعلية[1] كالحبوب من شعير وقمح والزيتون والكرمة . أما المزروعات التي انتقلت اليه مستوردة من الخارج فقد كانت حصراً مزروعات مروية : كالرز وقصب السكر والبرتقال والنخيل ، شأن النباتات الصناعية مثل القطن والنيلة . وقد كان ادخال هذه المزروعات الجديدة ، من مدارية وشـبه مدارية ، مرتبطا بالطبع بتوسع النطاقات المروية ، وبالتقدم الطارىء على تقنيات الري كاستخدام النواعير . وقد ساعد نشوء العالم الاسلامي ذاته على انتقال هذه الزراعات ، أو على الاقل ، على تكثيفها ، والذي أدى لتلاحم عالم المحيط الهندي بعالم البحر الابيض المتوسط ، ونتج عن ذلك تماس نطاقين متكاملين من حيث منتجاتهما . ومنذ ذلك الحين أصبحت الطرق التجارية الكبرى التي كانت تستخدم لمبادلة المنتجات تستخدم أيضا لنقل المزروعات ، وتؤلف دراسة الحقب التي تمت فيها هذه العمليات الاخيرة ، والطرق التي سلكتها ، والتوسع التدريجي الذي شهدته، واغناء المشهد النباتي الذي نتج عنها ، أقول تؤلف جميعا فصلا أساسيا في التاريخ الاقتصـادي .

وكانت حاجة المدن الكبرى للمحاصيل الغذائية هي التي تهيمن على طلب الاستهلاك . وهذا الواقع جوهري من حيث دواعيه ومن حيث نتائجه . وقد أدى على الخصوص لتوسع مزروعات البستنة في أطراف المدن الكبرى عن طريق نشوء ضواحي البستنة أو الفحص . وهناك واقع آخر يجدر ذكره وهو قيام بعض المزروعات في مناطق لا تكون الظروف الطبيعية فيها موائمة لها ، مما أدى للاكتفاء بمنتجات من نوعية أدنى اذا كانت في متناول اليد . وهذا ما حدث فعلا في الغرب، حيث زرعت الكرمة في شمالي فرنسا وفي أوروبا بعيداً عن موطنها «الطبيعي».

(١) او الاعذاء ، او زراعة الديم ، اي الزراعة المعتمدة على المطر .

وكانت الامثلة في العالم الاسلامي عديدة في هذا المضمار ، فقامت زراعة قصب السكر في شمالي اسبانيا ، والقطن في بعض مناطق من أفريقيا الشمالية ، والكرمة بجوار أديرة صعيد مصر حيث نقلت الى هناك لتزويد الكنائس بخمر القداس • ولكن الى جانب المحاصيل المذكورة ، كانت هناك أخرى ، اختصّت بها بعض المناطق ونالت شهرة عالمية ، والتي راحت تصدّر بفضل التجارة الكبرى ، والتي نقلت لمناطق تناسبها تماما • ويشير الرحالة والجغرافيون الى « منتجات مشهورة تصدر لسائر الاصقاع » نذكر من ذلك تمر بلاد الجريد ، وجوز تبسّة ، وتـين وزبيب مالقة ، ومشمش ومربيات دمشق •

أما الحبوب وعلى الاخص القمح والشعير فهي من الزراعات القديمة في حوض البحر الابيض المتوسط • وكان الانتاج يعتمد على ثلاث مناطق كبرى ، هي « العنابر » التقليدية في العصر القديم • وتأتي مصر في الطليعة ، وهي قطر ذو كثافة سكانية شديدة ، أي قطر مستهلك ، ولكن لديه مع ذلك فائض ضخم للتصدير : تلك هي « الميرة السنوية » التي كانت تتوجه بالتوالي نحو روما ، ثم نحو القسطنطينية ، ثم الى مكة والمدينة ودمشق • وكانت تجارة الحبوب تؤلف احدى أهم عناصر الصادرات المصرية بواسطة القوافل ، نحو واحات ليبيا وشرقي الصحراء الكبرى ونحو بلاد النوبة ، أو بواسطة السفن نحو برقة ، وباتجـاه الموانىء العربية على البحر الاحمر ، مثل عدن والخليج العربي وعمان والبحرين والبصرة ، وهي المنطقة التي تنطلق منها القوافل الموسوقة بعدول القمـح الى بغداد • وكانت بلاد الشام تصدر بدورها بواسطة القوافل نحو داخل جزيـرة العرب،وعن طريق كوع الفرات عند بالس[1] نحو بلاد ما بين النهرين على شكل أكياس دقيق تحملها المراكب هابطة نحو بغداد ومدن العراق الاخرى • وهكذا نجد أن بغداد واقعة مرة أخرى في قلب التجارة الكبرى للمواد الثقيلة نظراً لقدوم القمح الوارد من مصر بعد الالتفاف بحرا حول شبه الجزيرة العربية ولوصول الدقيق الشامي الهابط بواسطة نهر الفرات ونهر عيسى • وكانت أفريقيا الشمالية

(١) مسكنة الحالية •

تؤلف عنبر القمح الثالث،وتأتي منطقة افريقية[1]في الطليعة،ولاسيما مناطق سهل المجردة ، فكانت باجة ترسل يوميا قمحها نحو تونس والقيروان على شكل قافلة تضم ألف بعير تحمل الحبوب • وبالاضافة الى ذلك كان القمح يتوفر بكثرة في منطقتي قسنطينة وستيف ، وعلى ساحل المحيط الاطلنطي وفي السهول المرتفعة في المغرب الاقصى • وكان قمح افريقيا الشمالية هذا يصدر باتجاه بلاد الاندلس وصقلية بطريق البحر ، ونحو سجلماسة بواسطة القوافل ، وكذلك نحو بلاد الصحراء الكبرى والسودان • وكانت القوافل البربرية هي التي أدت لنقل زراعة القمح كزراعة مروية الى منطقة الساحل السوداني في الفصل الجاف خلال القرن العاشر والحادي عشر الميلادي•

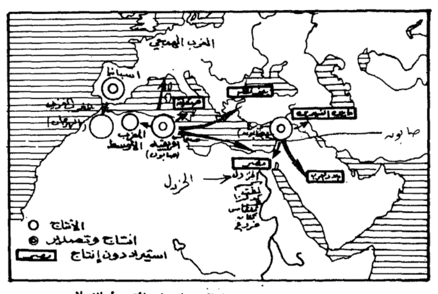
وفي الاتجاه المعاكس كانت الذرة البيضاء ، وهي أهم حبوب أفريقيا السوداء ، كانت تصدر شمالا نحو النوبة وصعيد مصر والواحات الليبية وبرقة ومنطقة التل الجزائرية ونحو بعض المراكز في جنوبي المغرب الاقصى •

أما الرز وهو أسمى الحبوب الآسيوية ، فقد انتشر في ذلك العصر في حوض البحر الابيض المتوسط انطلاقا من الهند حتى منطقة ما بين النهرين حيث كان معروفا قبل الميلاد • ومن العراق راح ينتشر في كل المناطق الموائمة لزراعته في كل الحوض الاسلامي من البحر الابيض المتوسط : أي في المناطق الحارة ، وفي السهول المنخفضة المستنقعية أو المروية • فقد أصبح ينبت مثلا في منخفض الغور ، أي على ضفاف البحر الميت ووادي نهر الاردن ، وفي منخفض الفيوم والواحات المصرية ، وفي جنوبي المغرب وعلى التحديد في السوس الاقصى مع استعمال الري ، ولا سيما في سهول الاندلس ، حيث كان سهل الوادي الكبير وغوطات منطقة بلنسية تحقق انتاجا ضخما • وهكذا أضاف العالم الاسلامي الى الحبوب القديمة المعهودة في حوض البحر الابيض المتوسط زراعة الذرة القادمة من الجنوب والرز الوافد من الشرق •

---

(١) أي بلاد تونس الشمالية •

وهناك أساس آخر للغذاء : هو الزيتون ، وهي شجرة البحـر الابيض المتوسط الاولى لأن رقعة امتدادها تتطابق مع رقعة مناخ البحر الابيض المتوسط ذاته • وكانت مراكز انتاج وتصدير الزيت عديدة • وتأتي افريقية في المقدمة، وعلى الخصوص من منطقة الساحل التونسي حيث توجد « غابة الزيتون » وهي أروع حلية موروثة من العصر الروماني والتي ظلت حتى تخريبات القرن الحادي عشر على اثر الزحف الهلالي • وكانت صفاقس كما هي اليوم ميناء التصدير الاول لانها « ميناء الزيت » حسب قول ابن حوقل : فكان يصدر منها الزيت الى مصر ، وهو قطر محروم من الزيتون ، ونحو طليطلة وايطاليا وبيزنطة والمغرب الاوسط • أما بلاد الشام فهي تعرف الزيتون ابتداء من جنوبي فلسطين حتى منطقة انطاكية • وهذه البلاد تعتبر مصدّرة تقليدية كبيرة فكانت ترسل زيتها بواسطة القوافل الى مصر والى جزيرة العرب وعن طريق كوع الفرات الى بلاد ما بين النهرين • وكانت اسبانيا تقوم بتصدير زيت منطقة الوادي الكبير الـى المغرب الغربي ولا سيما زيت منطقة الشرف Aljarafe الواقعة شمالا شرقي اشبيلية ، أما في المغرب الاقصى فقد أخذت زراعة الزيتون تتوسع فيه تدريجيا في



شكل ١٧ ـ تجارة زيت الزيتون في البحر الابيض المتوسط الاسلامي

منطقتي فاس ومكناس « مكناس أشجار الزيتون » حيث راح يحتل شيئا فشيئا رقعة شجرة الهرجان • أما في المغرب الاوسط فقد توصلت جبال القبائل الى مرحلة الانتاج الكبير ، ولكن لتأمين حاجة استهلاك لا يزال محليا ، في حين كانت مصر التي لا تنتسب لمناخ البحر الابيض المتوسط ، ولا تعرف الزيتون ، كانت تلجأ من أجل تأمين حاجتها من الزيت للاستيراد من بلاد الشام ومن افريقية ، كما كانت تستهلك في مصر زيوت من انتاج محلي مثل زيت الفجل وزيت السمسم «السيرج» واللفت،والكولزا ، وحبوب الخس ، والقلقاس ، والكتان والخروع • ولا يجوز أن ننسى في معرض كلامنا عن الزيتون انه كان يغذي الصناعات المشتقة من الزيت مثل الصابون وزيت الزينة الذي كان أساس صناعة العطور ، وهنا أيضا نقول أن أهم مركز الصناعة والتصدير لهاتين المادتين كانت بلاد الشام وأفريقية •

وكما هو حال الزيتون فإن الكرمة كانت زراعة قديمة في حوض البحر الابيض المتوسط وانتشرت منذ عصر بعيد انطلاقا من بلاد الشام ، وهو القطر الذي جعلت الديانات القديمة فيه من الخمر استعمالا كهنوتيا • وقد حظر الاسلام الخمر وحرمه حتى ان بعض الخلفاء الورعين مثل الحكم الثاني في قرطبة ، أو الحاكم الفاطمي ، هدودا باقتلاع أشجار الكرمة واستئصالها • ولكن الواقع هو أن التساهل كان هو الغالب ، اذ ظل استهلاك الخمر كثير الانتشار في مجمل العالم الاسلامي وعلى الاخص بالنسبة للجماعات غير المسلمة ، كما أن الخمريات في الشعر لم تكن مجهولة حتى في بلاط بعض الخلفاء ، وكانت الكرمة تنمو في كل مكان تقريبا في أراضي حوض البحر الابيض المتوسط ، غير أن مناطق الانتاج الكبير ، والتي كانت تقوم بتصدير خمورها المشهورة فكانت فلسطين الشهيرة بخمر عسقلان ، وشمالي بلاد الشام حيث كانت بلدة بيت راس Chalybonis معروفة منذ العصور القديمة بخمورها ، وكذلك منطقة دلتا النيل التي عرفت بخمور دمياط ومريوط ، وساحل افريقية ، وأخيرا القسم الجنوبي من بلاد

الاندلس مثل مالقة وبريغو Priègo وشرش التي يطيب لكثير من المؤلفين المسلمين ذكرها ، تدل على أن زراعة الكرمة ، ظلت تحتفظ ببعض مكانتها ، وهذا رغم التحفظات والموانع القرآنية، ولم يتبدل الوضع في هذا المجال إلا عندما أصبح وضع العالم الاسلامي في القرن الحادي عشر غير ما كان عليه سابقا . هذا كما كانت البلاد المذكورة نفسها تقدم من ناحية أخرى انتاجا كبيرا من الزبيب مثل دمشق والخليل في بلاد الشام ، وإسنا في مصر العليا ، ومالقة في اسبانيا ، فضلا عن صناعة الدبس ابتداء من الزبيب المذكور .

هذا وتعتبر شجرة النخيل شجرة العراق الادنى المطل على الخليج العربي، وهو موطنها واقليمها المفضل . وقد سبق للنخيل أن وصل الى جنوبي بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي وكذلك بلغ مصر والجنوب التونسي . ولكن أدى الفتح الى توسيع رقعته ، فاتجهت النخلة نحو شمالي بلاد الشام وخاصة في كيليكية حيث عرفت ملاطية وعين زربة بنخيلهما ، كما وصل النخل الى الاندلس ، فزرع في إلشة وجيان ، ولكن النخيل امتد بشكل يلفت النظر باتجاه الصحراء الكبرى الغربية ، حيث كان التوسع في تربية الابل ، وفي حفر الآبار والفجارات ، وزراعة النخيل مترابطة جميعا بعضها البعض وتؤلف العوامل الاساسية في اعمار الصحراء وكانت أهم مناطق انتاج وتصدير التمور سواحل الخليج العربي ، والجنوب التونسي والجزائري مما منح منطقة الجريد اسمها ، وفي منطقة بسكرة والزاب .

وقد دخلت زراعة قصب السكر قادمة من الهند الى بلاد ما بين النهرين الساسانية أو سوزيان Susiane في عهد خسرو الاول أنوشروان (٥٣١-٥٧٩)، وهكذا أصبحت بلاد سوزيان أو خوزستان مركزاً كبيراً لمزارع القصب ، وأكبر منتج للسكر في كل المشرق الاسلامي . وهنا نلاحظ منذ وقت مبكر العلاقة بين زراعة القصب وبين الايدي العاملة المستعبدة ، المؤلفة من الزنوج المجلوبين من ساحل افريقيا الشرقية . وبعدئذ انتشرت زراعة القصب انطلاقا من سوزيان باتجاه البحر الابيض المتوسط في العصر الاسلامي ، فوصلت مصر في أواخر

القرن الثامن حيث زرعت أخصب الاراضي فيها بالقصب • ومن هناك وصلت هذه الزراعة الى بلاد الشام ، وجنوبي المغرب الاقصى ، وبوجه التحديد ، الى منطقة وادي السوس ، والساحل الجنوبي من اسبانيا ووادي نهر الايبر وصقلية• ولكن مصر ظلت أكبر مركز في حوض البحر الابيض المتوسط في انتاج وتصدير السكر•ولكنها كانت تستهلك بالفعل كميات ضخمة منه وذلك في البلاط الفاطمي على الاقل : ففي الاعياد كانت الاشجار تزدان بتماثيل صغيرة من السكر ، مما يشهد على تقدم كبير في تصنيعه • ولهذا كانت المناطق المذكورة شهيرة بسكاكرها وبمربياتها وبحلوياتها ، فقد كانت هذه المواد في طليعة صادرات دمشق ، وعلينا ألا ننسى ان عبارة تحلية desserts أو تناول الخشافات بعد الطعام ، هي أيضا عادة من أصل شرقي • وكان قسم من السكر المصنوع يصل الى بيزنطة والغرب • وأول وثيقة تشير لوصول السكر Zucchero الى البندقية تعود لعام ٩٩٦[1] • وأخيراً كانت زراعة الخضار والثمار تقدم انتاجا متزايدا في حزام الزراعات القائمة حول المدن الكبرى ، وذلك باللجوء لوسائل متطورة أكثر فأكثر وتقدم بلاد الاندلس نموذجاً عن ذلك في بساتينها المروية huertas في اقليم الشرق Levante • وفي ذلك الوقت انتشرت في حوض البحر الابيض المتوسط زراعة الخرشوف ، أرضي شوكي ، والسبانخ والكراث « ثوم عسقلان » والموز والكبّاد والليمون والبرتقال • وقد دخلت زراعة البرتقال بلاد الشام قادمة من بلاد ما بين النهرين في عام ٩٤٣ ، وفي سنة ٩٧٠ ورد ذكره في صقلية وفي جنوب المغرب الاقصى ، في آخر القرن العاشر ، ووصل الى مالقة وسهل غرناطة في سنة ١٠٤٧ ، كما وصلت زراعته مصر حيث زرع فوق أسطحة البيوت في صناديق مؤلفة مزارع برتقال صغيرة • وفي ١٠٦٨ وصلت زراعة البرتقال الى برقة •

---

(١) لا تزال كلمة سكر في كل اللغات الاوروبية تشهد على اصلها العربي مثل Sucre بالفرنسية و Sugar بالانكليزية وزاخار بالروسية وتشكر بالتركية الخ • وكذلك الحال بالنسبة لكلمة رز العربية فهو riz بالفرنسية و rice بالانكليزية rizzo بالايطالية ، وينطبق هذا على عبارة قطن وسواها كثير •

وهكذا تشكل بستان البحر الابيض المتوسط ، وهو بستان ـ غوطة ، مع قنوات الري ، وخضاره وأشجاره المثمرة النموذجية • وهو يختلف تماما عن بستان العصور القديمة ، الذي سبق أن دخلته في العصر الهلينيستي مزروعات جديدة مثل الجزر والكرز والدراق والمشمش • وفي وقت متأخر تلقى بستان البحر الابيض المتوسط المذكور رفداً جديداً من نباتات أمريكية مثل الفاصولياء والبندورة والبطاطا والذرة الصفراء وتين الصبار الشوكي •

واجمالاً ، نجد أن الفترة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر تؤلف مرحلة هامة في تاريخ المزروعات الغذائية سواء من ناحية ادخال أنواع جديدة أم من ناحية تطور تقنيات الزراعة •

تربية الماشية

وهنا يجب علينا أن نميز بالطبع بين تربية الماشية المستقرة التي تستعمل الحيوان للحاجات المنزلية وبين التربية البدوية للماشية التي تتخذ أهمية أكبر بكثير بسبب الاغراض المطلوبة من الحيوان : كالتغذية من لحم وشحم وزبدة، وألبان ، ولتقديم مادة أولية صناعية كالصوف والجلد ، أو لاستخدامه كقوة محركة : كحيوان حمل مثل الحصان والجمل والبغل والحمار ، لأن هذا الحيوان أساس قوام القافلة ، أو كارافان بالفارسية ، وهي عبارة عن زمرة طويلة من الحيوانات الناقلة التي كانت تجوب شبكة الطرق التجارية البرية ، دون أن نغفل أخيرا ذكر الطاقة التي يقدمها الحيوان لتحريك المكائن الهيدروليكية المستعملة في الري كالناعورة أو الغرّاف[١]•

هذا وقد شهد العالم الاسلامي تطور تقنيّات الفروسية ، وذلك بتأثير

(١) G. S. COLIN, « La noria marocaine et les machines hydrauliques dans le monde arabe », Hespéris, XIV, 1932, pp. 22 et suiv .

حضارات آسيا الوسطى مثل : الركابات ، وطوق النير ، ولعبة العكرة Polo « جوغان » وبالفرنسية Carroussel • وقد كانت نتائج تقنيات تربية الماشية وتجهيز الحيوانات ضخمة جداً من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية • ومن هذا تبرز أهمية دراسة نطاقات تربية الماشية ، وامتدادها وتكاثرها ، وانتقال الانواع الحيوانية •

وكان للجمل مركزان كبيران لتبعثره : أولا آسيا الوسطى ، وهي منطقة الجمل ذي السنامين ، أو جمل بكتريان[1] وهي منطقة نهر آموداريا ، وثم شبه جزيرة العرب ، ولا سيما أوسطها ، في منطقة مراعي نجد المرتفعة وهي «أم الإبل» أي منطقة الجمل الوحيد السنام • وقد كانت المناطق الرئيسة لتربية الإبل بين القرن الثامن والحادي عشر هي : آسيا الوسطى ، ايران ، والعراق من ناحية وشبه جزيرة العرب ولاسيما بلاد نجد وعمان وحضرموت والحجاز ، وثم أثيوبيا وبلاد النوبة من ناحية أخرى ، والتي تحوي سحنة صحراوية من طراز جـزيرة العرب ، وخاصة بلاد البجا ، وأخيرا واحات الصحراء الكبرى الغربية •

ومن ثم أخذت رقعة الجمل بالاتساع ، باتجاه شمالي بلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، وسهوب شمالي القفقاس ، في جنوبي الروسيا ، واسبانيا والسودان الغربي • هذا كما تعددت تقنيّات الاصطفاء والتصالب بين العروق ، كما حدث في قطعان منطقة الساقية الحمراء الكبيرة ، مما تمخض عن إبل الحمل البطيئـة ومن جهة أخرى الهجن السريعة لنقل الاخبار أو « العلوم » عند البدو •

أما الحصان فقد كان معروفا بسلالاته الاربعة الرئيسية :

ــ الحصان التركي المنغولي الصغير في آسيا الوسطى • وهو صغير الحجم، غليظ الاطراف ، ومربوع ، جلْد وقنوع ، وهـو الذي كان يمتطيه الخيّالة الذين زحفوا من أواسط آسيا خلال مختلف حقب التاريخ • ويمتد هذا العرق

---

(١) بلاد واقعة بين ايران وتركستان وعاصمتها بلخ •

نحو الشرق أي حتى شمالي الصين ، ونحو الغرب ، أي حتى سهوب أوروبا الوسطى والشرقية .

ـ الحصان الايراني ، وهو كبير القامة وجلد ، ويستطيع حمل فارس مدجج بالاسلحة ، أو الاسوار ، وجمعها الاساورة[1] ، وكان تصدير هذا الحصان نشيطاً للغاية ، فبلغ الهند عن طريق الخليج العربي ، وتجار الخيل الايرانيون هم الذين ساهموا في تكوين سلاح الفرسان المهراتيين .

ـ الحصان البارب barbe ، أي البربري ، وأصله من نوميديا ، أو على وجه الدقة ، من الهضاب العليا الجزائرية ومن حافة الصحراء الكبرى . وهو حيوان صغير نوعاً ما ولكنه قوي ومقاوم . ومنذ العصور القديمة كانت كل خيول البحر الابيض المتوسط الغربي متأثرة تدريجيا بالاختلاط بعرق الحصان البربري ، وعلى الاخص في ايطاليا وأسبانيا وجنوبي بلاد الغول ، أي فرنسا . وقد عمل فتح اسبانيا وصقلية على أيدي جيوش يتفوق العنصر البربري فيها عدديا على تقوية هذه الحركة التي تمخضت عن نشوء الحصان الاندلسي ، أو genet اسبانيا والذي اشتق اسمه بالاسبانية جينيت Jinete من كلمة زناتة وهي عشيرة كبيرة من فرسان بدو البربر كانت تعيش في هضاب المغرب العليا .

ـ أما العرق الاخير من الخيل فهو العرق الشامي ، الذي نشأ في العصر الروماني نتيجة تصالب أحصنة بارب المستوردة الى شمالي بلاد الشام مع أفراس ايرانية ، والتي كانت ترعى شتاءً في الصحراء السهبية ، أي في بادية الشام ، والذي انتشر فيما بعد ، في العصر الاسلامي ، باتجاه نجد ، وهي منطقة مراعي مرتفعة في أواسط جزيرة العرب . وهكذا نشأ الحصان العربي الاصيل ، وهو حصان ركوب ممتاز ، دقيق الاطراف ، مليء بالحيوية وسريع العدو . وأخذ تصدير هذا الحصان يتزايد باتجاه الخليج حيث اختلط بالخيول الايرانية التي

(١) من الفارسية اسفار Asvar ومعناها الفارسي العسكري المكسو بجلد مصفح بحراشف معدنيــــة .

وصلت الى الهند ، مثلما اتجه غرباً باتجاه البحر الابيض المتوسط . وأصبحت مصر منطقة لقاء الحصان العربي الشرقي مع حصان أفريقيا الشمالية . ولهـذا كان سلاح الفرسان فيها سلاحاً قاتلا بالنسبة للمغول كما كان بالنسبة للصليبيين.

والى جانب هذا التوسـع في تربية الخيل حيث حدث توسـع في تقنيات تربيتها ، ويشهد على ذلك مؤلفات عديدة في علم الخيل وعلم تطبيبها . وقد أدى التصنيف الدقيق لمزايا الحصان ولعيوبه ، وعن أمراضه ، ولأنواع مشـيته ، ولألوانه ، أقول أدى لظهور مصطلحات وطرائق عديدة انتقلت الى الامبراطورية البيزنطية ومن بعدها الى الغرب النصراني ، كما يبرهن على ذلك كلمات عديدة موجودة في مفردات اللغة الفرنسية مثل كلمة آليزان Alezan مثلاً ومعناها حصان ذو لون أصفر فاقع ، كذلك لون ذؤابته .

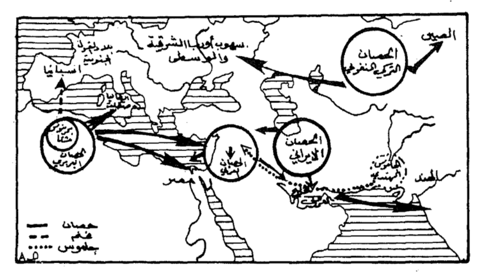
وهناك قضية هامة ترتبط بتربية الحصان ، وهي مسألة توسع زراعة نباتات ضرورية له كعلف ، مثل الشعير والبرسيم . فالسهوب وهوامش الصحراء توفر مراع طبيعية ، ولكن من الضروري ايجاد مراع اصطناعية على شكل مروج مروية في المناطق المستغلة وذات الزراعة الحثيثة والبساتين ، فالبرسيم الذي قدم من فارس انتشر في بلاد مابين النهرين ثم في مصر واسبانيا وامتد من ناحية أخرى شرقاً نحو الصين انطلاقا من آسيا الوسطى.

أما الاغنام فكان الهدف من تربيتها تأمين غذاء البدوي والحضري بآن واحد ومن ثم للاستفادة من أصوافها ، اذن يبدو من الطبيعي أن يكون توسع وتحسن تربيتها منوطا بتوسع وتقدم صناعة الاصواف . وقد شهدت بريطانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الظاهرة نفسها ، ذلك أن القطعان الكبيرة التي كانت تملكها الاديرة الانكليزية كانت تزود بالمادة الاولية مصانع الاجواخ الفلمنكية في شمال شرق فرنسا وبلجيكا .

وقد كان العالم الاسلامي ، في العصر الذي نحن بصدده ، هو المنتج الوحيد

للصوف ، هذا اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الانتاج الضخم والنوعية الجيـدة . وتتصدر مناطق الانتاج «بلادالغنم» ونقصد بها الهضاب العليا في أفريقيا الشمالية حيث نجد الرعاة من مربي الاغنام ذات الصوف الفائق الجودة ، والوفير والناعم الاجعد . وقد تأقلم هذا النوع من الغنم في اسبانيا على أيدي البربر الذين عبروا بحر الزقاق اليها ، ولا يزال هذا الغنم يحمل اسم المرينو المشتق من اسم بني مرين، وهي قبيلة بدوية بربرية في المغرب الاقصى ، وربما من الكلمة العربية مرن أي اللدن . وقد تلقت اسبانيا بالاضافة الى هذا العرض طرائق تربية الاغنام الخاصة ببربر افريقيا الشمالية ، وهي طرائق جماعية للتربية الواسعة يكون فيها قطيع الجماعة في فترة النجعة بعهدة راع رئيسي يحيط به أعوان من المختصين الذين يعرفون المراعي الطيبة الصيفية في المناطق الجبلية . وتحتفظ اسبانيا في هـذا المجال بتنظيم فريد ، أصله المسته mesta ، وهو مؤسسة رعوية استمرت في هذه البلاد حتى القرن العشرين ، مع كل امتيازاتها ، ودروبها الخاصة بها ، ومراعيها وتشريعاتها . هذا وكثيرا ما تكون عبارات التقنيات الرعوية باللغة القشتالية ، وبالبلنسيَّة أو البرتغالية من أصل عربي : فكلمة مشتة جاءت من كلمة مشاع ، أي دون مالك معـروف ، وبالاسبانية mostrenco من مشترك ، وكلمـة alganame وتعني الاسبانية رئيس الرعاة أو الغنّام . ومنذ العصر الاسلامي، أي من القرن الثامن الى الحادي عشر ، ظهرت في بعض المناطق تجمعات ، وشركات رعاة ، وملاكو قطعان ، ومستات محلية . وفي تلك الحقبة اذن نشأ نظام المستة العام ، والتي توطدت قواعده في القرن الثاني عشر وخلال فترة الاسترداد ، ذلك أن اسبانيا بعد أن عادت لنصرانيتها ، لم تعمل أكثر من تنمية التنظيم الاسلامي السابق في هذا المضمار كما هو الحال في سائر المجالات العديدة الاخرى . هذا ويعتبر المرينو والمستة من الاسهامات البربرية العربية الجوهرية في اسبانيا .

أما تربية الابقار ، فكانت أقل اتساعا في العالم الاسلامي نظراً الى أن هذا الصنف من التربية الحيوانية يرتبط بمناخ أكثر رطوبة وبغطاء نباتي أكثر كثافة،



شكل ١٨ ـ انتقالات وتأقلم أنواع حيوانية في العالم الاسلامي (القرن ٨ ـ ١١ م)

ولهذا كان هذا النوع من التربية معروفا في السهول المحيطية في المغرب الاقصى وفي المناطق الرطبة في منطقة التل الجزائرية وفي أسبانيا • وهناك نقطة يجب التوقف عندها وهي وصول جاموس الهند والذي نجم عن نزوح النَّوَر • وكانت نقطة الانطلاق في المناطق المستنقعية في دلتا نهر الهندوس ، وهي الارض المختارة بالنسبة للجاموس الذي يجد شروطه المثلى في هذا النوع من المشاهد الجغرافية • ولقد رأينا أن نفي الزط وتهجيرهم من أهوار العراق يقع في القرن الثامن وقد استاقوا معهم حيواناتهم • ومن هناك انتقلوا الى سورية الشمالية حيث تأقلمت جواميسهم في منطقة الغاب على العاصي ، والتي اندثرت تقريبا بعد تجفيف هذه المناقع في أواسط القرن العشرين •

واجمالاً حدث توسع وتحسين في تربية الماشية • وقد كانت المحاذير عديدة كالقضاء على المزروعات وعلى الغابات ولاسيما بفعل الرعاة الذين كانوا يحرقونها للحصول على مراع جديدة ، والى انحطاط التربة مما أدى لتخريب الفروع

الجديدة من الغابة • وهكذا أدى الافراط في تطبيق المستة الى تخريب قسم كبير من أراضي اسبانيا • وتبدو الغابات سريعة العطب عند تعرضها لمثل هذه الطرائق الرعوية هذا دون أن تتكلم عن الشروط المناخية ، لانها تكون على ضفاف البحر الابيض المتوسط وفي كل المشرق الاسلامي على هامش مجالها الطبيعي ، الذي يتاخم سهباً يجنح أكثر فأكثر نحو الصحراء • وتثير مشكلة الافراط الرعوي مشكلة أخرى كما سنرى ، مشكلة ذات أهمية قصوى ، هي مشكلة الغابة •

الخشب ومنتجات الغابة[1]

تكون نطاقات الغابات الحقيقية محدودة جداً في العالم الاسلامي • فغابات السواحل الجنوبية لبحر الخزر هي امتداد شرقي للغابة البونتية ، التي تمتد على هذه الصورة من الساحل الشمالي لآسيا الصغرى حتى الساحل الجنوبي لبحر قزوين في جبال البورز • كما تبدو غابات بلاد الشام الشمالية وكأنها امتداد للغابة الهامشية لهضبة الاناضول التي تتصل ابتداء من ساحل آسيا الصغرى الجنوبي حتى جبال آنتي طوروس وجبال لبنان • وهناك أيضاً بعض الغابات في صقلية وفي المغرب وفي اسبانيا • وهذا كل ما هنالك من غابات ، وفيما وراء تلك البقع المشجرة تنعدم الغابة تماما كما في بلاد ما بين النهرين وشبه جزيرة العرب وفلسطين ومصر وبرقة ، عدا الجبل الاخضر ، واقليم طرابلس وافريقية والصحراء الكبرى •

هذا وتعتبر أقرب الغابات الخارجية للعالم الاسلامي ، هي أولا تلك التي

(١) Cf. M. LOMBARD, « Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane (VIIe-XIe siècles) » dans Le Navire et l'Economie maritime du Moyen âge au XVIIIe siècle. Deuxième colloque international d'Histoire maritime Paris, 1958, pp. 53-106, carte ; « Un problème cartographié. Le bois dans la Méditerranée musulmane (VIIe-XIe siècles) », Annales E. S. C., XIV, 1959, pp. 234-254, 4 cartes.

تقع على السواحل الشمالية للبحر الابيض المتوسط : كغابات الغرب الهمجي ، كما في جبال الابنين والالب وأستريا ودالماسيا ، وغابات الامبراطورية البيزنطية كما في بلاد البلقان وآسيا الصغرى • ونجد في المناطق الاكثر بعداً في اتجـاه الشرق ، أي فيما وراء نطاق السهوب والصحارى والرقعة البحرية الواسعة في المحيط الهندي ، نجد غابات ساحل شبه جزيرة الهند الغربي ، وعلى الخصوص غابات خشب التك في ساحل مالابار •

أما الموارد الغابيّة في المشرق وفي القسم الجنوبي من حوض البحر الابيض المتوسط فقد نضب معينها منذ زمن بعيد ، بعد أن استغلتها الحضارات القديمة في حوض مابين النهرين وبلاد فينيقية ومصر ، ولاسيما الانشاءات البحرية ، وعلى الاخص دور صناعة البحرية الفينيقية • اذن كان هناك تخريبات يستحيل تلافيها والتي زادها استفحالا ذلك الاستغلال اللامعقول الذي مارسه الرومان• ويعتبر جبل لبنان مثالا شهيراً في هذا المضمار اذ كان المموّن الكبير من أشجار الارز لكل أساطيل الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط • ومنذ مطلع العصر الوسيط لم يعد لبنان يصدّر الخشب وكلنا نعرف وضعه في أيامنا هذه فلم يبق من تلك الغابة التي كانت تعد من أجمل غابات العالم سوى بقعتان تضمان حوالي المائة شجرة لاغير •

غير أن الغطاء الغابي لم يكن مع ذلك في فترة القرن الثامن حتى الحادي عشر يمثل الانحطاط والتقهقر الذي هو عليه في أيامنا • ولنذكر كمثال على بقاء بعض أجزاء ذلك الغطاء الغابي نسبياً في جبل العلويين الذي تعرض في فتـرة القرنين العاشر والحادي عشر لاستغلال أخشابه بصورة شديدة بقصد التصدير للخارج في حين يبدو اليوم وكأنه عار بصورة تكاد تكون تامة •

وكانت مشكلة الغابة ملحّة جداً بالنسبة للامبراطورية الاسلامية خاصة وأن الطلب على الخشب كان يتزايد بنسبة مضاعفة تلبية للحاجات الجديدة :

أولا حاجات في الوقود للصناعات كصناعة الحديد القديمة في منطقة البحر الابيض المتوسط ، وصناعة الزجاج أو الصناعات الحديثة كصناعة قصب السكر • ولقد تعرضت جزر الانتيل في القرن الثامن عشر لظواهر مماثلة في استئصـــال الغابة لضرورات صناعة السكر • وكانت هناك بعدئذ حاجات في خشب البناء لورشات البناء الكبرى في المدن التي كانت تشهد أزهى عصور توسعها ولحاجات أدوات الري ، لان الخشب كان مادة لا غنى عنها للمكائن الرافعة للماء كالنواعير ولتبطين جدران الآبار • هذا كما كانت هناك حاجات البحرية من الخشب ، لتأمين حاجة الاساطيل التجارية ، التي كانت في أوج ازدهارها بفضل نمو العلاقات التجارية على البحر وفوق الطرق المائية ، كأسطول نهر النيل ، وكذلك للاساطيل الحربية، التي كانت تخوض مع بيزنطة صراعاً طويلا للهيمنة على البحر • ونظراً للتحول الطارىء على التقنيات البحرية فقد أصبحت السفن الاكثر أبعاداً وذات السواري الاكثر طولا والتي تحمل الاشرعة اللاتينية ، أصبحت تتطلب قطعا أكثر طولا ، أو بعبارة أخرى أشجاراً أكثر ضخامة • وأخـيرا كانت هناك حاجات نجـارة الآبنوس التي كانت تدفع اليها مظاهر الترف العارمة ، ويقدم متحف القاهرة عن هذه الاخشاب المنقوشة والمفصَّصة والمرقَّشة بعض النماذج الفاخرة • ونلاحظ في هذا المجال أن الخشب كان يرصّ ويجمع على شكل قطع صغيرة ، اذ كان يؤلف مادة ثمينة يحاول النجار أن يستغل أجزاءها مهما صغرت • وهنا تظهر نتيجةمستغربةوهيأن التقنياتكانتأكثرتقدماًمماهي عليهفي بلاد الخشب ذاتها ، والتي كانت تقدم الجذوع الضخمة ، إذ تم في القرن الرابع عشر استدعاء عمال مسلمين من اسبانيا لصنع سقوف artesonados لقصر البابوات في مدينـــة آفينيون في جنوبي فرنسا •

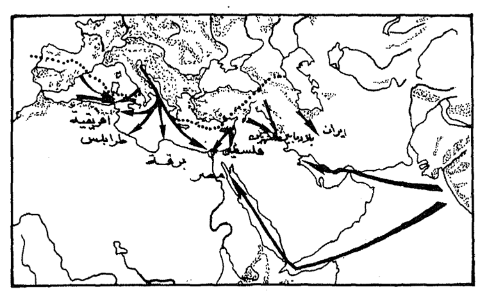
اذن لقد كان الطلب على الخشب شديداً جداً ، وعلى الاخص في بلاد ما بين النهرين وفي مصر وفي افريقية ، وهي بلاد شديدة الاستهلاك ولكنها في الوقت نفسه محرومة من الموارد الغابية الخاصة • وقد كانت مصر متميزة من وجهـــة

النظر المزدوجة هذه ، فمع أنها قطر عديم الغابة فقد كانت تحوي على صناعات متطورة تتطلب الكثير من الوقود ، مثل صناعة السكر ، ووسائل ري مع مكائن رافعة ، ومدن ضخمة ، ولاسيما القاهرة الجديدة الفاطمية ، وكلها تستدعي خشب البناء للمساكن ولصناعة الاثاث والسقوف ، وأخيراً لسد حاجة أسطول كبير الاهمية ، نهري وبحري ، يعمل على حماية واجهتين بحريتين هما البحر الابيض الابيض المتوسط والبحر الاحمر •

وللتغلب على مشكلة الخشب كان من الضروري اللجوء الى ثلاث وسائل:

ــ أولا : كان تنظيم الموارد المحلية الهزيلة يتم بصورة دقيقة : ففي مصر الفاطمية كان يتم الاحتفاظ بكل قطعة خشب صالحة للاستخدام في البناء البحري لصالح دور الصناعة الحكومية ، فكانت هناك بالواقع أحراش صغيرة على ضفاف النيل ، محروسة ، وخاضعة لتنظيم لمراقبتها وللاشراف على قطع أشجارها• وكانت الدولة تقوم بحملات تجردها بواسطة السفن الشامية والمصرية على السواحل البيزنطية في الاناضول وفي ذالماسيا بهدف « الحصول على الاخشاب » من أشجار الصنوبر والشوح والسرو •

ــ وأخيراً : وعلى الاخص كان يعتمد على خشب النجارة وذلك باستيراد الخشب من الاقطار الغنية به والبعيدة نسبياً• وهكذا كانت تهبط أخشاب أرمينية بواسطة «أطواف» أو أرماث على نهر الدجلةحتى بغداد،كماكان يستورد خشب التك من الهند،وهو خشب **الساج** ، الذي كان يصل الى العراق عن طريق الخليج،والى مصر عن طريق البحر الاحمر وبواسطة قناة أمير المؤمنين ، وهو طريق كان يصل الخشب بواسطته بطوله الطبيعي الى مستودع الخشب أو ساحل **الخشبات** • وكان الغرب الهمجي يرسل أيضاً أخشاب الصنوبر والشوح والشربين من جبال الابينين ، والالب ، ومن شبه جزيرة ايستريا وذلك بواسطة ميناءي آمالفي والبندقية • وكان الاباطرة البيزنطيون يحظرون بشدة تجارة الخشب وعلى



شكل ١٩ – تموين العالم الاسلامي بالاخشاب

الاقل على شكل جذوع طويلة ، شأن منع تجارة السلاح ، وذلك ضمن اطـار نزاعهم مع الاسلام في سبيل السيطرة البحـرية في الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، حتى ان حكومة القسطنطينية عمدت في سنة ٩٧١ الى احراق ثلاث سفن من سفن البنادقة المشحونة بالخشب ، وكان اثنتان منها متجهة الى المهدية ، في افريقية ، والاخيرة الى طرابلس . ولكن التجار البنادقة لم يكونوا يتقيدون بهذا الحظر ، كالتزامهم بالقيود المفروضة على تجارة السلاح ، فقد كانت تجارة الخشب بالواقع مصدر أرباح ضخمة ، نظراً الى أن تجارة التهريب كانت دوماً أكثر نفعا ماديا من التجارة النظامية .

وهكذا كان العالم الاسلامي اذن في وضع غير مريح بالنسبة لتموينـه بالخشب ، فقد كان يعتمد على مجالات غابيّة بعيدة ، تنفصل عنه بطرق خاضعة لكل تقلبات العلاقات الدولية والظروف وبمسافات طويلة . وكان هذا الخشب يكلف طبعا غالياً جداً ويسدد ثمنه بالذهب . ويبدو العالم الاسلامي في هـذا المضمار فقيراً بالموازنة مع موارد الغابات في الغرب ، حيث كانت وفيرة ، لاينضب

معينها وذلك على الاقل حتى القرن الرابع عشر ، وهو التاريخ الذي بدأ فيه الشعور بالمصاعب في سبيل تموين المدن الكبرى بالاخشاب •

وكان الطلب نفسه ينظم وصول المنتجات الاخرى من الغابات ، وحسب الطرق نفسها ، كالقطران ، وموارد القطف كالعسل ، وعلى الاخص موارد الصيد كالفراء •

المعَادِن

لقد نتج عن الافتقار الى الخشب صيرورة صناعة الحديد محدودة وضامرة في العالم الاسلامي ، فقد كان الطلب على الخشب أو على فحم الخشب ، وهما نوعان من الوقود الضروري لمعالجة الفلزات ، كان شديداً وكثيفاً وكان يتم الحصول عليهما بطرائق قديمة تستأصل غابات برمتها : فكان الحصول على عشرة كيلو غرامات من الحديد الصافي يستدعي تأمين ١٥٠ متراً مكعباً من الخشب • وهكذا كانت الصناعة الحديدية في الحضارات القديمة الشرقية مفترسة حقيقية للغابات•

وهناك تحديد آخر جذري أكثر : وهو الفقر النسبي الى المعادن في العالم الاسلامي ، فقر يعود باديء ذي بدء الى فقر الاراضي ذاتها ، فالشرق لا يضم سوى القليل من المناطق التعدينية الكبرى • ويضاف الى ذلك نضوب العروق المعدنية القريبة من سطح الارض نتيجة استغلال غير محدود منذ عهود موغلة في القدم• وأخيراً يجب علينا أن نذكر عجز التقنيات المستخدمة في معالجة الفلزات والتي كانت تؤدي لضياع شطر هام من المعدن ضمن الخبث •

وفي هذا المجال أيضا كانت التجارة القاصية تسعف وتعوض الى حد ما هذا الافتقار للمعادن ، وذلك بصورة جزئية على الاقل ، وهكذا كانت القوافل والسفن تقوم بالحصول على هذه المواد الاولية من مصادر بعيدة أحياناً واقعة

على أطراف العالم الاسلامي كالذهب والحديد والقصدير ، أو على المنتجات المصنّعة كالسيوف والاواني النحاسية • وكانت البلاد المصدرة ، أي المراكز التعدينية أو ذات الصناعة المعدنية هي بلاد القوقاز ، وجبال الاورال ، والطائي، والهند وافريقيا السوداء والغرب الاوروبي • وهكذا كانت الاسس المعدنية في الحياة الاقتصادية ضمن الحضارة الاسلامية غير صلبة : اذ كانت تتعلق من هذه الناحية أيضاً بالمصادر الاجنبية وبالتجارة الكبرى القاصية • وفيما يتعلق بالمعادن الثمينة أولا ، أي الذهب والفضة ، وهما أساس صناعة الصياغة ، فقد سبق أن ذكرنا ، في معرض كلامنا عن المناطق التعدينية التي تزود دور سك النقود ، أن المجال الاسلامي لم يكن يشتمل سوى على القليل جداً من مكامن الذهب : في شبه جزيرة العرب وفي أرمينية ، والتي يجب أن نضيف اليها مغاسل الرمال الحاوية على التبر في كيرمان وفي وادي نهر التاج في أسبانيا • ولكن سبق أن رأينا أيضاً أن مخزونات ضخمة من الذهب أعيدت للتداول على أثر الفتوح الاسلامية ، وعلى الخصوص الذهب المتدفق والذي اقتنصته التجارة من الاقطار الخارجية بالنسبة للعالم الاسلامي ، من الشمال ومن الشرق ومن الجنوب • فكان الذهب الاسيوي يأتي من القوقاز ، ومن جبال الاورال وآلتائي ، ومن التيبت ومن التركستان ، غير أن ذهب أفريقيا كان أكثر غزارة • فقد كانت هذه القارة تحتوي على ثلاث مناطق غنية بذهبها : وهي بين النيل والبحر الاحمر ، وبلاد النوبة والحبشة ، ثم أفريقيا الشرقية ، حيث كان يتم نقل الذهب على رؤوس الحمّالين ابتداء من مناجم الداخل التي يستغلها الزنوج حتى الوكالات التجارية التي يديرها المسلمون على الساحل مثل سفالة الذهب ، وربما هي أوفير عند القدامى ، وتقع الى شمالها وكالات بلاد الزنج • وأخيراً يجب أن نذكر بلاد أفريقيا الغربية ، أي بلاد السنغال والنيجر وساحل الذهب ، والتي كانت ذهبها ينقل بواسطة قوافل البربر عبر الصحراء الكبرى باتجاه أقطار المغرب •

وقد تم استخدام كل هذا الذهب كقاعدة لضرب الدينار ولصناعة صياغة

هامة جداً : فكانت كل الورش العاملة لحساب القصور وفي المدن ناشطة جداً في سائر الانحاء شأن أسواق الصاغة ، وكان الذهب شديد التداول ، فكان يصهر أو يعاد صهره من جديد كما يشهد على ذلك جرد القصور الفاطمية والتي لم يصل الينا منها سوى النزر اليسير •

وكانت الفضة في أكثر الاحيان تستخرج من مناجم الرصاص الحاوي على الفضــة ، وكانت هناك عملية تفصله فيما بعد عــن الرصاص • وأهم منطقتين استخدمهما العالم الاسلامي لسد حاجاته من المعدن الابيض هما الشريط العريض الفضي في شمالي ايران ، ابتداء من القوقاز حتى جبال تيان شان ، ولاسيما من منجم بنغير المشهور ، شمالي كابل ، ومن أسبانيا الاسلامية حيث كانت تستغل الفضة بصورة كثيفة حتى أنه لم يبق منها اليوم سوى عروق من الرصاص • هذا كما كانت الفضة التي تزود صناعة صياغة هامة ودور ضرب الدراهم ، كانـت تستورد بكميات كبيرة الى مصر ، وهو بلد يخلو من موارد خاصة بهذا المعدن، والذي كان يتمتــع فيه بتقدير لايقل عن الذهب ، كما تشــهد على ذلك تلك العصائب الفضية المصفحة والتي تحمل كتابات معينة في مساجد القاهرة •

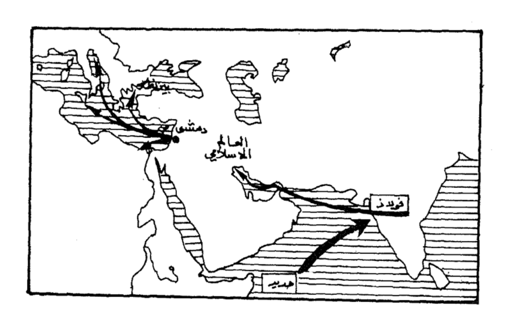
ولقد كان العالم الاسلامي فقيراً بالحديد • وكان يتــم استغلاله في أكثر الاوقات ابتداءً من رسوبات سطحية متفاوتة في تأكسدها ولكنها سهلة الاستغلال جداً • وهذه المكامن معروفة منذ زمن طويل ، تقع في لبنان وفي أفريقيا الشمالية وفي أسبانيا على الاخص في « قسطنطينية الحديد » الى الغرب من قرطبة ، على حافة سلسلة سروات مورينا • وفي هذاالمجال أيضا كان العالم الاسلامي يعتمد في تموينه على مناطق مجاورة أو بعيدة • فمن القوقاز مثلا كان يستورد خاماته الحديدية والمختصين ، من ورثة أقدم التقاليد في صناعة الحديد : فأودية داغستان كانت متخصصة في صناعة الصفائح وزرد الدروع • ولكن كان العالم الاسلامي يعتمد بالدرجة الاولى على الهند وعلى الغرب الهمجي ، أي أوروبا ، وهي بلاد

معـروفة بطرائقها الخاصة في انتاج الفولاذ والتي كانت تنتج سـيوفاً مشهورة ومرغوبة للغاية .

وقد تمخضت الهند عن أكثر النجاحات في صناعة الحديد ، اذ تحقق فيها فعلا اكتشاف فولاذ البوتقة أو الفولاذ المصهور في حوالي مطلع التاريخ الميلادي. وكانت هذه الطريقة تعطي عن طريق تكوين الذرات فولاذاً ممتازاً ذا بنية ظاهرية متميزة ، مع رسوم منتشرة في سائر الكتلة الفولاذية والتي تظهر على شـفرة السيوف . وقد كانت منطقة البحر الابيض المتوسط تستورد هذا الفولاذ الممتاز منذ العصر الروماني إذ كان يدعى ferrum sericum أي حديد بلاد السير Sères وربما كان يقصد بذلك مملكة الشراس Cheras الدرافيدية في شبه جزيرة الدكن الوسـطى والجنوبية . غـير أن هذا الاسـتيراد تزايد في العصر الاسلامي إذ اشتهر الفولاذ الهندي باسم الهندواني أو الهندي ومنه كلمة آلند alinde الاسبانية وتعني مرآة من فولاذ مصقول . وقد وصـل الفولاذ الجاهز للتصنيع الى دمشق ولسائر المراكز الكبرى في صناعة الاسلحة: مثل طليطلة على الاخص . ولكن الفولاذ كان يستورد أيضاً في الوقت نفسه مباشرة على شكل سيوف بلغت مضرب الامثال في شهرتها في الادب العربي لمتانتها ولحـدة شفرتها ولمرونتها .

ومما هو جدير بالتذكار بالواقع أن هذا الفولاذ المصنوع في جنوبي الهند كان يعتمد في مادته الاولية على خامات قادمة من سواحل أفريقيا الشرقية ، أي من بلاد الزنج ، وهي فلزات كانت تعتبر أكثر جودة من خامات الهند في صناعة فولاذ البوتقة . وكانت هذه الخامات التي كانت تستخرج بطرائق بدائية على أيدي الزنوج كانت تصدر الى الهند بواسطة التجار المسلمين كي تتحـول الى فولاذ هندي ، ومن ثم ترسل الى أنحاء العالم الاسلامي على شكلها الخام كسبائك فولاذية أو على شكل سيوف جاهزة . ويسمح لنا رسم المسالك بناء على العديد من المصادر الشرقية بتخمين أهمية هذه التجارة في المواد الثقيلة وتخصص مراكز

التصنيع ، وبمعرفة الدارات التي كانت تحول المادة الخام الى مادة نقيـة والى مصنوعات جاهزة للاستعمال •



شكل ٢٠ ـ دورة حديد افريقيا الشرقية وفولاذ الهند

أما الغرب الهمجي فقد كان من جهته يحوي على العديد من مناجم الحديد على شكل رسوبات سطحية من حديد بيوضي تسمى ferrières • وكانت جبال الالب الشرقية في اقليمي التيرول وستيريا Styrie أو ما كان يدعى Noricum والتي كانت مشهورة كمركز نشيط جدا في صناعة الاسلحة • ويجب أن نضيف الى ذلك بلاد الموزيل والمور في شمال شرق فرنسا، والاقطار الرينانية ، ومنطقة شمبانيا ، حول مدينة نوجان آن باسيني Nogent-en-Bassigny ، وجبال البرينيه(البرانس)الشرقية•وكانت كل هذه المناطق غنية بغاباتها وتتمتع اذن في الوقت نفسه باحتياطات ضخمة من الوقود • وهكذا يمكن تفسير سبب تعاظم نمـو الصناعة الحديدية في بلاد الغول Gaule الرومانية (فرنسا) وفي جبال الالب الشرقية عند أعالي الدانوب•

وهناك واقع جوهري يستحق الذكر ، وهو أن البرابرة لم يجهــزوا على هذه الصناعة ، لانهم اغتبطوا للغاية باعتمادهم عليها لتجهيز وتسليح قواتهم ، بل ونقلوا بالفعل تقنيات رائعة جديدة ، أنتجت شفرات أكثر جودة من الشفرات المسقيّة الغاليّة الرومانية ، ولا سيما تقنية تقليد الفولاذ الدمشقي : فكانت أوروبا الغربية تصنع قضباناً رقيقة من المعدن ، من أنواع مختلفة ، بعضها من الحديد الطري ، والبعض الآخر من الحديد القاسي ، مشحوذة ، ثم تخلط حسب خلائط متنوعة ، ثم تتلاحم ، وتبسط ، وتطرق ويتكرر تطريقها ، الى أن تكتسب منظراً نهائياً مماثلا الى حد ما للحديد الدمشقي الحقيقي • ولكن كان يتم الحصول على هذا المنظر في أعقاب عمليات تربيع متعاقبة في حين كان الدمشقي الحقيقي يتم الحصول عليه من خلال تصنيع الفولاذ نفسه بطريقة التبريد بعد صهره بالبوتقة

وفي الحقيقة كانت مزايا الاسلحة في الحالتين متماثلة تقريباً وتقوم على خلط أجزاء أكثر طراوة مما يؤدي الى صلابة ومقاومة وحدّة الشفرة وفي الوقت نفسه تتصف هذه الاسلحة بالمرونة واللدانة • وقد كانت دراسة هذه الاسلحة ممكنة بفضل المكتشفات الاثرية ، ولا سيما تلك التي تمت في المقابــر الميروفنجية لأن المدافن الكارولنجية كانت مخيبة للآمال ، نظراً لأن عادة دفن المحارب مع أسلحته تلاشت في القرن التاسع • ولكن أمكن العثور على السيــوف الكارولنجية في اسكندنافيا وفي منطقة الانهار الروسية اذ ظلت هذه العادات مألوفة في المدافن حتى القرن الحادي عشر •

وعلى كل فقد تركت لنا النصوص الوفيرة وثائق هامة عن السيوف الغربية ، وثائق وردت من العالم الاسلامي ومن الامبراطورية الكارولنجية أو الاوتونية• فكانت سيوف **الفرنجة** المصنوعة في الغرب الهمجي شهيرة • وكانت أقطار العالم الاسلامي تستورد منها كميات كبيرة عن طريق بلاد **الصقالبة** ومن **الاندلس** أي من اسبانيا الاسلامية • وكان هذا الاستيراد يتم باتجاه الشــرق الاسلامي عن طريق الانهار الروسية وعن طريق بحر قزوين،وفي اتجاه بلاد البحر الابيض المتوسط

الاسلامية بطريق ممر نهر الرون أو عن طريق ميناء البندقية المتخصصة ، كما رأينا ، بتجارة التهريب والتي كانت تتحدى بالنسبة للاسلحة وكذلك بالنسبة للاخشاب الحظر المفروض على بيع هاتين السلعتين الاستراتيجيتين للمسلمين من قبل أباطرة بيزنطة •

بقي علينا أن نتكلم عن النحاس والقصدير حيث كان العالم الاسلامي يتمتع بوضع أفضل بالنسبة لانتاج النحاس مما كان عليه بالنسبة للحديد • وكانت تقع أهم مكامنه في آسيا الوسطى وفي أعالي بلاد ما بين النهرين ، وخاصة منجم أرغانة، وفي جنوب المغرب الاقصى واسبانيا • واذا كان القصدير مادة تستورد من بعيد بواسطة التجارة الكبرى ابتداء من الجزر البريطانية وشبه جزيرة ماليزيا ، فان أوكسيد الزنك أو التوتياء كانت ، على العكس ، مادة تنتجها أرمينية وبلاد أفريقيا الشمالية • ولهذا كانت صناعة النحاس والبرونز والخارصين مزدهرة جداً وكان الصانع الذي يبيع الاواني النحاسية موجوداً في كل أسواق المدن الاسلامية الكبرى •

وكان فقر العالم الاسلامي بالمعادن ــ باستثناء النحاس ــ كان يقسره على تجارة الاستيراد الكبيرة • وكانت حضارته الآخذة في التوسع في أمسّ الحاجة للمعادن المفيدة لتأمين الحاجات اليومية ، وللمعادن الثمينة من أجل ضرب النقود وللحلي ومظاهر الترف • وفي مقابله كان يمتد الغرب الهمجي الغني بالفلزات وبالغابات التي توفر الوقود الضروري لمعالجة الفلزات المذكورة • وهكذا كان الغرب يتراءى بثرواته المعدنية البكر التي لم يبدأ بعد تقريباً استغلالها ، وكأنه قطر جديد ، في مواجهة أقطار قديمة ذات موارد طبيعية شبه مستنزفة •

المنسوجات

الحضارة الاسلامية هي حضارة النسيج • نسيج من أجل الكساء بلا ريب، وفضلا عن ذلك من أجل الاثاث • وفي الحقيقة يكون الاثاث الشرقي في منطقة

البحر الابيض المتوسط تحت راية السجادة ، فهي أكثر عناصر الاثاث أهمية ، وأحيانا تكون القطعة الوحيدة في الاثاث المنزلي • ولم يكن القماش يستخدم للثياب ولتزيين داخل الحجرة فحسب بل وأيضاً لصنع الخيام والرايات • وكانت مصانع النسيج في كل أرجاء العالم الاسلامي تنتج قطعاً رائعة ، مثل أقمشةالكتان الرفيعة جداً ، وقماش الموسلين ، نسبة للموصل ، من الصوف ومن القطن ومن الحرير المختلط بخيوط الذهب • وكان يعهد الى المصانع أو دور **الطراز** ، باتتاج أقمشة ثمينة لسد حاجات البلاط ، وأقمشة أبهة يقصد بها تصعيد أبهة المراسم والحفلات • وفضلا عن ذلك كانت الاقمشة الثمينة تعتبر ادخاراً مالياً ، وتعني كلمة خزانة الثروة وخزانة الثياب • وكانت الاقمشة في كثير من الاحيان تقدم كهدايا ، وأجور ، ومكافآت : وهكذا كان ثوب التشريف المطرز باسم الملك هو أصل مظهر الامارة ، وكان هناك تسلسل يقوم حسب درجة فخامة هذه الثياب الرسمية • ونعثر في هذا المجال على الاعراف القديمة لدى الممالك الشرقية ، من ساسانية أو بيزنطية ، أعراف انتقلت الى بلاط الممالك الاسلامية ، وبوجه خاص البلاط العباسي ، الذي كان يهتم بأن يعيد عن طريق مراسمه وآداب سلوكه ، العادات الايرانية لدى المملكة القديمة الساسانية • وكما هو الحال بالنسبة للمنتجات الغذائية فإن المواد النسيجية القديمة المستخدمة منذ عصور موغلة في القدم يمكن أن تتنافر مع المواد الجديدة • وبما أن الانتاج الاولي يبدو مستقراً فإنه كان يتقهقر أمام منافسة الثانية•

أما المواد النسيجية القديمة فتتألف من الصوف الذي سبق لنا أن تعرضنا له في معرض كلامنا عن الاغنام والذي كانت تقدمه آسيا الوسطى وأرمينيةوأفريقيا الشمالية وأسبانيا ، ثم الكتان الذي ينبت في مصر حيث تمارس زراعته في سائر أنحاء الدلتا وفي بعض المراكز في وادي النيل • وتناسب تربة مصر العميقة المؤلفة من الطمي زراعته بصورة جيدة ، وكذلك الماء الضروري للنقع والذي تقدمه

بغزارة القنوات والبحيرات الساحلية • وتعطي أليافه مادة ممتازة تسمح بصنع أقمشة ناعمة للغاية تدعى **القصب : والشّرْب والدابقي** •

وتتحقق شروط الانتاج نفسها في شمالي بلاد مابين النهرين ولاسيمافي اقليم سوزيان فضلا عن مناطق أخرى كان الافتقار للماء يحد من رقعة زراعته كما في بلاد الشام وأفريقيا الشمالية وفي أسبانيا • وعلى كل حال فان الكتان راح يتخلّى عن مكانه للقطن مثلما سبق وتخلى في اقليم سوزيان عن مكانه لقصب السكر ، وهما صنفان من النبات اللذان يتطلبان نفس الشروط الطبيعية والبشرية كالتربة العميقة والماء والايدي العاملة الكثيرة • ولم يصمد الكتان باعتباره مادة نسيجية رئيسة إلا في مصر ، حيث قامت زراعة قصب السكر ، ولكن القطـن لم يدخل هناك على نطاق واسع ، وذلك على الاقل في ذلك العصر •

أما القطن بصفته مادة نسيجية جديدة ، فقد ورد من الهند ليزرع في منطقة بلاد ما بين النهرين ابتداء من القرن السابع الميلادي ، وأصبح يحتل مزارع كبيرة في العصر الاسلامي في منطقة نهر الخابور وخاصة في اقليم حرّان بين كوع الفرات ونهر الدجلة • وقد ورد أول ذكر لزراعة القطن في تركستان ، على الطريق البوذي الذي يصل الهند بالصين عن طريق ممرات هندكوش وآسيا الوسطى ، في القرن السادس الميلادي وفي القرن التالي ، أي القرن الذي نشأ فيه العالم الاسلامي فقد وصلت زراعة القطن، algodôn بالاسبانية ، الى منطقة البحر الابيض المتوسط: فظهر أولا في شمالي بلاد الشام ابتداء من عقفة الفرات حتى ضواحي حلب ،وهي منطقة تعتبر امتداداً طبيعياً لمزارع منطقة نهر الخابور ، ثم وصل القطن من جهة أخرى الى منطقة الغور ، وهي حفرة البحر الميت الانهدامية ، حيث وجد أراض منخفضة رطبة وحارة ، ثم انتقل الى غوطة دمشق ، كي يبلغ من جهة أخرى كيليكية ، حيث ظهرت زراعته فوق السهل الإطمائي الدلتاوي المردوم بين جبال طوروس والتضاريس الجبلية السورية قرب مصب نهري سيحون وجيحون • وهكذا كانت بلاد الشام في العصر الوسيط منتجة كبيرة للقطن ، بيد أن هذه

المادة النسيجية لم تفلح في توطيد دعائمها في مصر ، حيث كان الكتان ، وهو مادة نسيجية تقليدية ، تقدم منتجات فاخرة ، وكان يحتل مواقع متينة للغاية ، وعليه كانت مصر في القرون الوسطى تعتمد على استيراد الاقمشة القطنية من الهند ومن بلاد الشام • وأخيراً وصل القطن الى أفريقيا الشمالية ، ولا سيما الى منطقة الجنوب التونسي ، أي الى بلاد الجريد ، والى المغرب حيث ظهـر في وادي أم الربيع وفي سهل تادلة وامتد الى اقليم السوس الاقصى مع استعمال الري ، وبلغ اسبانيا في الوادي الادنى من نهر الوادي الكبير ، والى صقلية في ضواحي بالرمو وأخيراً بدأت زراعته في قبرص حيث نمت زراعته في عهد أسرة لوزينيان الصليبية، والى جزيرة كريت في ابّان حكم البنادقة•

وكان الحرير المادة النسيجية الثانية الذي يرتكز انتاجه على زراعة التوت وتربية دود القز • وقد كانت هذه التربية معروفة في البداية في الصين وفي آسيا الوسطى على ضفاف بحر الخزر وفي أرمينية • وفي القرن السادس وصلت ديدان الحرير خلسة الى الامبراطورية البيزنطية ، وعلى وجه التحديد الى بلاد الشام: تلك هي قصة الراهب النسطوري القادم من آسيا الوسطى والذي حمل هذه السلعة الثمينة في داخل قصبته التي كان يتوكأ عليها كعصا خلال الرحلة • وتقدم لنا هذه القصة صورة عن القطيعة الاقتصادية بين العالمين الساساني والبيزنطي• وكما أن زراعة القطن في أعالي بلاد ما بين النهرين لم تنتشر الا على أثر تشكل العالم الاسلامي فإن تربية ديدان القز انتظرت لكي تنتشر قيام رقعة اقتصادية موحدة شاسعة هي دار الاسلام • ومن المدهش فعلا أن نلاحظ في معرض الكلام عـن انتقال التقنيات والمنتجات ، ان القـرن السادس الذي شهد وصـول دود الحرير الى منطقة البحر الابيض المتوسط من منطقة التركستان ، شهد أيضاً انتقال زراعة القطن اليه قادمة من الهند •

وامتدت تربية دود القز على اثر الفتوح الاسلامية الى كل أقاليم البحر الابيض المتوسط حيثما كانت هناك شروط موائمة لها ، وقد استدعتها مطالب

الترف في المنسوجات ، والتي حرّضت عليها دواعي استهلاك كبير من الاقمشة الحريرية ، ونذكر في جملة المناطق المنتجة بلاد الشام الجنوبية ، ولاسيما في جبل لبنان ، وقبرص ، والجنوب التونسي ، في منطقة قابس ، وعلى الاخص جنوب شرق اسبانيا وصقلية • أما تربية دود القز في منطقة جبل البشرات وحول جيّان فقد أدخلها سوريون قدموا من قنسرين التي كانت مركزاً مرموقاً لانتاج الحرير في شمالي بلاد الشام ، والذين وفدوا للاستيطان في هذه المناطق خلال القرن الثامن • وهكذا أصبح انتاج الحرير من أهم مميزات اسبانيا الاسلامية في غربي أوروبا • أما حرير جزيرةصقلية فلميعبر البحر الىمجالالغربالنصراني إلا بعد أن انتقلت هذه الجزيرة الى أيدي النورمان ، وعندها فقط دخلت تربية ديدانه الى جنوبي ايطاليا والى الشمال فيها •

وهكذا شاع انتاج الحرير على نطاق واسع في كل العالم الاسلامي • ففي العصر الساساني كان استيراد الحرير الصيني يقوم بتأمين المادة الاولية للمناسج الايرانية ، وربما كان ينتقل من هناك الى بيزنطة • أما في العصر الاسلامي ، فعلى خلاف ذلك ، فقد توقف استيراد الحرير الخام من الصين بسرعة فائقة ، غير أن استيراد الاقمشة الحريرية ، وهي اختصاص صيني ، فقد استمر على مستواه المألوف • وفي الواقع لم يكن العالم الاسلامي يقوم بتصنيع كل الحرير الذي ينتجه في مصانعه ، إذ كانت بيزنطة تستورد كميات كبيرة منه • ولهذا كانت صناعة الحرير البيزنطية الكبيرة تعتمد كلية على تصدير هذه المادة الاولية الاسلامية ، هذا رغم انتاج الحرير في جزر البيلوبونيز الذي تذكره المصادر البيزنطية لاول مرة في القرن الثاني عشر والذي ابتدأ فعلا قبل قرنين من الزمن•

وكانت أكثر المواد الصباغية المستعملة هي النيلة والقرمز والزعفران • وقد دخلت زراعة النيلة المستعملة للحصول على اللون الازرق قادمة من الهند الى بلاد ما بين النهرين ، أي الى المناطق الحارة والمنخفضة والمروية ، مثل منخفض غور الاردن ، والى الواحات الليبية ، وشطوط الجريد التونسية والحضنة في

الجزائر واقليم السوس وأدّت زراعته الى تقهقر زراعة ورد النيل أو الباستل. أما القرمز أو « حب » اللون الوردي ، وهي حشرة طفيلية تعيش على أشجار السنديان ، فقد كان يستخدم للحصول على اللون الاحمر أو القرمزي أو Cramoisi في الفرنسية ، والذي كان يستحضر في أرمينية ، وفي اسبانيا ، وكان يدخل في منافسة مع البقّام[1] أو خشب البرازيل، القادم من الهند، ولكنهما عملا على تقهقر زراعة الفوّة والأرجوان (أو Murex فينيقيا) . وكان الزعفران يؤلف المادة الصباغية الصفراء وكان مرغوباً للغاية والاكثر رواجاً بين الاصبغة الشرقية ، لأن له لون الشمس ، وهو اللون الخاص بملوك بني ساسان ، وكان يستعمل لصباغة الالبسة ، وكذلك في تلوين ورق الكاغد والوثائق الرسمية ، وذلك بتأثير الصين حيث اتخذ اللون الاصفر لوناً امبراطورياً . أما زراعة الزعفران الذي يستخدم من جهته في المطبخ كنوع من توابل فقد شهد توسعاً مفرطاً في كل العالم الاسلامي.

وقد أدى تعدد المواد النسيجية والصباغية الى تقدم وشيوع تقنيّات الصناعة : كاستخدام أنوال ذات سدى عالٍ ومنخفض ، والنول ذي الدوّاسة وهو من أصل صيني ، وطريقة صناعة السجاد ذي النقط المعقودة ، وتعود لآسيا الوسطى من حيث الاصل ، والسوسانغرد المطرز بالابرة ، من فارس ، وطريقة « غوبلان gobelin » المنسوج في مصر . وكان عدد المنتجات الشهيرة محدوداً مثل السجاد الارميني (من أرمينية) في اسبانيا ، وفي أسيوط في الصعيد ، وفي طرطوس على الساحل السوري ، والقماش الجرجاني (نسبة الى جرجان) في المرية في الاندلس ، والاصفهاني ، في أنطاكية ، والدابقي ، نسبة الى دابق في دلتا مصر ، في أسبانيا ، والعتّابي ،نسبة الى بغداد في المريّة،والصقلبي ، نسبة الى صقلية في مصر ، وفي شمال العراق وفي اسبانيا . وكان يلاحظ في كل قطر من العالم الاسلامي مخض التقنيّات ، وفي كل مكان كانت المدن الكبرى تكتسب شهرة بتنوع منتجاتها وبشهرة أقمشتها على المستوى العالمي.

(١) اللون البقامي هو لون احمر غامق أو بين اللون الاسود واللون الاحمر .

وهكذا كان لكل مدينة كبيرة اختصاصها النسيجي ، وكان لكل مركز نسيجي أقمشته الخاصة به ، فيما عدا الاقمشة الاخرى التي يصنعها ، مما يحقق له تخصصاً في السوق الدولية • وقد كانت بعض المناطق عبارة عن نطاقات نسيجية حيث كانت المدن والقرى تتعاطى جميعاً هذا العمل • ويفترض تسويق المنتجات وجود تجار يقدمون المادة الخام ويأخذون على عاتقهم تصريف المصنوعات • وكانت كل المنسوجات تحمل على حواشيها اسم المدينة التي قدمت منها • وهكذا اشتهر اسم **فسا** في فارس المشهورة بقماش البروكار ، وبقماشها **الواشي** ، وهو قماش من حرير سميك متموج اللون وكانت له شهرة كبيرة « موضة » في بلاد الخليفة المعتصم ، وكذلك اشتهرت بسجادها من الصوف الثمين ، وببطانياتها **الخز** المحشوة بالحرير ، والمزدانة برسوم على شكل حمصات والمخصصة للخليفة ، وبأقمشة **السوسانغرد** ، وهي أقمشة مطرزة بالابرة ونافرة الرسوم ، والذي كان يفوق قماش كركوب ، لأنه أكثر متانة : لأن التطريز هنا يقوم على قماش من صوف في حين أن قماش كركوب يرتكز على خيوط من حرير • هذا كما كانت تصنع في فسا أقمشة يختلط فيها الصوف مع الحرير ، أو من الحرير النقي ، والتي كانت مرغوبة في كل مكان • وأخيراً كانت منطقة فارس وخوزستان تضم ، في مدينة كركوب نفسها ، مصنعاً رسمياً يعمل حصراً لحساب الخليفة وبلاطه • وكان يتألف من مجموعة نسيجية ضخمة ، تنتج أقمشة ثمينة أو من النوع الدارج ، والتي تصدر من ميناءي البصرة وسيراف •

وهناك مثال آخر عن الانتاج الضخم : فقد كانت دلتا مصر مركزاً لنسج أقمشة بذخ أو أقمشة عادية ، وكان أهم أمثاله بلا منازع في كل حوض البحر الابيض المتوسط ، حتى ان هذه المنطقة كانت تصدر أقمشتها نحو المشرق الاسلامي ، والمحيط الهندي ، وبلاد الشام ، والامبراطورية البيزنطية ، والغرب الاسلامي ونحو الموانىء الايطالية • وكانت المادة الاولية لهذه الصناعة النسيجية

هنا الكتان ، وهو انتاج محلي ، ولكن مع لُحمَة من حرير ، مستورد من بلاد الشام ، أو مع خيوط الذهب • وكان تنوع المنتجات هنا كبيراً جداً أيضاً ، بدءاً من قماش رقيق جداً ، وهو الشرْب ، حتى الزرابي الثقيلة المطرزة بالذهب • وكانت هناك زمرة من مدن صناعية صغيرة ، يربو عددها على العشرين ، لكل واحدة منها طرازها فضلا عن قرى يعمل أهلها لحسابها ، وتشرف بمجموعها على الانتاج النسيجي المصري • ونذكر من أهم هذه المدن دمياط ، دابق ، دميرة ، ولا سيما تينس الواقعة في وسط بحيرة كانت تحمل اسمها ، والتي تدعى حاليا بحيرة المنزلة • وكانت تينس ، أو صالحجر الحالية ، تتموّن بواسطة المراكب ، وتعيش على مصائد هامة للاسماك،في بيئة برمائية،كانت تحتوي على الماء الوفير الضروري لنقع الكتان ، مع الرطوبة اللازمة التي تسمح بغزل الالياف النسيجية الرفيعة • وكان يعمل فيها خمسة آلاف نول لصنع كسوة الكعبة في كل عام • وهكذا كانت مدن الدلتا متخصصة ، فبعضها كان ينسج الاقمشة البيضاء ، والاخرى تعمل في قَصْر الخيوط ، أي تبييضها ، والاخرى في كبس اللبّاد ، وفي صقل المنسوجات ، والاخرى في تلميع الاقمشة الحريرية بالاستعانة بالصمغ السوداني وفي الصباغة أو في صناعة خيوط الذهب • وكانت كل هذه المنتجات تصدر لأقطار نائية في الوقت نفسه الذي تنتقل معها تقنيّات صناعتها ، مما كان يجعل أشكال التقليد تظهر في كل مكان تقريباً مثل قماش القصب والدابقي ، كما في بلاد ما بين النهرين وفي اقليم فارس • وهكذا كان العالم الاسلامي يحتل مكانة مرموقة من حيث تنوع منتجاته الى جانب الصين وبيزنطة ، أي بين الاقطار التي تنتج وتصدر منسوجات الترف •

المُنتجَات الحجَرِيَّة وَالتُّرَابيَة

اذا استثنينا القطع الحجرية الصغيرة مثل تيجان الاعمدة والالواح التزيينية فوق الواجهات ، وأحواض الوضوء كتلك التي وجدت في مدينة الزهراء بجوار

قرطبة ، فلم تكن هناك صناعة هامة في الحجر[1] ، والواقع كانت الابنية الشائعة من اللبْن بالنسبة للجدران وحتى بالنسبة للقباب بسبب الافتقار للخشب • ففي الفسطاط مثلا كان من الضروري مصادرة جذوع النخل لبناء سقف القصر الحكومي ، أي دار الامارة • أما بالنسبة للمساجد فقد كانت تؤخذ الاعمدة الرخامية من الاوابد القديمة • فقد كانت قرطاج مثلا عبارة عن مقلع حجارة لتأمين حاجات المدن الجديدة كالقيروان وتونس ، وقد استخدمت أعمدتها أيضاً بالاضافة الى أعمدة أطلال صفاقس لبناء مدينة الزهراء الاندلسية أيضاً • أما الجدران فقد كانت تبنى على العموم من اللبْن ، وهو الطوب في مصر والطابوق في العراق ، وكانت تكسى من الداخل بصفائح فخمة من الرخام أو من الجص بتصد حجب فقر المواد الاولية ، مثل الجص المفصّص والمجزّع والمحفّر ، والمطلي أو المذهّب ، كما في مدينة سامراء ، وفي قصور الطولونيين في مصر ، وفي مدينة سدراتة في أفريقيا الشمالية • ولكن كانت تستعمل على الخصوص مربعات بلاط القيشاني المزيّن ، وهو ثمرة تقنيّات من بلاد ما بين النهرين وايران، سبق أن كانت معروفة في قصور الأخمينيين والساسانيين والتي انتشرت في كل حوض البحر الابيض المتوسط الاسلامي ، ذاك هو الزليج ، أو azulejo بالاسبانية • ولكن هناك تحفظ مع ذلك ، فقد ظل المجال البيزنطي وفيّاً للتزيين الفخيم بالفسيفساء المصنوعة من مكعبات من زجاج مذهّب ومن معجونة ملونة• وهكذا استدعى أمويّو دمشق ، فنانين بيزنطيين من أجل زخرفة مساجدهم الكبرى ، وقام هؤلاء الفنانون بتدريب تلامذة محليين عملوا على استمرار تقنيّات الفسيفساء البيزنطية هذه في العالم الاسلامي •

وهناك صناعة ترابية أخرى : هي صناعة الخزف أو السيراميك • فقد خلّفت لنا الحضارة الاسلامية زمراً بديعة من الصحّاف ومن الاواني والطسوت •

(١) هذا تعميم غير صحيح لان آثار مدينة حلب كالجامع الاموي فيها وقلعتها وواجهة المسجد الاموي في دمشق تعتبر من روائع فن البناء في الحجر ، وانما يصح هذا الراي بالنسبة للمدن التي لا يتوفر الحجر الصالح للبناء فيها مثل بغداد والرقة والقاهرة•

ونعثر هنا أيضا ، كما رأينا بالنسبة لبلاط كسوة الجدران ، نعثر على تقنيّات وزخارف بلاد ما بين النهرين وايران الساسانيتين ، ولكن يجب أن تضيف اليها، بالنسبة للخزف ، المؤثرات الصينية الوافدة سواء بواسطة طرق آسيا الوسطى مروراً بالريّ حتى سامراء التي تم العثور فيها على بورسلان صيني ، أو بواسطة طرق المحيط الهندي والبحر الاحمر حتى فسطاط القاهرة حيث كشفت الحفريات عن أشياء مماثلة . وكلمة صيني وتعني البورسلان والصينية وهي صحفة من بورسلان ، هما كلمتان مشتقان من كلمة الصين . وقد كانت تقنيّات الخزف ممتازة ، ولاسيما صناعة الخزف المبرقش ، الذي يعود بريقه لانعكاسات الذهب الناتجة عن خليط معدني موضوع فوق العجينة قبل الشيّ . وكان أكبر مراكز الصناعة المذكورة منطقة الريّ Raghès في ايران ، وسامراء في القرن التاسع ، ومصر في القرن التاسع والعاشر ، وافريقيا الشمالية واسبانيا في القرن العاشر ، وعلى الخصوص في مدينة الزهراء التي أعقبتها مدينة كاتاليّود Catalayud في القرن الثاني عشر . وقد ترسّخ هذا التقليد الصناعي فقد كانت الصحاف الكبيرة من الخزف المذهّب في القرن الثالث عشر والرابع عشر الاسبانية الموريسكية هي أصل المايورقي الذي نقله صنّاع عرب الى ايطاليا في عصر النهضة .

ويعتبر الزجاج صناعة قديمة في حوض البحر الابيض المتوسط ومعروفة في العصر القديم في المدن الفينيقية مثل صور وصيدا ، وفي الاسكندرية حيث يوجد رمل ممتاز لهذه الصناعة . وقد ظلت بلاد الشام ومصر أكبر مراكز انتاجه في العصر الاسلامي ، سواء على مستوى المنتجات الدارجة أو بالنسبة لمنتجات الترف الكبير . وعلى كل فقد ظهر مركز جديد ، هو ايران ، التي كانت تصدّر كمية من الزجاج العراقي الذي تتكلم عنه الوثائق الاسبانية النصرانية ابتداء من القرن العاشر والحادي عشر . وكانت هذه الزجاجات المتصفة بالابهة والفخامة والمصنوعة في بلاد الشام ومصر أو في العراق ، والملوّنة ، والمذهّبة والمزيّنة بالميناء والدقيقة ، والمصنّعة بالدولاب ، والمحفّرة ، كانت تصدّر الى الصين التي

كانت ترسل في مقابل ذلك البورسلان أي القيشاني • وفي عصر الحروب الصليبية كان المحاربون الفرنجة الغربيون يستولون على كل المصنوعات الزجاجية الشامية والتي كانوا يعتقدون أنها مصنوعة من الحجارة الكريمة • أما البنادقة فكانوا يستوردون من ميناء صور حطام الزجاج المهشّم والقطع الرديئة كي يعيدوا صهرها في بلادهم • وهكذا نشأت صناعة الزجاج في البندقية وعلى الاخص مصانع مورانو • وقد نشأ مركز صناعي زجاجي آخر في الاندلس الاسلامية • ففي القرن التاسع اخترع عباس بن فرناس صنع الكريستال الصناعي ، وذلك بعد تعيير العناصر التي تدخل في صنع الزجاج واضافة الرصاص •

أما فيما يتعلق اخيرا بالحجارة الكريمة فيمكن القول بأنه كان للمسلمين في ذلك العصر احتكار هذه التجارة • فحجارة الزمرّد Smaragdos, Zumrud القادمة من الصحراء العربية في مصر العليا هي الوحيدة التي كانت معروفة قبل اكتشاف أمريكا • أما هضبة بامير فكانت تنتج في بلاد بادخشتان ياقوتاً مشهوراً هو ياقوت بلخش ، الذي جاءت منه التسمية الفرنسية rubis balais وكان الالماس يأتي من الهند ومن سيلان في حين كان يجلب الكريستال الصخري من المغرب ومن أسبانيا • وكانت تؤلّف في كل الانحاء كتب عن الحجارة الكريمة ومنها اقتبست كتب علم الحجارة الكريمة lapidaires في العصر الوسيط الغربي ، والتي تعالج أنواع هذه الحجارة وخصائصها السحرية • وكان تصنيع الحجارة الكريمة ، وهي حجارة قاسية ، كان غاية في الرقي اذ كانت تنحت على شكل صفيحات كما كانت الرسوم عليها مدهشة حقاً • ويمكننا أن نحكم على مدى رقيّها من تأمل الرسوم المجوّفة والرسوم النافرة والقطع الرائعة من كريستال الصخر مثل الاباريق الكبيرة والاحواض أو الكرات القادمة على الاخص من مصر الفاطمية ، والتي يمكن التمتع بالنظر اليها في متحف اللوفر وفي خزائن القديس مرقص في البندقية أو فى متاحف أوروبا الاخرى • ولقد اختفت تقنيات

الحفر على الحجارة الكريمة من الغرب الهمجي في حين احتفظ العالم الاسلامي بها وطورها بحيث لم تعد الى أوروبا الا في وقت متأخر جدا •

منتجات البحر

يؤلف السمك أساس غذاء السكان على مساحات شاسعة من سواحل المشرق مثل البحر الاحمر وجنوبي جزيرة العرب والخليج العربي • أما على سواحل البحر الابيض المتوسط فلم يكن صيد السمك يتخذ مثل تلك الاهمية لان رقعة المياه الغنية بالاسماك تكون ضامرة بسبب ضعف مساحة الرصيف القاري الذي سرعان ما يتخلى عن مكانه للقيعان العميقة • ولم يكن الصيد ممكنا في ذلك العصر إلا في بعض المناطق مثل بحيرات دلتا النيل ، والعتبة القارية في مضيق صقلية وعلى الساحل الشرقي التونسي ، ومنطقة مضيق جبل طارق ، دون أن نهمل بالنسبة لبحر الظلمات الرصيف القاري العريض تجاه ساحل المغرب • وكان يعيش في كل المناطق المذكورة أقوام بحرية تمارس وسائل صيد قديمة • وأخيرا كان صيد سمك التن يتم في فترة الهجرات الكبرى السنوية لهذا الحيوان • وكان الصيد يتم اما بواسطة الخطّاف ، كما هو الحال في أيامنا في مضيق صقلية ، أو غالبا بواسطة المزربّة ، وجمعها مزارب ، وهي عبارة عن مجموعة شباك تساق اليها رفوف أسماك التن° • وتدعى هذه الشباك tonnaria في أيامنا في صقلية • ومنها جاءت كلمة madrague الفرنسية والتي جاءت من كلمة مزربة ، وهي سلّة أو قفّة على شكل قارورة ذات فوهة ضيقة•

وهناك الملح وهو عنصر جوهري آخر في الغذاء ، ولكن له أهمية أيضاً في الصناعة الغذائية كالمصبّرات ، أو في صناعات أخرى مثل المنسوجات والدباغة، وكان يستخرج من ممالح على الساحل أو يقتلع من الارض في الداخل ، وهو الملح الصخري • وكان يدخل في مجال التجارة الكبرى نحو بلاد السودان ، اذ

كانت القوافل تنقل الملح من تغازة، وهي واحة هزيلة في شمالي الصحراء الكبرى قرب موقع تادوني كي تذهب لمبادلته على ضفاف نهر السنغال بالذهب وبالعبيد .

هذا كما كان البحر يقدم مواد ثمينة جداً كالعقيق واللؤلؤ وحراشف السلحفاة والعنبر الرمادي .

ويعتبر المرجان الاحمر انتاجاً مميزاً للبحر الابيض المتوسط ، فكان يصاد من مرسى الخرز تجاه مدينة القالّة شرقي عنّابة . وكان يصدر بمقادير كبيرة نحو الخليج العربي الذي لاينتج المرجان الاحمر أو العقيق ، ونحو الهند حيث تصنع منه حلي وتمائم وأطواق مرغوبة جداً . وكان العقيق يؤلف مادة هامة في صادرات بيوتات التجارة اليهودية في فسطاط القاهرة نحو المحيط الهندي . أما اللآلىء فكانت تأتي من المحيط الهندي ، كما كانت مغائص الخليج العربي الكبرى تحقق صادرات مستديمة نحو مدن العالم الاسلامي . وكان انتاج المرجان واللآلىء يستدعي تنظيما تجاريا قائما بذاته في المغائص، وأساطيل ضخمة، ومراقبة الصيد بواسطة تجار وسماسرة متعهدين ، واشراف وجباية رسوم من قبل الدولة. وكان صدف السلاحف يأتي على الخصوص من سواحل أفريقيا الشرقية ويرسل الى فسطاط القاهرة حيث كان يصنع منه الصناعون المتخصّصون أدوات الصدف. وكان يؤتى بالعنبر الرمادي ، وهو إفراز يتشكل في أمعاء حوت العنبر Cachalot من سواحل المحيط الهندي والمحيط الاطلسي ، وكانت القطع المقذوفة تجمع ، على وجه التحديد ، من سواحل جزيرة العرب ، وأفريقيا الشرقية والغربية وعلى الساحل الاطلسي لشبه جزيرة ايبريا . ويقدم العنبر عطراً أو مادة تدخل في صناعة العطور ، في حالة العطور المختلفة .

وهكذا كان المسلمون سادة تجار الاحجار الكريمة ، مثلما كانوا أيضاً بالنسبة لمختلف المنتجات الثمينة المستمدة من البحر .

أدوات الكتابة والقرطاسية

كان العالم القديم يستخدم في الكتابة مادتين مرغوبتين جداً هما بردي مصر والرق أو القضيم •

وكان يتم صنع البردي ، أي البابيروس ، ابتداء من شرائح من لحاء ترصف على شكل طبقات أفقية وعمودية متعاقبة ، ثم تضغط كي تتحول بعدئذ الى أوراق ملتصقة بالنشاء فيما بعد أي ما يشبه صناعة الخشب المعاكس • أما الرق فكان يصنع من جلد الخروف المرقوق والمصقول • وكان يصنَّع في البداية في آسيا الصغرى في مدينةبرغامة أو Pargamon ومنها جاءت كلمة برشمان Parchmin الفرنسية،ثم استخدمه السلوقيون في حين استمر اللاجيّون[1] في استخدام أوراق البردي•أما في الامبراطورية الرومانية والبيزنطية فإن برديمصر كان هو الاساس في الوثائق الرسمية ، أي كنوع من ورق مطبوع ، مع عنوان خاص مكتوب في أعلى الورقة • أما الرق ، فكان على العكس ، من مميزات مملكة البارثيين Parthe والسلوقيين ، ومن ثم الساسانيين•

وكانت الخلافة الاموية تستعمل البردي في كل دوائرها الرسمية ، وفي القرن الثامن ، استبدلت العبارات الرأسية الاغريقية بعبارات بالعربية ، متّبعة في ذلك سياسة كان منها ظهور عملة من نمط اسلامي ، وتبني اللغة العربية في المكاتب فضلا عن أمثلة أخرى في التعريب •

ولكن العباسيين الذين كانوا أكثر تأثراً بالتقاليد الفارسية ، وبوزرائهم الايرانيين ، وخاصة البرامكة ، فقد استخدموا الرق عوضاً عن البردي في مكاتبهم الجديدة بغداد حيث كان ينتشر فيها خلال القرن الثامن الكثير من العبارات الفارسية الاخرى •

---

(١) اسرة من البطالمة حكمت مصر من ٣٦ الى ٣٠ ق٠م٠

وفي أواخر القرن الثامن حدث تحول جوهري وهو أن جعفر وزير هارون الرشيد وحفيد رائد الاصلاح المذكور ، خالد بن برمك ، أدخل استعمال الورق في المكاتب الرسمية . وتعود أسباب هذا الاصلاح كما يوردها المؤلفون العرب الى رخص ثمن هذه المادة ، ولا سيّما لاستحالة حكّ أو غسل الورق دون ترك أثر ، وهو ماكان يحدث بالنسبة لورق البردي أو الرق ، وبذلك أمكن الحصول بعد استعمال الورق على وثيقة حقيقية صحيحة .

ترى من أين أتى هذا الورق ؟ لقد عرفت الصين منذ القرن الاول الميلادي ورق الكتان والقنّب . وأقدم الوثائق المعروفة على الورق هي محفوظات تعود للقرنين الثاني والثالث ، وقد وجدت في التركستان الشرقية التي ظلت منطقة نفوذ صيني حتى القرن الثامن والمحفوظة في المتحف البريطاني . وهكذا انتقلت صناعة الورق من الصين نحو آسيا الوسطى ، واذا كانت الامبراطورية الساسانية لم تصنع الورق فقد كانت تعرفه على الاقل والذي كانت تستورده من الصين. وعلى أثر الانتصار الذي حققته جيوش الاسلام على الصين في عام ٧٥١ على ضفاف نهر طلس ، فقد فتحت آسيا الوسطى لتأثير العالم الاسلامي والذي راح يمتد حتى التركستان . والرواية التي تقول ان أسرى صينيين أدخلوا صناعة الورق الى سمرقند حيث كانت تقع بجوارها مزارع واسعة لزراعة الكتان والقنب تؤكد حقيقة تاريخية : وهي أن انتقال التركستان الى الفلك السياسي والاقتصادي للعالم الاسلامي جعل من الميسور هجرة التقنيات الصينية الى الغرب . وليس من نافلة القول أن نذكر في معرض كلامنا عن الوزير جعفر البرمكي الذي أنشأ أول مصنع للورق في بغداد في عام ٧٩٤ أو ٧٩٥ أن شقيقه كان في الوقت نفسه حاكماً على سمرقند .

وهكذا انتشر الورق في القرن التاسع والعاشر في كل العالم الاسلامي ، فقامت مصانع مشهورة في بلاد الشام حيث تجد زراعة القنب شروطاً موائمة ، وفي صقلية وفي الاندلس ، حيث كانت مدينة شاطبة تصنع الشاطبي وهو اسم

لايزال يمنح حتى اليوم في المملكة المغربية لنوع من ورق سميك • هذا كما تخلت مصر نفسها شيئاً فشيئاً عن تحضير البردي • وفي القرن العاشر كان القرآن الكريم يكتب على الورق في مصر• كما لم تعد وثائق القرنين العاشر والحادي عشر مكتوبة على البردي، الذي لم يبق منه سوى اسمه بابييه Papier • كما أن الدواوين البابوية والبيزنطية التي ظلت وفية لتقاليدها في استعماله حتى هذا التاريخ تخلت عنه بدورها في نهاية القرن العاشر • وأوائل الوثائق الغربية المكتوبة على الورق والتي لا تزال محفوظة تعود لمطلع القرن الثاني عشر ، وهو ورق مستورد بعد شرائه من مصانع اسبانيا وصقلية • أما بيزنطة من جهتها فقد كانت تحصل على الورق اللازم من بلاد الشام ومن مصر • وانتظرت أوروبا الغربية حتى القرن الثالث عشر كي تنتقل اليها التقنيات نفسها وحيث قامت مصانع للورق في ايطاليا وفي جنوب غرب فرنسا •

المُنتَجَاتُ الطِّبِّيَّةُ

لقد كان تطور ما يدعى بالطب « العربي ـ اليهودي » في الواقع يقوم فوق أساس قديم من الطب الاغريقي ، الذي ترجم الى السريانية ، والآرامية أو العربية ، أو بعبارة أخرى انتقل الى المجال السامي • وعلى أساس المعطيات الاغريقية راح يعمل الاطباء المسلمون والنصارى واليهود ، والتي اليها روافد من الشرق القديم ، من المدرسة الايرانية في جنديسابور على الاخص ، أو خوزستان الحالية ومن الهند • وهكذا اندمجت دورة الطب اليوناني ، شأن الفكر اليوناني بشكل عام ، اندمجت مع دورة مؤلفات أرسطو ، وبعد أن انتقلت المؤلفات الطبية من اليونان الى بلاد الشام ترجمت الى الآرامية أو الى العربية، ثم توطدت أركانها في المدن الكبرى مثل بغداد والقاهرة وقرطبة الى أن ترجمها يهود اسبانيا الى اللاتينية ، وعلى صورتها هذه توصلت الى مدن الغرب النصراني مثل سالرنو ، في جنوبي نابولي ، في القرن التاسع ومن ثم الى مونبيلييه في جنوبي

فرنسا ، وكانت بيزنطة في الفترة الواقعة بين القرن الثامن والحادي عشر تؤلف « جزيــرة » رجعية ، متأخرة على الصعيد الطبي . وكانت العلاقات وثيقــة وأكثر عراقة بين الشرق وبين الغرب اللاتيني بواسطة البحر الابيض المتوسط الغربي الاسلامي مما كان عليه الحال بواسطة الاتصالات المباشرة مع بيزنطة ، وكان شمعون سيث seth في عام ١٠٧٥ م أول من تكلم عن السكر في بيزنطة وسرد أسماء الادوية المستعملة لدى العرب والتي لم تدخل علم الطب فعلا إلا في القرن العاشر . وقد كان النصارى النساطرة هم الذين استمروا لفترة طويلة يديرون مدرسة جنديسابور . هذا كما تعاظم تأثير الطب الهندي ، الذي كان هو السائد في البلاط الساساني ، في العصر العباسي ابتداء من عام ٧٥٠ . وجاءت ملاحظات جديدة لتغني ما يسمى بالمادة العلاجية materia medicinae وهكذا نمــت دراسة سكر القصب في خوزستان ، في جنديسابور ، وأصبحت أهميتها رئيسية في علم تركيب الادوية الشرقية ، أو الاقرباذين ، لتحضير العلاجات ولجعلها قابلة للشرب أو للتناول .

ويفسر انتشار المؤلفات الطبية وكذلك تعــدد المراكز الطبيــة والمشافي والصيدليات في العالم الاسلامي ، يفسر اثراء المادة العلاجية من عقاقير وأدوية ، وقد أدت الدراسات الكيماوية الصيدلانية من ناحية أخرى الى صنع مواد ترف مثل زيت الورد، والبنفسج والقرنفل ، والمرهم والادهان ، والعطور والخضاب والمشروبات المنعشة والاشربة . واكتسبت تجارة العلاجات وعقاقير «التواليت» حينئذ أهمية عظيمة ، سواء بالنسبة للمنتجات ذات الاصل المعدني مثل حجــر الشب المصري ، وبورق أرمينية ومصر ، وكبريت صقلية ، والاحجار اليهودية ، وتراب برقة أو تراب مغام قرب قرطبة ، أو من أصل حيواني مثل كاستوريوم البلغار[١] وبزوار besoar فارس أو البلاد المتاخمة للصين ، وترياق القدس المصنوع من أجسام الافاعي المسحوقة أو أيضــا منتجات من أصل نباتي :

(١) مادة تفرزها غدة تقع تحت ذيل كلب الماء او كاستور .

كحشيشة القنب والافيون اللذين كانا يستعملان بكثرة في العالم الاسلامي على شكل نشوق أو تبخير ، وكانت هنـاك أيضا نباتات مخدرة تستعمل أيضا في السحر . هذا كما كانت دارجة أيضا تجارة الصمغ الراتنجي لنبات styrax أو لبّان الشام، وبلسم جبال القدس ، والنعنع ، والراوند ، واهليلج شرقي الاردن، والجنبر وخروع مصر الخ .

هذا كما كان يعتبر النبيذ نفسه دواء،اذ كان الناس يشربونه معطراً بالتوابل. وحل السكر محل العسل في صنع اللعوق حيث كانت تدخل فيه خلائط من مساحيق ومن مستخلصات طبية . وكانت هناك خرافات تسري حول أصـل العقاقير القادمة من بعيد ، وعن تراكيب غير موثوقة ، مثل « الطباشير » الذي يستحضر من صمغ مائل للبياض يفرزه قصب البامبو الذي ينبت في الصين وعلى ساحل مالابار والذي يحوّل الى رماد . وظل الطباشير يعتبر حتى القرن السابع عشر كترياق شاف من كل العلل . وكان أحد أثمن السلع في الاسكندرية ، وفي بيـزه وفي البندقية ، وأحد أكثر السلع رواجاً في العصر الوسيط . وكان هناك عدد لا يحصى من النباتات المرغوبة والتي يجري البحث عنها بنشاط ، منهـا البسيط والتي لاتزال مستعملة حتى الآن ، وتقطف وتصدّر ، ولكنها كانت تستورد أحيانا من الهند والصين ، وجزر الهند الشرقية أو من أفريقيا الشرقية. وكانت تجارة العقاقير تستحوذ حينذاك على أهمية عظيمة وتساعد على تنميـة المبادلات على مسافات طويلة ، وعلى تطوير العادات . وفي هذ العصر وصل أفيون ايران الى آسيا الوسطى والشرق الاقصى .

العَبِيدُ

لقد كانت الحضارة الاسلامية ، التي أعقبت حضارات العصر القديم الكبرى والامبراطورية البيزنطية ، حضارة احتفظت بنظام الرق[1] . فقد كانت القوة

(١) **الاستعباد والرق** : يعود الاسترقاق الذي هو ثمرة اذلال القوي للضعيف الى اوائل العهـد

المحركة والطاقة مطلوبتين حينذاك في معظمها من عضلات الارقاء سواء كان ذلك

=

البشري . فقد كان هناك عبيد لدى العبرانيين ولدى الاغريق ولدى الرومان ولدى العرب القدامى . وكان عبيد اسبارطة يعاملون معاملة متطرفة في قساوتها وكانوا يسمون ايلوت . وكان الرومان يحصلون على عبيدهم من بين الاسرى ومن بين الشعوب المغلوبة . وكان النخاسون يسيرون خلف الجيوش ويشترون اعدادا كبيرة من الاسرى بالمزاد العلني كي يسوقوهم ليباعوا بالمفرق في أسواق النخاسة . وكان عدد العبيد أحيانا يفوق عدد الاحرار لان ابن العبد يولد عبدا . اما في نظر القانون المدني فلم يكن العبيد اكثر من ادوات ووسطاء ، وكان كل ما يحصلون عليه ملكا لسيدهم ، ومن هذا جاء القول « العبد وماملكت يداه لسيداه » . وظل للسيد خلال حقبة طويلة حق حياة وموت عبيده . ولهذا كانوا كثيرا ما يثورون وقد خاض الرومان عدة حروب حقيقية رهيبة ضد عبيدهم عرفت في التاريخ الروماني باسم حروب العبيد، والتي جعلت فناء روما قاب قوسين او ادنى . هذا ولم يكن العبيد حتى بعد عتقهم في نظر القانون الروماني القديم على قدم المساواة مع الرجال الاحرار اصلا عند الولادة . وكانوا يتخذون كنية سيدهم الذي يكون عادة حاميهم . أما في الميدان السياسي فلم يكن بمقدورهم باوغ بعض المراتب كما لم يكن بامكانهم التزاوج مع الاحرار . والواقع كان وضع العبيد يتعلق بذكاء وبحنان سادتهم . ولكن كان العبد على أصناف عديدة شديدة التباين فيما بينها ابتداء من اولئك الذين يقومون باشق الاعمال حتى أولئك الذين بلغوا درجات سامية من الثقافة كالفلاسفة والنحاة الذين كان يعهد اليهم بتنشئة أبناء السادة . وتدلنا الوثائق على ان العديد من مشاهير الرومان كانوا يعاملون عبيدهم معاملة طيبة جدا ، فكانوا يعتنون بهم ويعالجون مرضاهم ويحزنون على موتهم أو بعبارة أخرى كانوا يعتبرونهم أفرادا من أسرتهم. وقد أعتق شيشرون عبده تيرون وجعل منه أمين سره وصديقه . وفي ايام الامبراطورية منحوا حق التماثل مع الاحرار بصورة متزايدة حتى لقد وصل بعضهم مناصب عالية في الوظائف . وكانوا يمارسون بعض المهن التجارية والصناعية التي يزدريها الاحرار . وقد وصل بعضهم لمرتبة مستشار الامبراطور مثل نرسيس كما لمع بعضهم لعبقريته ولموهبته مثل تيرنس وايزوب وفيدر الخ . وكان الشاعر المشهور هوراس ابن معتوق . مثلما برز ياقوت الحموي في علم الجغرافية العربي وهو عبد أعتقه تاجر بغدادي. وقد عمل تأثير الفلاسفة على تحسين وضعهم . كما منحتهم المسيحية الكثير من العطف والشفقة ، أما الاسلام فقد جعل تحرير العبيد كفارة لبعض الذنوب الى جانب اطعام المسكين والصيام . فقد جاء في الآية ١٧٧ من سورة البقرة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في الباسـاء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » .

وجاء في الآية ٩٢ من سورة النساء « وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأفتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة لى اهله الا ان يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وانكان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ».

وورد في سورة البلد « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة . او اطعام في يوم ذي مسغبة » . وورد في حديث يروى عن الرسول قوله : (لا تنسوا انهم اخوانكم) .

ولا زال مفهوم الرق موجودا ولكن بصورة محدودة جدا في داخل افريقيا السوداء . ولم يتحول العبيد الى اقنان الا في عهد القيصر نيقولا الاول في حوالي العام ١٨٥٠ والغي نظام اقنان الارض هذا في عام ١٨٦١ في عهد الاسكندر الثاني . وقد الغي الرق في الهند البريطانية سنة ١٨٣٣ وفي ١٨٤٨ فيالمستعمرات

بالنسبة لفرق العمال الكبرى الذين يعملون في المزارع وفي المناجم حيث كانت الايدي العاملة كلها مسترقة ، أو في المدن حيث كان العمل بواسطة الرقيق يتجاور مع العمل الحـــر ·

ولنفكر أيضا بالرق المنزلي : مثل نساء وخصيان الحريم[1] ، والحشم ،

الفرنسية ، وفي سنة ١٨٦٥ في الولايات المتحدة الامريكية بعد حرب الانفصال ، وفي البرازيل سـنة ١٨٨٨ وفي عام ١٩٦٥ في المملكة العربية السعودية في عهد المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز ·

ولايزال التمييز العنصري آخر شكل من أشكال الاسترقاق كما في جنوبي افريقيا ،حيث يحظر على الزنوج الذين يؤلفون اربعة أخماس السكان التزاوج مع البيض أو التمتع بالحقوق العمالية أو الانتخاب او السكن في أحياء البيض ·

(١) هناك تفاصيل رهيبة عن عملية فظيعة هي الاخصاء يوردها المقدسي ويفصلها المستشرق الكبير أندريه ميكل في كتابه « الجغرافية البشرية للعالم الاسلامي » ج ٢ ص ٣٢٥ :

« اذا كان العبيد الذين يصدرون نحو المشرق يحتفظون برجولتهم سليمة ، فقد كان العبيد الذين تستوردهم اسبانيا ، أو تعيد تصديرهم يخضعون لعملية الخصي قبل دخولهم هذا القطر وذلك على أيدي التجار اليهود الرودانيون · فقد كانوا يجعلون الاعضاء التناسلية « على مستوى البطن » ، وذلك ببتر الجهاز التناسلي دفعة واحدة أو على مرحلتين ، أولا بشق الصفن لاستخراج الخصيتين ثم يوضع القضيب فوق لوح خشبي ويقطع من قرب جذره ، ومن ثم يوضع في فتحة أصل القضيب أنبوب رصاصي أجوف كي تظل الفتحة البولية سالكة بعد التحام الجرح · وهذه العملية التي كانت تتم بكل برودة دم كانت مسؤوليتها تقع على عاتق القهرمان والنخاس والمستخدم ، أي على عاتق النصارى واليهود والمسلمين من أبناء ذلك العهد ·

وهو أمر مألوف بالنسبة لذلك العصر يخلو من الانسانية بالنسبة لمفاهيمنا في هذا العصر ، وقـد خلد المتنبي في قصيدته الدالية المشهورة أشهر الخصيان وهو كافور الاخشيدي حاكم مصر :

صار الخصيُّ إمام الآبقـين بهـا   فالحـر مستعبد والعبـد معبـــود

واستنادا الى الشريعة الاسلامية لم يكن العبد أبدا مثل الرقيق res والذي تختلف تفاصيل تطبيقه والخاضع لارادة سيده ونزواته · صحيح انه كان مملوكا لسيده ويمكن بيعه وشراؤه كما كان يؤلف جزءا من الارث ، غير أنه كان يتمتع بحقوق معترف بها كحق الزواج ، والذي تختلف تفاصيل تطبيقه باختلاف المذاهب الاربعة ، وحق الام بعـدم الانفصال عن ابنها ، وحق الزوجين الرقيقين بالعيش سوية ، واخيرا بأن يلقى معاملة طيبة · واذا أساء المالك معاملة مملوكه فان ذلك يؤدي الى عتقه وعلى المحتسب الاشراف على تطبيق ذلك · كما تعترف أكثرية المذاهب بصحة زواج يتم بين زوجين احدهما حـــر والآخر عبـد ·

واذا كان من حق السيد أن يتسرى ببعض النساء من إمائه فانه من المحرم عليه أن يستغلهن في البغاء ، فقد ورد في القرآن الكريم : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا » ،كما أن الاولاد الذين ينتجون عن التسري كانوا احرارا ،فقد كان العديد من الخلفاء العباسيين ينحدرون من أمهـــات إماء · وكانت الفتيات الاماء الصغيرات موضع عناية كالتعليم والتثقيف كي يقمن بدور سراري في المستقبل

والمطربين والموسيقيات والعازفات في قصور الملوك أو الشخصيات الكبيرة .

او كي يصبحن مطربات او راقصات في الحفلات والافراح . وكانت الإماء القوقازيات شهيرات للغاية في هذا المجال ومرغوبات .

وكان رقيق المنزل يتمتع بكل رعاية على العموم ، فكان يعتبر احد أفراد الاسرة ، وهناك حديث شريف يثني على العبد اذا اخلص لسيده ومحضه النصيحة . وكان من المتعارف عليه ان يضع السيد عبده على راس تجارته مع كل المسؤوليات المتعلقة بها ، مثل ياقوت الحموي الجغرافي المشهور . وقد كان هناك في العصر الاسلامي عبيدا كانوا ملتزمي ضرائب وأساتذة علماء كبار . هذا كما يمكن للعبيد ان يمارسوا في المدن الضخمة وظائف تنفيذية ولكن ليس القضائية ، كان يكونوا مثلا موظفين ثانويين في الدوائر المالية . أما اذا كانوا مسلمين ومثقفين فيمكنهم الاضطلاع بمنصب الافتاء بشكل غير علني اذ لا يحق له التعيين بهذا المنصب بصورة رسمية ، كما يحق له أن يؤم الناس في الصلاة ولكن لا يحق له الامامة والخطبة في صلاة الجمعة . وكثيرا ما كان ينص السيد في وصيته على عتق فلان وفلان من مماليكه ولاسيما المسلمين منهم . وكان هناك أيضا « عتقاء جزئيين » في حالة كون المبلغ اللازم للفكاك ، والذي يمكن ان يساهم العبد نفسه في دفعه ، لم يسدد تماما ، او في حالة « العبيد العامين » الذين يخصون عدة مالكين في آن واحـد .

اما رقيق المزارع الكبرى أو المؤسسات الصناعية ولا سيما مزارع الدولة ومؤسساتها فقد كانوا يخضعون لاوضاع اكثر قساوة بكثير من عبيد المنزل . ففي آخر القرن التاسع الميلادي اندلعت ثورة الزنج ، وهم عبيد زنوج جلبوا من ساحل أفريقيا الشرقية الى بطائح العراق . وبعد عدة قرون من الزمن حدثت حركات تمرد رهيبة في معسكرات الرقيق في أقطار المغرب التابعة للخلافة العثمانية ، وكان هؤلاء عبارة عن عبيد اوروبيين امكن الحصول عليهم بواسطة غزو البحارة المسلمين لسواحل أوروبا الجنوبية ، والـتي كان يقابلها الفرنجة بغزوات مماثلة يقتنصون فيها الناس من الساحل المغربي وقد تكلم عن ذلك الحسن الوزان الذي سقط نفسه اسيرا بايدي القراصنة الصقليين الذين قدموه هدية للبابا عام ١٥١٥ .

وكان هناك الرقيق المؤلف من الجنود الذين يؤلفون « المليشيات » او الحرس ، فبعضهم من العرق الاسود ، والآخرون من العرق الابيض او « الصقالبة » . وكان وضعهم لايختلف كثيرا عن وضع المرتزقة الاجانب . فقد اشتركوا ، وهم تحت قيادة ضباطهم ، في أكثر من معركة من أجل الاستيلاء على السلطة . وقد لعب المماليك في مصر خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر ، دورا كبيرا في حكم مصر والمشرق العربي وهم اصلا من عبيد القوقاز الشراكسة ، ومن أبرزهم قلاوون وبيبرس وآخر سلاطينهم قانصوه الغوري الذي قتل في معركة مرج دابق في وجه السلطان سليم وهو باني برج قلعة حلب المواجه لدار الحكومة الحاليـة .

وكانت مهنة النخاسة مهنة معترف بها وتخضع لرقابة شديدة . وكانت القاعدة هي تحريم استعباد المسلم الا اذا كان قد اعتنق الاسلام وهو عبد أو أنه ينحدر من أبوين مملوكين . ولا يمكن تحـويل مسلم من أصل حر الى رقيق . ولكن حدث خلال الحروب الاهلية أن اعتبـر الظافرون خصومهم مـن « الرافضة » غير مسلمين وبالتالي أرقاء .

وسواء كان الارقاء ضمن اطار الاسرة ، أو في مؤسسات الدولة أو منخرطين في الجيش ، فقد كانوا كثيرين ومتواجدين في الحياة الحضرية والريفية ، فكانوا اذن يؤلفون جزءا من الكيان العام ومن مجتمع المدن الاسلامية في الماضي . وكانت نسبة لا باس بها منهم من المخصيين ، ولا سيما في قصور الملـوك والحكام ، فكانوا رؤساء الحريم وبالتالي كانوا احيانا موضع ثقة أسيادهم . ويشير الجاحظ في كتابـه « كتاب الحيوان » الى ان عملية الاخصاء التي لا توائم الزنوج تكون مناسبة جدا لتنمية كل القدرات

فقد كان حريم عبد الرحمن الثالث (٩١٢ ـــ ٩٦١) في قرطبة يضم ٦٣٠٠ امرأة، بينما كان القصر الفاطمي في القاهرة يحوي ١٢٠٠٠ منهن . كما كانت«الستارة» أو « أوركسترا الغرفة » عنصراً أساسياً في الترف العظيم ، وكانت توجد معاهد خاصة ، في بغداد ، وفي المدينة ، وفي قرطبة ، لتعليم الموسيقيين والراقصين ، كما يتعلمون فيها الادب والشعر والادب والنحو . ويبلغ العبيد الذين يحصلون على مثل هذا التعليم أحيانا أسعاراً خيالية ، ويحصل بعضهم على شهرة كبيرة ، تلك هي حالة اسراق السويداء ، أو الزنجية الصغيرة الجميلة التي كانت على شهرة كبيرة في أسبانيا في القرن العاشر لمعارفها في النحو وفي العروض .

الطبيعية لدى الرجل الابيض اي للصقالبة ، وعلى كل حال فقد كان بعض الخصيان المعتوقين يتوصلون لمنصب قواد الجيش وحتى وزراء او يصبحون حكاما مثل كافور الاخشيدي .

وكان العبد يتمتع فورا بكل حقوقه المدنية والسياسية ويصبح مواطنا كاملا هذا اذا كان مسلما، كما يصبح ذميـا له كل الحقوق وعليه كل الواجبات اذا كان ينتسب الى احدى الديانات السماوية كاليهودية والنصرانية والصابئة . ومما لا شك فيه كانت هناك علاقة تبقى لتربطه بسيده السابق تؤدي لبعض الالتزامات في حالة الميراث . غير ان وضعه لم يكن يختلف اطلاقا عن وضع الموالي ، وهم اناس من الاحرار من غير العرب في أيام الاموين . وهو وضع « تبعية » يؤمن له الحماية ، وحدث في مرات عديدة ان كان للمعتوقين مكانة في المدينة ارفع من مكانة سيدهم القديم . لان وضع الاسترقاق يظل بالنسبة للمسلم على الاقل وضعا استثنائيا ، وتحث الاحكام الدينية على تعديله عن طريق العتق . لان الوضـع العادي بالنسبة للمسلم هو الانسان الحر .

واذا كانت الظروف الاقتصادية والعادات الاجتماعية في ذلك العصر تجعل من الرق في اعين أبناء ذلك الزمن امرا مالوفا ، واذا كان الرق قد ظل من مظاهر المدن في العصور الوسطى ، واذا كانت قـد حدثت بعض مظاهر الظلم والقهر بالنسبة للمملوكين من ذكور واناث ، وهي نتائج لايمكن تحاشيها في نظام الرق ، مثل « خطف الرقيق » على أيدي المغامرين والنخاسين على السواحل الاوروبية او من مجاهل افريقيا السوداء ، فانه من الصحيح القول بأن العقلية الاسلامية تخلو تماما من ذلك الاحتقار المطلق الذي كان يتعرض له الرقيق الذي كان معهودا في المدنيات السابقة كالرومانية أو في القارة الامريكية في القرنين الماضيين .

هذا كما أن الاختلاط عن طريق التزاوج والتسري لدى المسلمين حال دون نشوء ظاهرة التمييـز العنصري كما في افريقيا الجنوبية حاليا او في الولايات المتحدة الامريكية . فقد ظل العبد كائنا انسانيا على قدم المساواة مع اي انسان وذلك حسب التعاليم الالهية ، فكان وضعه في المجتمع ينجم بشكل دقيق عن تشريع ايجابي وليس عن حالة طبيعته العارضة حسب مضمون قول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ » .

(انظر كتاب اهل الاسلام لمؤلفه لويـس غارديه ، بالفرنسيـة ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، باريس ١٩٧٧) .

وأخيراً كان هناك الشكل الآخر من الرق ، والذي لايقل أهمية عن غيره، وهو الرق العسكري : فكان الحرس الخاص في معظمه من الرقيق ، يشهد على ذلك حرس المماليك ، الذي كان في الفسطاط ، في أيام الطولونيين في مصر في القرن الحادي عشر ، والذي يتألف من ٢٤٠٠٠ تركي ومن ٤٠٠٠٠ زنجي • وكان أمويو الاندلس يملكون من جهتهم في القرن العاشر ١٠٠٠٠ عبد في قرطبة • وقد لعب هذا الحرس المؤلف من الرقيق ، والذي كان يقوده ضباط مختارون من بين العتقاء ، لعب دوراً من الطراز الاول لان طولون نفسه كان عبداً تركياً معتوقاً، كما كان أبو المسك كافور ، عزيز مصر بين ٩٦٦ و ٩٦٨ خصيّاً أسود •

وكان قدامى العبيد يلعبون أحياناً في العالم الاسلامي أدواراً رئيسية شأن العتقاء في الامبراطورية الرومانية والخصيان في بيزنطة : أقول يلعبون دوراً سياسياً وعسكرياً بالاضافة الى الدور الذي لعبوه ، ولكن على أيدي جماهير الرقيق ، والذين كان لهم دورهم في الحياة السياسية والعسكرية وكذلك في الحياة الاقتصادية والاجتماعية • ولقد سبق ورأينا الهزات الخطيرة التي تمخضت عن ثورة الزنج في العراق الادنى •

وهكذا كانت تجارة الرقيق اذن تجارة من الطراز الاول • ولكن لايمكن الحصول على العبيد من داخل العالم الاسلامي ، فبعد انتهاء مرحلة الفتوحات لم يبق مكان مطلقاً في داخل الحدود' الا" للمسلمين أو للمتمتعين بحمايتهم من أهل الذمة ، من يهود ونصارى وزرادشتيين ، والذين لم يكن من الجائز استرقاقهم ، الا" في حالات نادرة جداً ، كحالة تحويل الاقباط المتمردين في منطقة الدلتا الى أرقاء • اذن أصبح من الواجب الحصول عليهم من الاقطار المجاورة أو البعيدة ، وذلك اعتماداً على حملات الغزو أو عن طريق الشراء،وهي عمليات كانت تتم في مجتمعات تتصف بقلة التماسك ، لا زالت غير متعضيّة ، أو لاتستطيع الدفاع عن نفسها مطلقاً •

وهكذا كانت توجد ثلاث مناطق للاستيلاء على الرقيق،أو ثلاثة مجتمعات

لمطاردتهم ، ثلاثة مستودعات كبرى ، وهي : بلاد **الصقالبة** وتحتل الدرجة الاولى، ومنها اشتقت كلمة esclave ، وهي بلاد غابات أوروبا الوسطى والشرقية ، ثم بلاد الاتراك أو التركستان ، أي سهوب آسيا الوسطى ، وأخيراً بلاد السودان في مناطق السافانة وحافة الغابة الافريقية •

ففي الفترة الواقعة بين القرن الثامن والحادي عشر كان الصقالبة أو السلاف ينتشرون في الغرب حيث تقدموا في أعقاب الهجرات الجرمانية نحو الغرب بين القرن الثالث والربع،وتقدموا نحو نهر الإلب ومنطقة السال(*) Saale وجبال الالب الشرقية وايستريا ودالماسيا والبلقان حتى جزر البيلوبونيز ذاتها الى أن طردوا منها بعد القرن السادس•أما في الشرق فكانت حدودهم تنطبق على حدود الغابة الكبيرة الشمالية : أي أعالي نهر الدنيبر وأعالي نهر الدون وأعالي نهو الفولغا مع بعض الطلائع في السهل ، حيث كان البوليان Polianes يجابهون الدرفليان Drevlianes • وكانت تنتشر خلف بلاد السلافيين ، باتجاه نهر البلطيق(١) ، الاقوام الفينية ، التي يدمجها الجغرافيون العرب مع **الصقالبة** • وكانت تعيش في سهوب روسيا الجنوبية والدانوب أقوام تركية منغولية : كالخزر والبلغار والمجر • وكان السلافيون ينصرفون لحياة الغابات والانهار ، حياة قائمة على الصيد المائي والصيد البري وقطف الثمار ، موزعين بين قبائل لا ترابط بينها • وراحوا منذ القرن العاشر يتبلورون على شكل دول في منطقتين : هما بولونيا وبوهيميا • ومن جهة أخرى ، وابتداء من القرن الثامن ، أصبحت منطقةالانهار، أي الفولغا والدون والدنيبر مكان تجول الاسكندنافيين وهم الفاريغ Varégues والروس الذين شكلوا في القرن التاسع أمارة روسية ـــ اسكندنافية في كييف ، على نهر الدنيبر ، وهي ثالث نقطة لتبلور قومي • وكان الاسكندنافيون يمارسون تجارتهم في اتجاهين بآن واحد أي نحو بحر الشمال وأوربا الغربية ، وهي محطات على الطريق المؤدي الى اسبانيا والمغرب الاسلامي والبحر الابيض المتوسط ،

(*) او المانيا الشرقية حاليا •

(١) وهو بحر ورنك عند الجغرافيين العرب.

ونحو بحر قزوين والمشرق الاسلامي ، وأخيراً باتجاه البحر الاسود وبيزنطة . وكانت تقوم بشكل خاص على الرقيق الصقالبة ، الذين كانت ترسلهم أمارة كييف الاستعبادية escalvagiste نحو العالم الاسلامي ونحو بيزنطة .

أما في اتجاه الشرق فكانت أفواج العبيد تعبر بلاد الخزر ، على الفولغا الادنى ، وكانت مدينة إتل ، الواقعة على بحر قزوين ، تتقاضى رسوماً على الرقيق ، ثم توزعهم بين الطريق البري ، باتجاه دربند وأرمينية ، وهي مركز اخصاء ، وبين طريق بحر الخزر ، نحو طبرستان والري وبغداد . وهناك طريق عبور (ترانزيت) آخر هو طريق بلغاريا الكبرى ، مروراً بمدينة بلغار ، الواقعة عند التقاء نهر الفولغا بنهر الكاما : وكان يقود هذا الدرب بعد اجتياز السهب الى خوارزم حيث كانت مدينةأورجنج سوقاً كبيرة للرقيق في آسيا الوسطى،والتابعة للأمارة السامانية . وكانت هذه الامارة التي تشتمل أيضا على مدينتي سمرقند وبخارى ، وهما مركزان من مراكز الاخصاء ، كانت دولة تمارس تجارة الرقيق، والتي يشهدعلى نشاطها العدد الكبير من الدراهم السامانية التي عثر عليها على طول الانهار الروسية[1] والتي كانت تستعمل لتسديد كلفة قوافل العبيد وكذلك قيمة المنتجات الاخرى العابرة لبلاد البلغار مثل الفراء والعسل والخيول والجلود. ومن خوارزم كان العبيد يصلون ، بعد أن يقطعوا فيافي آسيا الوسطى ، الى ايران ثم الى بلاد ما بين النهرين ، ومن سوق الى سوق،الى كل أنحاء العالم الاسلامي.

أما في اتجاه الغرب فان تجارة الرقيق كانت من مهام التجار الفرنجة ، ولا

(١) Cf. A. Markof, Topografia kladof vototchnykh Monet. Saint-Pétersbourg, 1910, ainsi que les compléments donnés par R. VASMER, depuis 1925, dans les Trudy Numizmatcheskoj Komisij et les Beiträger zur Kund Estlands, et les nombreux articles parus en Pologne sur des trésors de monnaies arabes : Cf. R. Gupieniecec, Bibliografia numizmatyki Polskiej za lata 1945 - 1957. Warszawa, 1959, 34 p. Polskie towarzystwo archeologiczne biblioteka numizatyczna 1.

سيما التجار اليهود من بلاد الدانوب الاعلى والراين ، كما كان يقوم بها تجار عبر نهر الموز والساؤون والرون • ومن بوهيميا كان الرقيق يصلون الى مدينة راتيسبون بعد مرورهم بمدينة براغ وهي مركز إخصاء ، ومن ناحية أخرى كانوا يرسلون الى الاسواق الجرمانية الواقعة على نهر الالب واقليم السال حتى فردون في فرنسا ، وهي مركز كبير لتجارة الرقيق ومكان للخصي ، ثم يمرون من وادي الساؤون والرون مروراً بمدينة ليون حيث يتسلمهم التجار اليهود الرادانيون والذين أشار الى وجودهم ابن خرداذبة الذي ألّف كتابه سنة ٨٤٧ م ، كما ذكرهم مطران ليون آغوبار Agobart في رسائله والمتوفى سنة ٨٤٠ [١] ، ومن ليون كان العبيد ينقلون الى آرل والى ناربونة حيث ينقلون منها الى أسبانيا أو يصدّرون بحراً مباشرة الى مصر أو الى بلاد الشام •

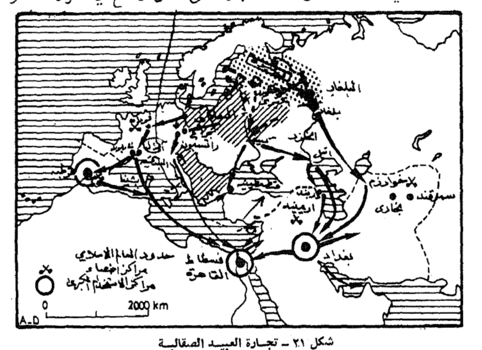
وأخيراً وباتجاه الجنوب ، كانت البندقية مركز توزيع لهذه التجارة • فكانت تتلقى الرقيق الصقلبي الواصل من أعالي الدانوب ومن البلاد الرينانية عن طريق ممرات جبال الالب أو الذين يخطفهم النخاسون من أمكنة أكثر قرباً في جبال الالب الشرقية ومن ايستريا أو من دالماسيا ، ومن ثم يصدرون بواسطة البحارة البنادقة باتجاه موانيء المشرق على البحر الابيض المتوسط • وكانت تجارة وفيرة الربح تأتي لتضاف الى الارباح التي كانت تجنيها البندقية من تجارة تهريب الاخشاب والاسلحة •

تجارة واسعة وأرباح ضخمة • ففي القرن العاشر يتكلم ليوتبران Liutprand في معرض حديثه عن تجارة الرقيق وعن « صناعة » الخصيان في مدينة فردان الفرنسية ، يتكلم عن الربح الهائل immensum lucrum [٢] • وهناك دليل آخر عن مدى اتساع هذه التجارة يكمن في أرقام ثلاث احصائيات متعاقبة عن الصقالبة التي تمت في قرطبة في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث (٩١٢

(١) Mon. Germ. Hist. Epistol. III, pp. 183 et 185.
(٢) Antapodosis, Mon. Germ. Hist. Scriptores, III, p. 156.

ـــ٩٦١) فكانت أعدادهم ٣٧٥٠ و٦٠٨٧ و١٣٧٥٠ رجلا أو بزيادةمقدارها١٠٠٠٠ عبد خلال فترة خمسين عاما ، وفي منطقة واحدة من العالم الاسلامي . وفي عصر تفكك خلافة قرطبة ، في بداية القرن الحادي عشر ، تمكّن بعض الضباط الصقالبة وهم من قدامى الرقيق المعتوقين ، من التوصل لرئاسة عدة ممالك صغيرة في عصر **ملوك الطوائف** ، ولاسيما في مملكة دانية ومملكة بلنسية .

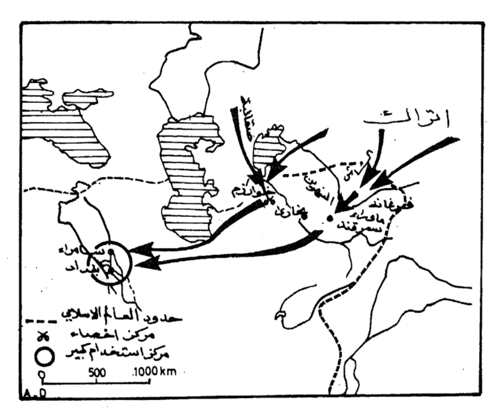
وفي ذلك العصر كان الصقالبة يستوطنون الغابة في حين كان الاتراك يقطنون سهوب[1] آسيا الوسطى حتى روسيا الجنوبية.وكانت نقاط تسرّب العبيد الاتراك في العالم الاسلامي هي المنطقة التي تؤلف فرغانة والشاش وبلاد ما وراء النهر، أي التركستان السوفياتية الحالية ، وبوجه التحديد عن طريق أسواق سمرقند وبخارى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى بلاد خوارزم حيث تُنتهي عندها ، كما رأينا ، احدى أكبر طرق استيراد الرقيق الصقلبي ، والتي تهيمن عليها أمارة السامانيين التي كانت تمارس هذه التجارة على نطاق واسع في القرن العاشر .



شكل ٢١ ـ تجارة العبيد الصقالبة

(١) وتقابل عبارة استبس في الكتب الجغرافية المصرية والسباسب في المؤلفات الجغرافية التونسية.

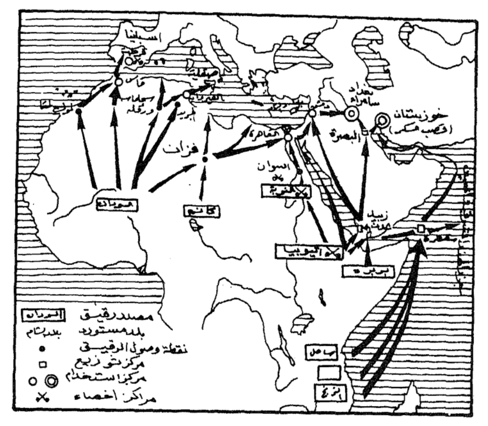
وكان يعاد توزيع العبيد الاتراك من هذه المناطق على أسواق الرقيق في ايران وبلاد ما بين النهرين ومناطق أخرى في العالم الاسلامي • وكانت مهمتهم الاولى تأليف الحرس المسلح للامراء ، أو المماليك • وكانت الخلافة العباسية ، الناشئة عن حركة انطلقت من خراسان ، كانت تقوم بشراء أعداد ضخمة منهم من آسيا الوسطى • فقد شكّل الخليفة المعتصم على الاخص والذي حكم بين ٨٣٣و٨٤٢، شكل جيشاً قوامه ٧٠٠٠٠ تركي ، والذين تسبَّبوا نظرا لفرط عددهم في اضطرابات في العاصمة دفعت بالخليفة للاقامة في سامراء • وابتداء من ذلك الوقت أصبح تسرب الاتراك مستمراً • وحصل بعض الضباط المعتوقين على سلطة كبيرة فأصبحوا قادة جيش ، ورؤساء حرس ، وحتى ملوكاً حقيقيين مثل ابن طولون في مصر ، فكانوا ينصّبون الخلفاء أو يعزلونهم • ويمكن تفسير عودة



شكل ٢٢ ـ تجارة العبيد الاتراك

الخليفة الى بغداد عام ٨٩٢ بالرغبة في التحرر من الوصاية التركية التي خضع لها في سامراء . وقد أدّى هذا التسلل الى الجيش والادارة الى سهولة اعتناق الاتراك للاسلام من الذين ظلوا في خارج حدود الخلافة،وهيّأ نشوء الامبراطورية الاسلامية التي قامت بعد الفتوح التركية الكبرى في القرن الحادي عشر . وابتداءً من أواسط القرن الثالث عشر بلغ المماليك حقاً أوج مجدهم بظهورهم على رأس مسرح الاحداث في مصر .

كان العالم الاسود يؤلف المصدر الثالث للتزود بالعبيد ، العالم الذي ظل يقدم العبيد لأطول فترة ، وحتى مشارف القرن العشرين تقريبا . وهنا يجب أن نميّز ثلاث كتل منها : النوبيين في أعالي النيل ، وكان يتم استيرادهم عن طريق أسوان ، وهي باب الدخول الجنوبي الى مصر ومركز إخصاء ، ولا سيما في تلك الاديرة النصرانية ، وهم البرابرة ، والذين اشتهروا أحيانا باسم « البربريين » والذين تميزوا بعملهم كخدم ممتازين . وكان هناك الاحباش ، وهم ساميون ، كان يتم استيرادهم عن طريق النيل الازرق والنيل أو بواسطة موانىء البحر الاحمر باتجاه مصر أو نحو شبه جزيرة العرب . أما الصوماليون فكان يتم استقدامهم من منطقة بربرة ، عن طريق ميناء زيلع ، الى عدن ، والى سوق التوزيع الكبير الواقع في مدينة زبيد اليمنية ، والذي نشأ في القرن الثامن . وكان يؤلف زنوج ساحل أفريقيا الشرقية ،أي من أقوام الباتتو ، مادة لتجارة رقيق في أقصى اتساعها ومرتبطة بتوسع التجارة الاسلامية الكبرى في المحيط الهندي . وكان يتم الحصول على هؤلاء العبيد من حملات غزو أو يُشرون مقابل سلع تافهة من الملوك الصغار في الداخل . ومن ثم ينقلون الى موانىء الساحل والى سقطرة وعدن ، وهما نقطتا تمركز ينقلون منها بعدئذ الى مصر عن طريق البحر الاحمر أو نحو بلاد ما بين النهرين عن طريق الخليج العربي . ومن المعروف أن شدة تكاثف الرقيق الاسود في العراق أدت بين عامي ٨٦٨ ـ ٨٨٣ الى نشوب ثورة الزنج الرهيبة . ونذكر أخيرا آخر مصدر للتزود بالرقيق وهو السودان الغربي .



شكل ٢٣ ـ تجارة العبيد الزنوج

وهذه عبارة عن مناطق جديدة لاقتناص الرقيق دخلت الاستغلال بفضل تنظيم تجارة عابرة للصحراء الكبرى قوامها تجارة الذهب والرقيق • وكان يتألف هؤلاء من أقوام ساراكوله (تكرور) في السنغال ، ومن السونينكه في غانا ومن سونغائي في منطقة كاوكاو Gao وساءو في إقليم كانم قرب بحيرة التشاد• وكانوا يصدرون من هناك نحو مدينتي نول لمته والى سجلماسة ومنهما كانوا يصلون الى المغرب الاقصى واسبانيا والى ورقلة والجريد باتجاه افريقية ، ونحو فزان ومنطقتي طرابلس وبرقة كي يرسلوا الى مصر ومنها نحو سائر المشرق الاسلامي •

وأخيراً يجب أن نشير الى مختلف الشعوب الاخرى التي كانت تقدم

مساهمتها لنظام الرق عدا الصقالبة والاتراك والزنوج . فقد كان يؤتى بالعبيد الانكلو سكسون عبر بلاد الغول نحو ممر الرون وايطاليا الشمالية والبندقية ، أو مباشرة من ايرلندا والمحيط الاطلسي نحو موانىء اسبانيا الاسلامية أي نحو لشبونة والقصر(*) . وكان الرقيق الهنود يأتون عن طريق هندكوش « قاتل الهندوس » نحو بلخ وسمرقند . وأخيراً يجب أن ندخل في الحسبان الاسرى الذين يسقطون بأيدي المسلمين في حروبهم ضد البيزنطيين أو في الغارات ضد الممالك النصرانية في شمالي اسبانيا ، والاسرى الذين كان يقودهم النورمان في أعقاب حملاتهم على أوروبا الغربية والذين يباعون الى المسلمين عن طريق الانهار الروسية ، وكذلك اللومبارديين الذين يشتريهم تجار آمالفي وتجار المدن التجارية الاخرى في جنوبي ايطاليا ، والذين يبيعونهم من جديد على الجانب الاخر من البحر ، في صقلية وفي أفريقيا الشمالية وفي مصر .

ويعتبر الرق من أبرز الملامح الاقتصادية في العالم الاسلامي . فتدفق الرقيق هو الذي كان يسمح بشن الحروب ويساعد على توسع التجارة في آسيا الوسطى والغابة الشمالية الكبرى ، والسودان الغربي ، وساحل افريقيا الشرقية ، والجزر البريطانية والهند . ولكن ابتداء من القرن الحادي عشر أخذت مصادر الرقيق بالنضوب : فقد توقفت الفتوح الكبرى ، وبعد أن اعتنق السلافيون المسيحية لم يعد بالامكان بيعهم للمسلمين ، كما أن الاتراك الذين اعتنقوا الاسلام لم يعد من المستطاع اخضاعهم للاسترقاق . ولم يبق هناك سوى الزنوج ، ولكن نلاحظ هنا أيضا أن تقدم الاسلام أدى لانكماش المناطق التي يمكن جمع العبيد منها . وقد نجم عن ذلك أزمة في العمل وفي الايدي العاملة الرخيصة ، وأدى الى ظهور أشكال جديدة في تنظيم الايدي العاملة ، كما حدث في الامبراطورية الرومانية الدنيا في القرن الرابع . وقد سلكت الغزوات القبلية في القرن الحادي عشر من أتراك وهلاليين ومرابطين طرق تجارة الرقيق الكبرى نفسها كما أن افتتاح هذه الطرق ونشوء مراكز عمرانية عند منافذ المجتمعات البدائية التي كانت مصدرا

(*) . ميناء في جنوب غرب شبه جزيرة ايبريا .

للرقيق ، هو الذي هيأ السبيل لتدفق جحافلها ، أي قبائل البداة من ترك وعرب وبربر •

* * *

وهكذا يبدو لنا الانتاج الزراعي والصناعي للعالم الاسلامي خلال الفترة الواقعة بين القرن الثامن والحادي عشر وكأنه يحمل علامات القوة والضعف في آن واحد • وتصدر القوة عن حقبة ذلك التاريخ نفسه ، ذلك أن أسس هيمنة العالم الاسلامي الاقتصادية ترتكز على تراث ايجابي خلّفته الحضارات القديمة جداً ، والذي أخذ هذا العالم الاسلامي على عاتقه استمرارية تقنياتها ، مثلما أدخل عليها تحسينات مرموقة • وفي الوقت نفسه استطاع تفادي المخلفات السلبية لهذه الحضارات القديمة : وهو ايجاد تجارة كبيرة بعيدة لسد حاجاته من بعض المنتجات،وتكوين شبكة نشيطة من المدن لمعالجة وتصنيع هذه المنتجات، مثلما سمح له بالحصول على مالا يملكه أو السلع التي لم يعد يملك منها بسبب الاستغلال الحثيث التي كانت الحضارات السابقة مسؤولة عنه والتي اتصفت بتبديد وهدر مواردها •

ويعود ضعف العالم الاسلامي الاقتصادي على وجه الدقة الى افتقاره للموارد الخاصة به ، وعلى الاخص للخشب والمعادن وكذلك للماء : فالمناطق المرويّة غير قابلة للتوسع الى مالانهاية ، كما عمل تحديدها على عرقلة تأمين الأسس النباتية للغذاء الشرقي • وهكذا كانت القدرة الاقتصادية لعالم الاسلام متعلقة على الاقل ببقاء شبكة الري ، وبالامن على شبكة الطرق وبتدفق الذهب وبالنهضة العمرانية • وهكذا نستطيع أن نشرح كيف أن القوة المستمدة من وضع معيَّن في فترة ما من التاريخ تتحول الى ضعف عندما لاتتحقق شرائط التداول السريع ، أي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بتأثير الغزوات الكثيفة التي قام بها الاتراك والمغول في كل المشرق ، والهلاليون في أفريقيا الشمالية،والمرابطون

في أسبانيا ، والنورمان في صقلية ، والصليبيون في الاندلس وسواحل المغرب وبلاد الشـــام .

وقد استفحلت أزمة العالم الاسلامي التي هي الازمة الخالدةفيالبلادالقديمة الشرقية المستهلكة والمعرضة للاجتياحات ، استفحلت بسبب المنافسة التي لاتقهر والتي أبدتها الاقطار الجديدة في الغرب ، وذلك عندما استطاعت هذه الاقطار المذكورة في إثر المؤثرات المشجعة القادمة تماماً من المراكز المحركة في العـــالم الاسلامي ، أقول عندما استطاعت أن تعبىء مواردها الهائلة من الماء والخشب ومن المعادن ، موارد زادت ضخامتها بسبب مجابهتها مع موارد الاقطار الاسلامية التي بدت وكأنها ناضبة المعين تقريبا .

الفصل التاسع

المبادلات في العالم الإسلامي

لقد رسمنا في البداية ملامح الخطوط الكبرى للتدفق النقـدي ومسالك شحنات المعدن الجديد ، التي بعثت الحيوية في الدورة العامة للمبادلات ، ثم الدور الذي لعبته مدن العالم الاسلامي الكبرى في اعادة توزيع النقد ، وهي مراكز استهلاكية ومحركات حقيقية للاقتصاد العام ، ويجب تكميل دراسة التيارات النقدية هذه بدراسة الاتجاهات الكبرى لتيارات البضائع . وتضطرنا هـذه الدراسة أولا للكلام عن وسطاء هذه التجارة من مسلمين ويهود ونصارى .

وُسَطاءُ ٱلتِّجارةِ ٱليَهُودُ

كان أساس التجارة اليهودية نتيجة لوجود **الشتات** ، وهو تبعثر نجم عن أول نفي في عهد نبوخذ نصر ، ثم عن النفي الثاني بعد خراب هيكل أورشليم . وقد أنشأ هذا الشتات سلسلة من الجاليات اليهودية ، استقرت على كل طرق التجارة الكبرى ، والتي تنطبق كذلك على خطوط التهويد . وقد وصلت هذه الطرق الدينية والتجارية في آن واحد ، ابتداء من بلاد ما بين النهرين الساسانية، وصلت من ناحية الى أرمينية ، والى بلاد القوقاز ، وبحر قزوين ، وبلاد الخزر، في اقليم الفولغا الادنى والى السهوب البونتية[1] القزوينية ومن ناحية أخرى الى ايران

(١) بلاد البونت هي المنطقة الواقعة في شمال شرق آسيا الصغرى.

وخراسان وخوارزم وبلاد ماوراء النهر ، وأخيرا الى الخليج العربي والهند على ساحل مالابار •

وانطلاقا من بلاد الشام ومصر البيزنطيتين انتقل اليهود أولا الى شمالي جزيرة العرب ، الى الحجاز ، والى جنوبها ، أي الى اليمن ، والى الحبشة والى كل أقطار البحر الاحمر ، ثم عبروه الى الواحات بدءاً من مصر حتى جنوب المغرب الاقصى ، أي على طول التخوم الشمالية للصحراء الكبرى • وقد أدى هـذا المجموع الثاني من الانتقالات الى حصول تأثير يهودي عميـق على كل العالم العربي البدائي الجاهلي ، وعلى العالم الاريتري في البحر الاحمر ، وعلى العالم الصحراوي ، حيث تنسب الاساطير لليهود ادخال بضعة تقنيات وأشكال سيطرة كبيرة على جنوب جزيرة المغرب •

أما التسلل اليهودي الثالث فقدكان أبتداء من القسطنطينيةوآسياالصغرى، فوصلوا البحر الاسود وبلاد chersonèse الطورية ، أي شبه جزيرة القرم ، وجنوب الروسيا ، حيث امتد خط التهويد الممتد بين بحر قزوين وبلادالخزر• وأخيراً دخل اليهود انطلاقاً من ايطاليا واسبانيا الجنوبية ، وهي أقطار معروفة بمدنها القديمة التجارية الواقعة تقليدياً،منذالاستعمار الفينيقي،ضمنفلكسامي، وهي مناطق عبور من خلال المضائق ، أوصلتهم الى الغرب الهمجي مثل منطقـة اللانغدوك ، ووادي اللوار ، والرون والساءون ، والموز ووادي الراين•وفي العصر الميروفنجي[1] تكلم غريغور التوري ، نسبة الى مدينة تور في فرنسا ، عن السوريين ، أي المشارقة من يهود ونصارى •

وقد غدت هذه المناطق التي بينّا ملامحها ميادين للتجارة اليهودية خلال العصر الوسيط • ففي بعض المناطق كانت الجماعات اليهودية أكثر عدداً من المناطق الاخرى ، وبالتالي أكثـر نشاطاً • ففي الدرجة الاولى يظهـر المشرق

---

(١) اسم منح لاول اسرة من ملوك الفرنجة وقد انتهت هذه الاسـرة في عهـد شلديريك الثالث عـام ٧٥١ م •

الساساني ، وعلى الخصوص بلاد ما بين النهرين ، وهي أرض منفى بابل ، حيث كانت الجالية اليهودية تحت حكم زعيم سياسي ، هو رئيس المنفى Resh Galulha وحيث كان ينتشر تأثير زعماء دينيين geonim من مدرستين لاهوتيتين هما مدرسة سورا قرب الانبار ومدرسة بدمبديتا Pumbeditaالواقعة الى الجنوب منها قليلا ، وهما المدرستان اللتان صدر عنهما التلمود والمسمى تلمود بابل . أما في المجال البيزنطي فقد كانت فلسطين هي المركز اليهودي الكبير ، لوجود مدرسة أورشليم ، ثم تحول الى مدرسة طبرية بعد طرد اليهود من القدس . ومن هذه البيئة خرج التلمود المدعو تلمود أوشليم . هذا وكانت مصر أيضاً مركزاً شديد الحيوية ، فمن اليهودية الاسكندرانية خرج توراة السبعين . أما بالنسبة للغرب الهمجي أخيراً ، فذكر الجاليات اليهودية المستقرة في جنوبي اسبانيا والتي قام الويزيغوط بحملات قمع ضدها ، وجالية صقلية وجنوبي ايطاليا والتي تظهر فعالياتها في التواريخ اليهودية في العصر الوسيط ، كما في تواريخ أوريا وباري وروسّــانو .

غير أن هذه المراكز لم تكن متصلة ببعضها بعضاً بصورة وثيقة : فهنا نجد أيضاً انفصاماً بين الغرب الهمجي ، وبين الرقعة البيزنطية وبين المجال الساساني، والتي كانت تؤلف مجالات اقتصادية منفصلة . وفيما عدا كون هذه المجموعات اليهودية قليلة التنظيم،وعرضة لمنافسة السوريين،فإنها كانت عرضة للاضطهادات. فاضطهاد الساسانيين لليهود أدى الى تسرب اليهود نحو أرمينية وبحر الخزر والمحيط الهندي . أما بيزنطة فقد طردت اليهود من أورشليم ، كما عمدت الى اجبار الكثيرين منهم على التخلي عن دياناتهم ، بعد أن استقبلوا الغزاة الفرس بالترحاب في القرن السابع،مما أدّى أيضاً لهجرة الكثيرين منهم نحو بلاد البحر الاسود وقزوين . أما الاسكندرية فقد كان اضطهاد اليهود فيها مستشريا منذ العصر القديم . هذا وقد حاول يهود صقلية التخلص من سيطرة القسطنطينية المحدودة بالمدن البحرية ، فعبروا البحر الى البر الايطالي . ولم تكن الممالك الويزيغوطية

في غربي أوروبا أكثر رحمة بهم فقد تعرضت الجاليات اليهودية في الجنوب في مدينة مالقة ، وفي سبتمانيا ، أي منطقة ناربونة ، الى اضطهادات عنيفة حملتهم على الهجرة نحو المغرب الاقصى ، حيث دعموا تيارات التهويد هناك • وهذا ما يفسر كيف استقبلت هذه الجاليات على العموم الفاتحين المسلمين بالترحاب : ففي العديد من المناطق ، كما في مصر وبلاد الشام تحول هـذا الترحاب الى تحالف مكشوف ، ساعد على سرعة السيطرة على البلاد المفتوحة : أما يهود أسبانيا الذين هاجروا الى المغرب الاقصى فقد عاد عدد منهم الى اسبانيا خلف الجيوش الاسلامية ، حتى لقد عُهد اليهم بحراسة المدن الكبرى في جنوبي شبه الجزيرة في حين كانت جيوش الاسلام تتابع زحفها نحو الشمال •

وهكذا أخذت تتكون بين ظهراني هذه الجاليات اليهودية ، التي لاتزال قنيلة الاتصال فيما بينها ، طبقة من تجار وصناع ، طبقة متمسكة بالروح التجارية وبالتقنيّات التجارية القديمة في الشرق السامي ، وكذلك بالتقنيات الحرفية ، كتصنيع المعادن الثمينة ، والصباغة ، والدباغة وصناعة الزجاج • ونلاحظ في وصف الجماعات اليهودية الذي كتبه الحاخام بنيامين الطليطلي ، في القرن الثاني عشر ، أنها كانت تتألف من تجار وصيارفة وأطباء وصباغين ، وصاغة ودباغين وقزازين • وفي عشية الفتوح الاسلامية كانت الاطارات جاهزة والخيوط ممدودة•

ويفسر وجود هذا الاساس اليهودي لما قبل الاسلام ، يفسر الى حد ما سرعة سيطرة الفاتحين العرب وانتشار اللغة العربية في الاقطار الواقعة في خارج كتلة اللهجات السامية ، المؤلفة من جزيرة العرب ومن بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين ، أو بعبارة أخرى توسع العربية في مصر وفي أفريقيا الشمالية ــ وذلك على الاقل في المدن وفي طرق المواصلات الواقعة في خارج كتل الجماعات الناطقة بالبربرية ــ وفي اسبانيا•

هذا كما يفسر لنا ازدهار التجارة اليهودية المرتبطة بازدهار الامبراطورية الاسلامية بين القرن الثامن والحادي عشر الميلادي ، وعلى أثر نشوء مجال

كبير موحَّد اقتصادياً ، هو العالم الاسلامي ، تكونت شبكة متآخذة ومتصلة من الجاليات اليهودية التجارية • وبعد أن كانت الجماعات اليهودية البدائية تعيش بصورة هامشية شبه منعزلة تقريبا ، متخذة أوضاع روّاد على طرق التجارة ، أخذت الجاليات المذكورة بالتلاحم ، وغدت متصلة بمراكز توسع الديانة اليهودية الرسمية • وهكذا أخذت تتصل جاليات اليهود في الهند وفي خوارزم وفي القوقاز والبحر الاحمر وفي واحات الصحراءا لكبرى واسبانيا ، أخذت تتصل بالحاخامية الاصلية أي مع بلاد مابين النهرين وبتلمودها البابلي ، ومع فلسطين وتلمودها اليورشليمي ، ومع مصر ومركزها اليهودي في الاسكندرية • وعندما أسس العباسيون بغداد ، في أواسط القرن الثامن ، كي تكون عاصمة الخلافة والقطب الاقتصادي لنشاط العالم الاسلامي راحت المراكز اليهودية في جنوب العراق تفرض صدارتها الدينية وتفوقها الثقافي على سائر اليهود •

وكانت أهم جالية يهودية عراقية تقيم في حي الكرخ ، وهو مركز بغداد التجاري ، وكان زعيم الطائفة ، كما سبق وذكرنا ، هو رش غالوثا ، أو رئيس المنفى ، وكان شخصية لها مكانتها في بلاط الخليفة ، وكانت له مرتبة محددة في الحفلات الرسمية • وكانت مدرستا سورا وبومبديته بجوار بغداد ، وكانت الاولى ترتبط بالعاصمة الجديدة بواسطة نهر اليهودية ، كانتا مشهورتين برؤسائها مثل الغاءون gaon سعدية في القرن التاسع والذين كانوا يرسلون أجوبتهم على كل طلبات جاليات الشتات • وكان القليل جدا من الاجوبة أو الفتاوى الغاءونية تصدر عن مدارس فلسطين لان العدد الاكبر كان يأتي من مدارس بلاد بابل • وعلى نفس الصورة كان التلمود البابلي هو الذي تبنته الجماعات اليهودية الغربية في اسبانيا وبلاد الغول (فرنسا) والاقطار الرينانية • وكانت التبرعات المالية ترد لمدارس العراق اليهودية على شكل حوالات من جماعة لجماعة في المشرق كما هي الحال في الغرب • وهكذا كانت بلاد ما بين النهرين وخوزستان ، ومركزها تشتر ، كانت تظهر وكأنها قطب الرحى بالنسبة لليهودية العالمية •

وظهرت على أثر ذلك تيارات مختلفة من دينية وفلسفية وصوفية تداخلت مع تيارات من المستوى نفســه في الحلقات الاســلامية • وفي مقابلة الحاخامية الرســمية ، المتزمتة والغنية ، كان يقوم الاتجاه الصــوفي والالهامي أو مذهب الكبالة Kabbale • وابتداء من عام٧٦٢ توطد مذهب«القر ّائية»الذي يحاول العودة للتوراة بعد تنقيتها من الشروح التلمودية ، وعلى أثر انحياز الجماعات اليهودية القديمة والجماعات الضالّة لهذا « الاصلاح » نشأت شبكة من الجاليات اليهودية موازية للشبكة الحاخامية ، وأصبحت هذه الجماعات الجديدة أكثــر تلاحماً ببعضها بعضاً ، وبالتالي أكثر فعالية على الصعيد الاقتصادي ، لأنها أقلية ، منبوذة من المذهب الاصلي ، وبالتالي معرضة للاضطهاد أكثر فأكثر • وسيتخذ هذا الخط المزدوج من الجاليات اليهودية ، والمنطلق من المراكز العراقية ، سيتخذ أهميــة رئيسية في العلاقات التجارية •

وقد تمّ التلاحم بين بؤر اليهودية في المشرق وبــين مثيلاتها في المغرب بواسطة الحاخامية الرسمية في داخل المجال الاسلامي ، تماماً كما حدث بالنسبة للنصرانية التي انتشرت ضمن قالب هو الامبراطورية الرومانية • ففي الحقبة الواقعة بين القرن الثامن والحادي عشر كان الكثير من الغاءونيين[1] يعودون أصلا لأقطار البحر الابيض المتوسط ، مثل أسرة سعدية ، المنحدرة من أسرة وفدت من أفريقيا الشمالية •

وعليه فان رسم شبكة المبادلات الثقافية والدينية بين الجاليات اليهودية يعني رسم طرق التجارة اليهودية الكبرى ، مثلما يؤدي أحيانا لتوضيح مخططها، ويعمل دائماً على توضيحه • وقد كان تمركز الحاخامية يسير بشكل متواز مع نمو العلاقات التجارية انطلاقا من المراكز المحرّكة في العراق العباســي • وقد استمرت هذه العلاقات فامتدت لما وراء تخوم العالم الاسلامي بفعل الاتصال مع

---

(١) غاءون كلمة عبرية وهي لقب كان يحمله بين القرن السابع والتاسع رؤساء المدارس اليهودية في بلاد مابين النهرين•

جاليات بعيدة ، من حاخامية وقرّائية ، والقاطنة في بلاد السودان وبلاد الخزر والانهار الروسية أو في الغرب الهمجي .

ويعتبر تنظيم هذه الجاليات هيكل قوام النشاط التجاري ، والقالب الذي تحرك النشاط المذكور من خلاله . ويقوم هذا التنظيم على المسؤولية الجماعية، وهو تضامن جوهري في سبيل كسب الثقة في مادة التعاقدات التجارية وعمليات الاقراض . وكان هذا التنظيم المتين الجماعي المؤلف من كفلاء ومراسلين وجمعيات وبيوتات تجارية ذات فروع عديدة ، كان يتمتع برعاية السلطات الاسلامية التي كانت تجد فيه ، بالواقع ، مصلحتها لحفظ النظام ولجباية الضرائب ، وتقوم منظومة الحكومة الشرقية النمط بصورة عامة على فسيفساء من الاقليات المسؤولة بشخصية الرؤساء الروحيين . وكان اليهود والنصارى يقيمون في حي منعزل تسهل مراقبته . وكان لدى الجالية اليهودية ساع مهمته اعلامها بسرعة عن وصول ومقدار أوساق القافلة ، وصندوق اغاثة ، وعملاء لإيواء السفّار ، وحكَم للفصل في قضايا التجارة ، ومشرف على العقود والاسواق ، ومعقّب لافتداء الاسرى ، حسب تعريفة موحدة في كل مدن البحر الابيض المتوسط كما سبق ورأينا .

وكانت التجارة المرتبطة ، بحراً وبراً ، هي من اختصاص اليهود الرادانيين[١] المعروفين عن طريق نص أساسي في كتاب ابن خرداذبة[٢] . ويبدو أن كلمة الرادانية قد اشتقت من نهر رادانو ، أي نهر الرون ، وهو تفسير أقرب للواقع من الذي اقترحه دي خويه قبل حوالي قرن من الزمن ، والذي يرى أن الكلمة هذه قد صدرت عن كلمة رهدان الفارسية ، ومعناها « عرّافة الطرق » أو «دليل»[٣] . وكان هؤلاء التجار يؤلفون جاليات عديدة ونشيطة ، موزعة في

---

(١) انظر خارطة ٢٤

(٢) كتاب المسالك والممالك . نشر وترجمة دي خويه، ليون ١٨٨٩ ص ١١٤-١١٦ .

(٣) Sur le sens trés controversé du nom de radanites, voir

المنخفض الواصل بين نهر الموز والساءون والرون ، ابتداء من مدينة فـردان Verdun وسان جان دو لوسن ، وليون ، حتى آرل وناربونة ، وهو الميناء الكبير الذي ظلت ذكراه راسخة في اسم عائلة « ناربوني » والذي لازال شائعاً جداً بين يهود البحر الابيض المتوسط • غير أن نص ابن خرداذبة ، اذا كان رئيسياً في هذا المعنى، فهو ليس الوحيد ، فقد أكدته مراجع أخرى لمؤلفين عرب وفرس ، وبوثائق الجنيزه Geniza ، وبكتب التاريخ اليهودي ، واللاتيني في الغـرب •

وهكذا كان شطر كبير من المبادلات التجارية في أيدي اليهود وبيوتاتهم التجارية ، غير المتخصصة بتلك البضاعة أو الاخرى ، كما هي القاعدة في العصر الوسيط • فقد كان اليهود يشترون ويبيعـون كل المنتجات المربحة ، كتجارة الاقمشة أولا وخاصة أقمشة العالم الاسلامي الحريرية ، وبروكار الامبراطورية البيزنطية ، والتي كانت تباع في اسبانيا النصرانية في القرن العاشر ، وتجـارة الحبوب بالجملة من مصر نحو البحر الاحمر ، والخليج العربي وبغداد ، وتجارة السكر : فقد كانت مزارع القصب الكبرى في اقليم خوزستان (الاهواز) تحقق تحويلات مالية الى بغداد بوسطة صك بسيط وتضمن التزام ضرائب الاقليم ، وتجارة التوابل والعقاقير المتعلقة بالطب العربي اليهودي ، وتجارة الذهـب والمصوغات ، والمواد الصينية النادرة ، وبكلمة مختصرة كل ما هو ثمين وبعيد المصدر ، وتجارة العبيد مع كل تخـوم العالم الاسلامي ، مع ملحقاتها مثـل «صناعة» الخصيان ، وأخيراً تجارة النقود والعملات المصرفية •

---

pour marchands « rhodaniens » : L. Rabinowits, « The routes of the Radanites », The Jewish Quaterly Review, 35, 1944 pp. 251 - 290 et Jewish Mershant Adventures. Londres, 1948; pour marchands « routiers » C. CAHEN dans Revue historique, 205, 1951, pp. 119-120; B. Blumenkranz, Juifs et Chrétiens dans le monde occidental (430-1096). Paris - La Haye, 1960, pp. 13-15 et «Y a-t-il eu des radhanites ?» dans Revue des études juives, 1964, pp. 499-506.

ولكن أهمية هؤلاء التجار اليهود كانت تزيد عن ذلك في بلاط الخلفاء العباسيين ، وربما أكثر من ذلك لدى فاطميي مصر[1] حيث كان اليهود يتمتعون لديهم بحظوة كبيرة ودلائل ذلك جوهر Patiel وهو يهودي الاصل من ايطاليا الجنوبية ، الذي فتح مصر لحساب الفاطميين ، وبنى القاهرة للخليفة المعز (٩٧٣ ــ ٩٧٥) ، ويعقوب بن كلّس وزير العزيز (٩٧٥ ــ ٩٩٦) ، والتشتري خلال الوصاية على المستنصر ، والوزير ابن نغريلة اليهودي في الاندلس في عهد باديس ملك غرناطة . وقد نظمت قصائد هجائية عديدة ضد اليهود وضد دورهم العارم في البلاط الفاطمي ، كما اتهمت الاسرة الحاكمة ذاتها بأنها تنحدر من أصل يهودي ، وكان الحسد متعاظماً تجاه ثراء وأهمية التجار والصيارفة وجاليات اليهود الغنية في القاهرة والاسكندرية .

وهكذا سمحت المواضع التجارية التي اكتسبها اليهود من قبل الفتوح الاسلامية بأن يحتفظوا لأنفسهم بدور من الطراز الاول عندما تشكل مجال الاسلام الفسيح . هذا كما حل اليهود تدريجيا مكان منافسيهم النصارى السوريين في مجال التجارة مع الغرب الكارولنجي ، ثم الأوتوني . فقد كان هؤلاء النصارى مستوردي منتجات الترف الشرقية الى الغرب الهمجي . وكان لهم مراكزهم في المشرق وأمكنة بيع تجارتهم في الغرب . أما اليهود الرادانيون فقد كانوا ، من جهتهم ، كما يدل على ذلك نص ابن خرداذبة ، عبارة عن مصدري رقيق وسيوف . وكانت مراكزهم في الغرب متناثرة في وادي الرون والموز والساءون ولانغدوك ، وأمكنة بيعهم في المشرق الاسلامي ، ويعود تغيير اتجاه التجارة بين الشرق والغرب ، جزئياً ، الى أن المجال الاسلامي الفسيح جاء ليحقق قالبا مثاليا للشبكة التجارية اليهودية.

وفي القرن الحادي عشر انحسرت التجارة اليهودية لمواقع ثانوية ، اذ حلت

---

(١) J. Mann, the Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid caliphs. Oxford, 1920-1922, I, pp. 16 et suiv.

محلّها في الغرب بيوتات تجارة ومصارف ايطالية ، مثلما حل محلها في الشرق التجار الارمن • وهكذا تم استبعاد اليهود شيئاً فشيئاً من الاسواق حسب طرائق مختلفة ، كنشوء جمعيات ، وتزاوج مع اليهود (في المدن الايطالية) وردود أفعال عنيفة ، ومذابح ، كما في البلاد الرينانية بعد أول حملة صليبية • وبعد أن أقصوا عن التجارة البحرية الكبرى بسبب تدابير قام بها البنادقة لإقصائهم ، استمروا في ممارسة نشاطهم على الطرق الداخلية التي تؤدي الى حوض الدانوب باتجاه الاقطار السلافية • وهكذا اضطروا شيئاً فشيئاً لشغل مكانة ثانوية في الفعاليات التجارية ، فانحصر مجالهم في دور أرباب دكاكين ومرابين ومموّلين • ولكنهم كانوا بين القرن الثامن والحادي عشر هم المهيمنين بلا منافس على كل طرق وأسواق العالم القديم ، واذا لم يكونوا حينذاك ، كما سنرى ، التجار الوحيدين، فقد كانوا على الاقل أكثرهم أهمية ومتواجدين في كل مكان •

وُسَطَاءُ ٱلتِّجَارَةِ ٱلنَّصَارَىٰ وَٱلْمُسْلِمُونَ

لقد ظل السوريون النصارى حتى العصر الاسلامي سادة التجارة بين الشرق والغرب ، ومن ثم استبعدتهم المنافسة اليهودية تدريجياً من المجال البحري ، أي من البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي ، فلم يحتفظوا بشيء من أهميتهم حقاً الا" في العلاقات القارية في مصر وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين وأرمينية وايران وآسيا الوسطى • والواقع كانت تجارتهم تقوم في هذه المناطق على سلسلة من الجاليات اليعقوبية والنسطورية • ولقد رأينا فيما سبق المكانة الرفيعة للكاثوليكوس النسطوري لدى البلاط العباسي ، وكانت المجامع تنعقد في بغداد• ومع هذا يجب أن نشير هنا الى وظيفة الاديرة على الصعيد الاقتصادي • فقد كانت تلعب دور مستودعات للمال وبنوكاً ، وكثيراً ما كان يستخدمها كبار الشخصيات لإخفاء ثروة حصلوا عليها بطريقة غير مشروعة ، ولكنها كانت تستخدم

كنزل للسفار ، ومقاصف للمشروبات وللخمر ، وأخيراً كمراكز لخصي العبيد في أرمينية وفي صعيد مصر على الخصوص[1] . وهناك العديد من الدلائل الواردة من مصادر قبطية وسريانية وعربية تسمح لنا بالتعرف على ملامح العلاقات التجارية بين مركز نصراني ومركز نصراني آخر ، شبكة تتصل بالزيارات الدينية وبرحلات « الحج » للاماكن المقدسة عندهم . وهنا نشأ أيضاً مناخ موائم للعمليات التجارية بفضل طابع الاقلية والثقة بين بضع جماعات . وهذه الشبكة القائمة على هذه الصورة كانت على كل حال محصورة بالطرق الداخلية .

هذا ويجب أن نفرد مكاناً خاصاً للارمن[2] . فقد كان مجال تجارتهم واقعا بالفعل في نطاق التماس بين العالم الاسلامي والامبراطورية البيزنطية، على الطريق الكبير الذي يربط أعالي بلاد مابين النهرين بمدينة طرابزون . ويذكرنا التوسع الارمني الذي حدث بعدئذ ، نوعاً ما ، على شكل لسان من شتات تجاري ، يذكرنا باليهود . فقد انحدر الارمن من شمالي العراق ومنها وصلوا الى بغداد حيث كانت لهم جالية هامة ، مثلما وصلوا الى آسيا الصغرى والقسطنطينية حيث كانوا هناك جنوداً وتجاراً ومهندسين ، حتى ان الامبراطور باسيل الاول ، في نهاية القرن التاسع ، كان من أصل أرمني ، وفي شمالي بلاد الشام كانت تقع أرمينية الصغرى، حيث كانوا هم المسيطرين على التجارة في عصر الصليبيين ، ولاسيما في ميناء آياس ، كما اندفعوا أخيراً في اتجاه مصر ، اذ كان وزير الفاطميين في نهاية القرن الحادي عشر ، وهو بدر الجمالي ، أرمنياً ، فكوّن لنفسه حرساً مؤلفاً من الارمن واجتذب الى القاهرة المهندسين والتجار من بني جلدته .

أما التجار المسلمون فقد كانوا يستعملون في مخاطباتهم المتعلقة بالشؤون

---

(١) يتكلم القلقشندي في صبح الاعشى ، والمقريزي في « رسالة الالمام عما بارض الحبشة وملوك الاسلام » عن مراكز الخصي بالنسبة للرقيق .

(٢) انظر خارطة ٢٥ .

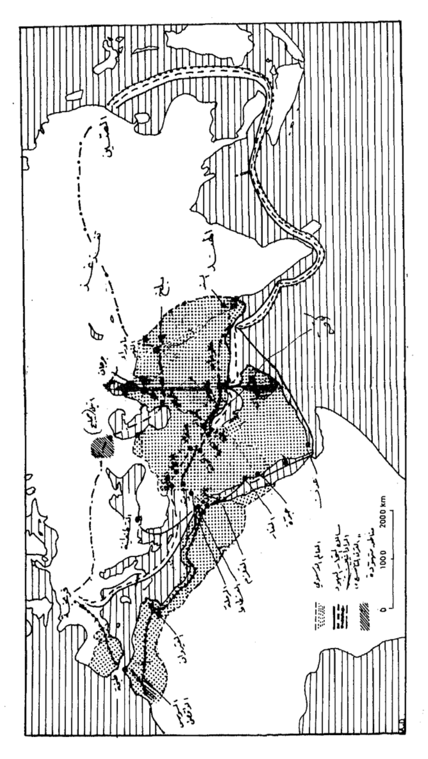
التجارية العبارة التالية : « جعل الله تجارتكم وتجارة المسلمين رابحة »[1] ، والتي توحي بوجود تنافس مع التجار مـن أبناء الديانات الاخرى من نصارى ويهـــود .

ومن المعروف أن هناك تجارة اسلامية نوعية تقوم على شكل معارض كبرى في مواسم الحج الكبرى في مكة المكرمة والتي كانت تقام في النصف الاول من شهر ذي الحجة في كل عام . وهي تجارة كانت تقوم لخدمة الحجاج الذين يجب تأمين معاشهم على شكل جماهير كبيرة ، كما كانت تقوم على عاتق الحجـاج أنفسهم ، الذين كانوا يجلبون معهم بضائع على شكل حجارة ثمينة توفّر مادة أولية لصناع المجوهرات ، وكان أشهرها أحجار الفيروز « المكّي » والتي نسبت الى مكة المكرمة لان أكبر مبيعاتها كانت تتم في موسم الحـج . وعلى كل حال نلاحظ هنا أن هذه التجارة كانت تقوم أيضا على أكتاف جماعات مغلقة ، وفي حالة الاسلام ، وهي الديانة الظافرة والرسمية ، على عاتق جماعات تنتسب الى أصول شتى ، تؤلف شبكة ضيقة يمكن أن تستند عليها علاقات تجارية .

ونجد نموذجاً عن هذا النوع من الجماعات[2] في خوارج أفريقيا الشمالية. وكان هؤلاء ينقسمون بدورهم الى صفرية وأباضية ، ويعملون على توكيـد استقلالهم عن حكومة الخلافة المركزية . وقد أسس الخوارج حوالي العام ٧٥٧ مدينة سجلماسة ، وهي مدينة قوافل كبرى ، باحثين عـن ملجأ في الصحراء ، وتحولت الى مركز لأسرة محلية هي أسرة المدراريين ، ونمت في نهاية القرن الثامن ميناء الصحراء الكبير والسوق العظمى لتجارة الذهب والعبيد . وفي الوقت نفسه كان نجم الرستميين يصعد في مدينة تاهرت في المغرب الاوسط ، وهم من أصل فارسي التجأوا الى افريقيا الشمالية حيث سلكوا مسلك الحركات الخارجة

(١) Cf. J. David-Weill, « Papyrus arabes d'Edfou », Bulletin de l'Institut français d'Archéologie orientale du Caire, XXX, 1931, 33-44, p1. phot.

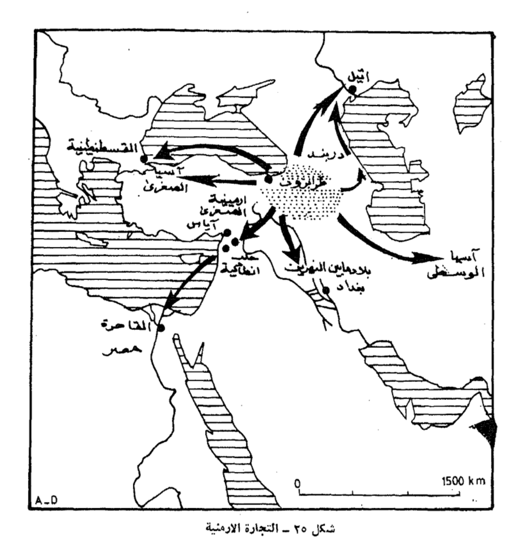
(٢) انظر خارطة ٢٦ .



شكل ٢٤ ـ مسالك التجار اليهود الرادانيين

الكبرى التي هزت أركان هذا القطر خلال كل النصف الاول من القرن الثامن • وقد احتل الرستميون هؤلاء كل المغرب الاوسط وكل واجهة الصحراء ، ولا سيما في الجنوب الشرقي ، أي الى الجنوب من حكومات الاغالبة في افريقية، وهي دولة تتبـع المذهب السني وتدين بالولاء لسلطة خلافة بغـداد ، وامتدت سلطتهم باتجاه جبل نفوسة وواحتي غدامس وفزان ، وطرابلس وجزيرة جربة، وفي فترة ما على كل خليج قابس ، مثلما اندفعوا نحو الجنوب الغربي ، أي الى الجنوب من دولة الادارسة في فاس والتي قامت في نهاية القرن الثامن ، ووصلوا حتى سجلماسة حيث اعترف المدراريون بسيادتهم ، ثم امتدوا لما وراء السوس، فبلغوا نول لمته والمحيط الاطلنطي • وهكذا تشكل خط كبير للتجارة الخوارجية كثيف الحركة يمتد من فزان حتى جنوب المغرب الاقصى ، وهو طريق كان يهيمن من طرف الجنوب ، أي بواسطة واحتي الحضنة وورقلة ، على تجارة السودان الغربي ، المؤلفة من قوافل عابرة للصحراء الكبرى والتي كانت تسمح باندفاع التجارة الخوارجية شمالا حتى قلب المغرب • أما تاهرت التي لقبت « البصرة الصغرى » ، عاصمة الرستميين ، فقد كانت حاضرة بلاد مترمتة ، حاذقة وشريفة في المعاملات ، والتي نهضت بمبدأ مذهب مغلق الى مستوى وأبعاد دولة ، وكان لها وكلاء ، وأخوة ، وعلاقات جماعة لجماعة ، وبالواقع يمكن نسبة ذلك لاستمرار مؤثرات وافدة من الطوائف اليهودية البربرية والصحراوية •

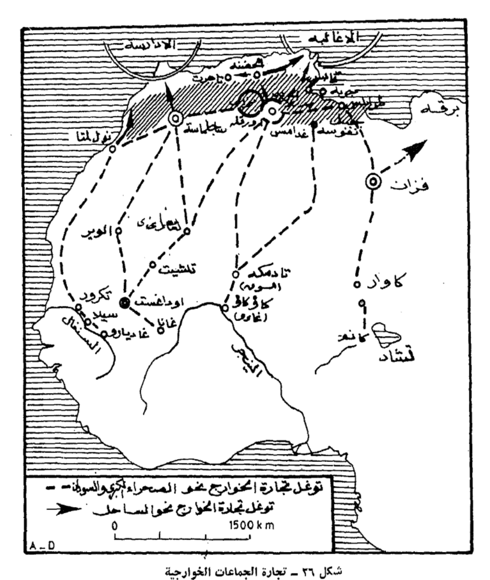
وفي بداية القرن العاشر قام الفاطميون الشيعة ببسط سيطرتهم مكان سيطرة الاغالبة في أفريقية • وفي عام ٩٠٠ سار الجيش الفاطمي على سجلماسة ودمّر في طريقه مدينة تاهرت الخوارجية • وانسحب آخر ملوك تاهرت الرستميين جنوبا وأسس مدينة سدراته قرب ورقلة • وبعدئذ ، أي في القرن الحادي عشر توغل الخوارج المضطهدون نحو الجنوب في شبكة المزاب ، حيث احتفروا الآبار والقنوات الباطنية وأنشأوا المدن ، مدن هي أيضا في موقع ممتاز في نهاية طرق القوافل القادمة من بلاد الذهب والرقيق الاسود • وحتى عصر قريب منّا أخيراً



شكل ٢٥ ـ التجارة الارمنية

نجد التجار المزابيين يتسللون نحو منطقــة الساحل[١] حيث نعثر عليهم كباعة أقمشة ، أو نجدهم في كل مدن افريقيا الشمالية ، يعملون في البقاليات الصغيرة • وهكذا عملوا على استدرار الذهب نحو بلاد المزاب حيث شكلوا ثروات صغيرة دفنوها بالارض عندما أصبحت هذه العملة نادرة • وهكذا كان المزاب أيضا من الاقطار « الملتهمة » للذهب •

(١) البلاد المتمدة من السنغال حتى التشاد جنوب الصحراء الكبرى



شكل ٣٦ ـ تجارة الجماعات الخوارجية

المبادلات

كانت تيارات المبادلات تتوزع على شكل واجهات تجارية ، وعلى هيئة حزم من طرق تنتهي عند مراكز عمرانية كبيرة في بلاد الاسلام . فالواجهة الشمالية الشرقية هي جبهة الطرق القارية عبر الواحات ، التي تقود من بلاد مابين

النهرين الى ايران والى بلاد آسيا الوسطى ، ومن ثم الى بلاد الترك والصين الشمالية أو الى شمال غربي الهند • أما الواجهة الجنوبية الشرقية فهي جبهة الطرق البحرية للمحيط الهندي التي تنطلق من بلاد ما بين النهرين والخليج العربي من ناحية ، ومن مصر والبحر الاحمر من ناحية أخرى ، نحو ساحل الهند الغربي ومالابار ونحو جزيرة سرنديب[1] وأندونيسيا والهند الصينية وجنوب الصين ، أو نحو بلاد الزنج، أي ساحل افريقيا الشرقية،ومدغسكر[2] • وكانت الجبهة الجنوبية الغربية هي جبهة طرق قوافل الصحراء الكبرى وأفريقيا الشمالية الغربية هي جبهة الطرق البحرية والنهرية والقارية التي تؤدي سواء من بلاد مابين النهرين وأرمينية الى بلاد بحر قزوين والانهار الروسية وما وراءها نحو بلاد البلطيق وأوروبا الوسطى ، أو من الموانىء الاسلامية على البحر الابيض المتوسط نحو الموانىء الإيطالية وموانىء اللانغدوك ، أو من اسبانيا الاسلامية نحو الممالك الايبرية النصرانية في الشمال ، والى ما وراءها بعد اجتياز معابر جبال البيرينيه نحو الغرب الفرنجي ، أو أخيراً من اسبانيا الاسلامية نحو الجزر البريطانية عن طريق بحر الظلمات •

الواجهة الشمالية الشرقية[3] :

ان المسلك الاساسي هنا هو «طريق الصين» القديم ، ولكنه أصبح من الآن فصاعداً طريقاً في أوج نشاطه تزدحم فوقه مواكب قوافل الخيول ولاسيما الجمال، وهي الجمال ذات السنامين أو جمال البكتريان (بلاد بلخ) ، وكانت هذه القوافل تنطلق من بلاد ما بين النهرين وتصعد هضبة ايران كي تدرك القسم الشمالي الشرقي من الهضبة المذكورة أي بلاد خراسان ، ومنها كانت تعبر نهر جيحون أو آموداريا أو Oxus وتصل لبلاد ماوراء النهر ،و بلاد الشاش ، وفرغانة • وبعدها تتفتح أمامها ثلاث طرق : أولا : نحو الشمال الشرقي حيث

(١) أو سيلان وهي سيريلانكا حاليا •

(٢) أو مدغشقر او مالاغاسي حاليا •

(٣) انظر خارطة ٣ •

تخترق سهوب البداة الاتراك ، ونحو الشرق محاذية للشط الجنوبي لبحيرة بلخاش ، ثم تصعد نهر ايللي ، أو تمر من كاشغر ومن حوض نهر تاريم ، لتصل الى عقفة النهر الاصفر ، ثم تجتاز نهر الاردوس ثم السور العظيم لتصل أخيراً الى عاصمة الصين الشمالية وهي خومدان « هسينغان » ، أو تتفرع أخيرا نحو الجنوب الشرقي مخترقة ممرات هندكوش التي يذكرنا اسمها بمجازر العبيدالهنود الذين يساقون نحو العالم الاسلامي والذين كانوا يتساقطون صرعى البرد والارهاق عند اجتيازهم هذه الممرات ، وكانت القوافل تذهب من باميان الى كابل ومنها الى وادي الهندوس الخاضع للسيطرة الاسلامية (وهي منطقة السند) ولما وراء ذلك أي الى الهند الشمالية (أي الهند) .

وهكذا تتجلى أهمية ثلاثة مراكز هي : بلاد خراسان (حول مرو ، هراة ، بلخ ، ولاسيما نيسابور التي كانت تنافس بغداد في القرن الحادي عشر) وهي الواقعة عند مفترق طريق بغداد الكبير باتجاه الهند وباتجاه خوارزم والصين. وكانت بلاد خوارزم المركز الهام الثاني ، وهي منطقة دلتا نهر جيحون على بحر آرال ، وبفضل مدنها الكبرى ، مثل أورجنج ، التي كانت مركزاً تجارياً من الدرجة الاولى ، وعقدة طرق التجارة مع الاتراك والهند والصين وكذلك عند مفترق رئيسي للطرق المؤدية الى بحر الخزر وبلاد البلغار ، أي الى وادي نهر الفولغا ، وأوربا الشرقية . وأخيراً هناك ثالث مركز هام هو المؤلف من واحات ماوراء النهر ، التي كانت تهيمن على الطرق الذاهبة الى بلاد الاتراك والصين.

وقد تجسدت أهمية المنطقة التي حددناها في أسرة بني سامان التي حكمت بين ٨٧٥ و ٩٩٩ ، والتي حكمت في أوج قوتها بلاد خراسان وخوارزم وماوراء النهر ، أي من حواف بلاد الترك شرقاً حتى سواحل بحر قزوين غرباً . وكانت عاصمتا السامانيين ، أي بخارى وسمرقند ، تسيطران باشرافهما على طريق آسيا الوسطى ، فقد عثر على مقادير كبيرة من النقود السامانية على طول الانهار الروسية وكذلك في بلدان بحر البلطيق وبحر الشمال . وكانت هذه النقود دارجة

في القرن العاشر في سوق ماينس Mayence [1] ويجب أن نلفت النظر في سياق كلامنا الى تمركز المال في مناطق الحدود من العالم الاسلامي ، وهي مناطق استيراد كبيرة ، مثل منطقة خوارزم وخراسان وما وراء النهر ، وكانت البضائع المستوردة تصل حسب المحاور الكبرى الثلاثة للمواصلات في هذه الواجهة الشمالية الشرقية •

وكانت المنتجات المستوردة من بلاد الاتراك ومن بلاد السلاف أيضا ، تصل الى شمال بحر قزوين مروراً ببلغار ثم تنتقل الى غرب وجنوب بحر آرال، حول اورجنج ، فكانت تستورد الفراء ، وهي فراء السهب ولاسيما في فراء الغابة السيبيرية والعبيد ، اذ سبق ورأينا شدة طلب الخلافة العباسية على «المماليك» والمعادن وأخيراً الحديد والاسلحة ، والتي كان الاتراك يعتبرون خبراء في صناعتها ، والنحاس والاواني النحاسية واللبّاد ، وهي صناعة اختص بها البدو • وإجمالاً تبدو تجارة العالم الاسلامي مع الصين ، عن طريق آسيا الوسطى، على الحريرية ، والسلع المتنوعة الرخيصة ، ولاسيما قطع النقود •

وكان الحرير يستورد من الصين ومن خوتان ، غير أن نمو تربية دود القز في العالم الاسلامي أدّى بسرعة كبيرة الى الاستغناء عن هذا المصدر البعيد ، ومع هذا ظلت خيوط الحرير الصيني المصنوع ، والاقمشة الحريرية ، مرغوبة في الاستيراد دائماً بصفتها من خواص الترف الكبير ، لان الصينيين كانوا بالواقع رغم الاتقان الفني والميزة السامية لانتاجهم ، كانوا يرغبون في شراء الاقمشة الفخمة من العالم الاسلامي ، ولهذا الواقع تشير كتابات المصادر الصينية فضلا عن تأثير الرسوم الايرانية الاسلامية التي تظهر على بعض النماذج المحفوظة من الاقمشة الحريرية الصينية • غير أن الحرير لم يكن على العموم مادة المبادلات

(١) لقد رأى الرحالة العربي الطرطوشي ، واصله من مدينة طرطوشة في أسبانيا حوالي العام ٩٧٣ في سوق ماينس دراهم مضروبة في سمرقند في عام ٩١٣ ـ ٩١٥ • انظر القزويني •« عجائب المخلوقات » نشر وستنفلد • غوتنجن ١٨٤٨ • ص ٤٠٩ •

الوحيدة ، فقد كانت الصين تصدر البورسلان والورق المذهب وحجر اليشب[1]، واجمالاً تبدو تجارة العالم الاسلامي مع الصين ، عن طريق آسيا الوسطى ، على شكل استيراد وتصدير متعادلين من حيث القيمة ، وحسب ميزان تجاري متكافىء .

وأخيراً كان استيراد العالم الاسلامي من شمال الهند ، أي من وادي الهندوس الاعلى ، ومن أودية هيملايا والتيبت ، كان يتألف من الرقيق الهنود والتيبيتيين ، ومن أقمشة كشمير ، وصوف الماعز ، والعطور وعلى الاخص مسك التيبت ، الذي هو عبارة عن افراز الوعل المسكي . وكان من جراء التجارة مع الهند ، شأنها مع بلاد الاتراك ، حصول نزيف من المال الاسلامي ، على شكل ذهب بسبب التكنيز الهندي ، أو من الفضة لاننا هنا في مجال العملة الوحيدة الفضية، ومنها كلمة روبية السنسكريتية ومعناها « الفضة » .

الواجهة الجنوبية الشرقية :

لقد كان الافق التجاري هنا هو رقعة المحيط الهندي ، وهو نطاق ملاحة غربية شرقية ، وشرقية غربية يتناوب بصورة اجبارية حسب النسق المنتظم للرياح الموسمية ، من كلمة موسم أي فصل ، ومنها كلمة مونساءو البرتغالية . أما المنطقة الواقعة الى الجنوب من خط الاستواء ، على خلاف ذلك ، فتقع في مجال رياح الاليزة (التجارية) التي تهب من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي . وهكذا كان الحد الفاصل بين مجال الرياح الموسمية وبين مجال الاليزة هو المجال الواقع بين النطاق الذي كانت تسلكه الاساطيل التجارية في الشمال ، وبين النطاق المجهول ، الخالي ، وهو نطاق الرهو الاستوائي ، أي الدولدروم doldrum

والمحيط الهندي هو نطاق تقليدي لمواصلات كانت تنشط عليه منذ القديم

(١) حجر شديد القساوة مع اون ضارب للخضرة او لون الزيتون ويتالف من السيليكات الكلسية والالاومين الطبيعي ويستعمل في الصين وجزر آسيا الجنوبية الشرقية لصنع اشياء فنية .

خطوط ملاحة عربية وفارسية ، وكذلك كان يمخر عبابه الملاحون البطالسة منذ القرن الاول من التاريخ الميلادي ، وكذلك المراكب الماليزية ذات الميزان المسماة براهو Prahu ، وأخيراً هناك اتفاق بين العلماء على أن الهجرات الماليزية الى مدغسكر انما حدثت في تاريخ قديم نسبياً • وابتداء من القرن الثامن حتى الحادي عشر أصبح المحيط الهندي تحت هيمنة البحارة المسلمين ، إذ جرى حدث جوهري: هو انتقال الشراع الثلاثي من مجال المحيط الهندي الى مجال البحر الابيض المتوسط ، حيث اتخذ اسم « الشراع اللاتيني » • وتسمح رقعة المحيط الهندي بقيام مبادلات أساسية ، ولا سيما انتقال مزروعات الهند نحو الخليج العربي وبلاد الشام من ناحية ونحو ساحل افريقيا الشرقي ، والى جنوب جزيرة العرب والبحر الاحمر ومصر من ناحية اخرى : فقد أشير الى استخدام التنبل[1] مثلا في اليمن منذ القرن التاسع • وهكذا تحقق عن طريق الخليج العربي وعن طريق البحر الاحمر التحام مجال المحيط الهندي مع مجال البحر الابيض المتوسط وتقنياتهما ومزروعاتهما وعاداتهما •

غير أن السيطرة الاسلامية على المحيط الهندي كانت تتضمن مع ذلك بعض التحفظات • فقد عملت الخلافة العباسية بين أواسط القرن الثامن وأواسط القرن العاشر بتأثير مدنها الضخمة مثل البصرة وبغداد والحاجات التي كانت تستدعيها، أقول عملت على تفوق الخليج العربي • وفي أواخر القرن العاشر أوجدت الخلافة الفاطمية هيمنة منافسة ، مما أدّى لنشوء تنافس بين الخليج العربي وبين البحر الاحمر • وكان ميناء القلزم clysma ، ولاسيما ميناء عيذاب ، يحققان الارتباط بين هذا البحر من ناحية وبين النيل والبحر الابيض المتوسط من ناحية أخرى•

ومهما كان عليه الامر فان الفترة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر كانت حقبة توسع التجارة الاسلامية على كل شواطىء المحيط الهندي وعلى

---

(١) او التنبول bétel ويستخدم كعلكة تثير باطن الفم ومؤخرة الحنجرة وتقلل متانة الاسنان• وتستخدم نواة نبات التنبل في الصباغة فتعطي لونا ضاربا للحمرة •

طرق الصين ، توسع يرتكز على جاليات مقيمة في كل مكان تقريبا ، وعلى سفن إسلامية مصنوعة من خشب التك ، وعلى عملة كان أهمها الدنانير التي كانت تؤلف معالم ومؤشرات هذه الطرق التجارية • أما على الساحل الشرقي من افريقيا ، فقد ولدت مدن من العدم ، مثل ممباسة وباراوه حيث عثر فيها على كتابات كوفية تعود للقرن الثامن • ويوجد في جزيرة زنجبار مسجد يعود للقرن الحادي عشر• والى ماوراء هذه المراكز التجارية كانت تمتد خطوط الاسلمة islamisation باتجاه الداخل الافريقي ، أي كانت تقع على طول محطات النقل البشري التي كان الزنوج ينقلون منها المنتجات الى مستودعات ومكاتب الساحل التجارية • وحصل توسع أيضا على ساحل مالابار حيث جرى بناء مساجد وحيث كان للجاليات الاسلامية قضاتها الخاصون بها ، وكان يسمى الواحد منهم هونرمان honarman وكذلك في سرنديب ، أو سيلان ، عند المؤلفين العرب ، وفي جزر الصوند حيث لم ينتشر الاسلام فعلا الا في وقت متأخر، كي يعتنق الدين الحنيف أكثر من مائة مليون في أيامنا ، ومع هذا هناك كتابة عربية في جزيرة جاوة تعود لعام ١٠٨٢ م وكذلك امتد الاسلام الى الهند الصينية حيث عثر على كتابات عربية تعود للقرن العاشر وحتى القرن الثاني عشر ، والى الصين أخيرا في فترة أوج حكم أسرة تانغ وأوائل أباطرة أسرة سونغ ، التي حكمت بين القرن السابع والقرن الحادي عشر ، وحيث عرف المسلمون ميناء الجنوب الكبير وهو ميناء كانتون، أو خانفو عند الجغرافيين العرب • هذا ويمكن تفصيل آلية تجارة المحيط الهندي على الصورة التالية : يحمل التجار عند خروجهم من مصر سلعا متنوعة كالعقيق وأمشاط العظم ، وقضبان الحديد وحبوباً كانوا يقايضونها في جزر المحيط الهندي أو على سواحله مقابل منتجات هذه الاقطار كالبخور والعاج ، وقرون الكركدن ، أي الخرتيت ، وظهور السلاحف ، والكافور وعود ندّ سقطرة ، والمصنوعات الغربية الخ ، التي تباع في كل أسواق البحر الابيض المتوسط الكبرى بعد وصولها الى مصر •

بيد أن التجار كانوا يزودون العالم الاسلامي مباشره بعصـدير ماليزيا ، وبأخشاب وأسلحة ونيلة الهند وبُقّام الهند وجزر الهند الشرقية ، وبالحجارة الكريمة وباللآلىء من سيلان ومن الخليج العربي والبحر الاحمر،وبالعنبر الرمادي وعظم ظهور السلاحف من سواحل البحار الجنوبية ، والتي كانت تؤمن المادة الخام لصناعة صغيرة تنتج أشياء تباع في سوق خاص بالفسطاط • هذا كما كان المحيط الهندي ، أخيراً ، المصدّر الرئيسي ، ان لم نقل الوحيد ، للتوابل والعطور والطيوب والنباتات الطبيـة ، وقد تعاظمت تجارة العقاقير بـين القرن الثامن والحادي عشر لعلاقتها بتقدم الطب العربي اليهودي • وقد كانت الاسكندرية الميناء الكبير لاعادة توزيع التوابل والعقاقير في كل حوض البحر الابيض المتوسط وباتجاه قرطبة ، ونحو الغـرب النصراني ، وكذلك نحـو بيزنطة حيث حاول الامبراطور ليون الارمني ، الذي حكم بين ٨١٣ و ٨٢٠ ، في وقت ما أن يوقف هذه التجارة عارضاً بنفسه نباتات عطرية وصفها بأنها « كالتي تأتينا من بلاد الهنـد » •

الواجهة الجنوبية الغربية :

وكان هنا أيضا استمرار ونهضة : فالعالم الاسلامي استأنف ، بعد أن توسع بمقدار عظيم ، استأنف تياراً قديماً من اتصالات ، وهو التيار الذي دفع بالبدو الجمّالة البربر في اتجاه الجنوب عبر الصحراء الكبرى وفي اتجاه نطاق الساحل النيجيري ابتداء من القرن الرابع حتى القرن الثامن • ويعتبر هذا الواقع العظيم أحد أكبر أحداث مطلع العصر الوسيط ، وهو مع الاسف غير معروف جيداً في تفاصيله التاريخية وبتقدم رقعته الجغرافية ، وهذا يعود لانعدام المراجع المعاصرة التي تعالج هذه الاحداث •

وعلى كل حال فمنذ نهاية القرن الثامن ــ لأن تأسيس سجلماسة يعود لعام ٧٥٧ ــ عمدت التجارة الاسلامية الى إلحاق هذه الشبكة الجديدة من خطوط القوافل بالشبكات القديمة ، أي بشبكات الشرق والبحر الابيض المتوسط ،

وبذلك فتحت في وجه دورات العلاقات العامة كل أفـق العالم السوداني ، أو بلاد السـودان ، وكانت تتألف التجـارة الجديدة ، كما سبق وقلنا ، مـن الذهـب ومن العبيـد ، وكذلك من الصـمغ الضروري لتلميع الأقمشـة الحـريرية الاسبانية ، ومـن العنبر الرمادي الذي يُجمـع من السـاحل الاطلنطي . وكانت الطرق المسلوكة، وهي طرق تجارية ، كانت أيضاً طرق مؤثرات تمر منها ، من الشمال نحو الجنوب ، أي حضارات قديمة شرقية،من البحر الابيض باتجاه الاقوام السوداء ، وكذلك مزروعات جديدة كالقمح والقطن ، وأنواع جديدة من تربية الماشـية ، كالحصان والجمل ، وتقنيات جديدة وأشـكال اجتماعية جديدة كالمدينة والدولة .

وتتوزع هذه الطرق على ثلاث حِزَم كبيرة من قوافل ذات معالم معروفة بآبار وبواحات نخيل ابتداء من جزيرة المغرب حتى ساحل السنغال والنيجر . وأول حزمة من الغرب هي الحزمة التي تنطلق من جنوب المغرب أو من السوس الاقصى ومن وراء ذلك ، من فاس ، وكان البابان الكبيران للصحراء هما مدينة نول لمطة عند مصب واد نون بين وادي السوس ووادي الدرعة ، ولا سـيما سجلماسة ، مدينة القوافل الكبرى الجديدة والتي كانت أهميتها توازن أهمية مدن القوافل القديمة مثل تدمر والبتراء ومكة . وكانت سجلماسة الواقعة في وسط واحة نخيل طويلة هي واحة تافيلالت الممتدة على وادي زير ، كانت هدف نزاعات بين الرستميين والفاطميين ، وشهدت أوج ازدهارها في القرن العاشر ، وهو العصر الذي كانت تقيم فيه جالية من سجلماسة في أوداغشت ، وهي المحطة الكبـرى لبربر الجنوب ، وكانت الرسـوم التي تُجبى من القوافل العائدة من السودان تحقق حينـذاك للملك الفاطمي دخلاً مقـداره ٤٠٠٠٠٠ دينار في السنة . وكانت تنطلق من هذه الموانىء الصحراوية في الشمال ، والتي تنتهي عندها خطوط القوافل ، ثلاثة دروب : الاول كان يواكب ساحل الاطلنطي حتى السنغال مروراً بمدن تكرور وسيللا وغاديار والتي كانت تصلها القوافل في أعقاب

شهرين من السير • أما الطريقان الآخران فينفصلان بعد انطلاقهما من سجلماسة الاول نحو ألتوير والآخر نحو تغازة ، ثم يلتقيان عند نهاية خط القوافل الكبير الجنوبي أي عند أوداغست ، التي كانت عبارة عن مدينة مزدوجة تتعلق بمملكة غانا ، اذ كانت تنقسم الى مدينة اسلامية يقطنها التجار والوكلاء ، والى مدينة مأهولة بزنوج من قوم السونينكة ، وكانت عاصمة امبراطورية ذات ثروة أسطورية ، وتضم العديد من المحاربين • وكان هذان الطريقان أقل طولاً ولكنهما أكثر مشقة اذ يتطلبان شهراً ونصفاً من السير(١) •

وتتألف حزمة الطرق الثانية من الدروب التي تصل المغرب الاوسط أي تاهرت والجنوب الجزائري بالصحراء الكبرى • فكانت هذه الدروب تنطلق من مدن الخوارج اللاجئين مثل ورقلة وسدراته والمزاب كي تصل الى تغازة واوداغست ، أو الى تادمكّة ، واسمها اليوم السوق ، في مرتفعات ادراردس ايفوغاس ، ولما ورائها حتى كاوكاو (غاءو Gao) في بلاد السونغائي(٢) ، وهي بدورها مدينة مزدوجة حسب نمط اوداغست •

أما الحزمة الثالثة فهي حزمة الدروب الشرقية التي تتصل بإفريقية والقيروان والجنوب التونسي ، وكانت مراكز الانطلاق هنا هي التالية : منطقة الجريد أي مدينة توزر ونفطة وقابس وهي اقليم ينتسب الى عالم البحر الابيض المتوسط والصحراء الكبرى في آن واحد ، ومن اقليمي طرابلس وبرقة ، وهما موقعان على طريق مصر • وكانت الدروب المنطلقة من هذه المدن تقود اما الى النيجر مروراً بغدامس وتادمكّه أو الى كانم ، على ضفة بحيرة التشاد ، مروراً بفزان وبكوار Kawar •

تلك هي الطرق التي كانت تسوق ذهب السودان باتجاه المغرب ، ومن حيث

---

(١) Ces itinéraires ont été étudiés en détail dans une publication récente par D. et S. ROBERT et J. DEVISSE, Tegdaoust I. Recherches sur Aoudaghost, to I. Paris, (1970) .

(٢) في جمهورية النيجر الحالية على النهر المذكور •

كان يعاد توزيعه في سائر أرجاء العالم الاسلامي • وكانت بيوتات التجارة المغربية تقيم في مدن نهاية الطرق الجنوبية شبكة كاملة مـن الوكلاء والعمـلاء الذين يتاجرون بالذهب ، عن طريق المقايضة الخرساء ، مع قبائل الزنوج التي تحترف استخراج الذهب • وكانت تجارة جسيمة حتى أن ابن حوقل رأى بأم عينه ، في مدينة اوداغست ، في القرن العاشر ، ورقة تجارية قيمتها ٤٠٠٠٠ دينار ، وهناك مصادرأخرى تشير الى تجار غاية فيالثراء من الذين يتعاطون التجارة معالسودان •

وكانت أهم تجارة هي تجارة الذهب على شكل ضفائر ، أو التبر • وكذلك تتم مبادلة أكثر الاشياء تنوعاً بواسطة الذهب مثل بعض منتجات المغرب ومصر من زراعية وصناعية ، وكذلك الخردوات ، كالسلع الصغيرة المصنوعة خصيصا للاتجار بها مع الزنوج ، تماما كما حدث مؤخرا ، في الفترة الواقعة بين القـرن السابع عشر والثامـن عشر والتاسع عشر بالنسـبة للمراكز التجارية الاوروبية المتناثرة على ساحل افريقيا الغربية • فقد كان يقوم في سبتة سوق خاص لصنع أطواق المرجان والعقيق ، وأنواع الخـرز البللوري ، وأطواق الودع والحلي الاصطناعية الرخيصة الاخرى • ولكن الى جانب ذلك كانت تشحن باتجاهالجنوب أحمـال القمح والتمور ، وقطـع الاقمشة الصغيرة اللازمة لصـنع الفُوَط ، ومصنوعات من النحاس تماثل صادرات السلع النحاسية أو المصنوعة من النحاس الاصفر التي كان يتاجر بها تجار مدينة آنفرس البلجيكية في افريقيا ، والجلود من زويلة ومن غدامس ومن تافيلالت ومن اغمات ومن مراكش ، والاخشـاب الراتنجية والقطران اللازم لجعل القِرَب كتيمة حافظة للماء ولعلاج جرب الابل ، وعفص الطرفاء وهو مادة دباغية تنتج في جنوب المغرب الاقصى ، وأخيرا الملح الصخري الذي كاد يصدر من تغازة حيث تقع مملحة تاودني ، والذي كانتتفتقر اليه بلاد السودان وتلحّ في طلبه •

ولسائر هذه المواد قيمة زهيدة بحد ذاتها ولكنها تكتسب أثمانها المرتفعة نظراً لطول ولصعوبة نقلها للبلاد التي هي بحاجة اليها • ويقول أحد الجغرافيين

في معرض كلامه عن التجار البربر : « انهم كانوا يحملون بضائع لا قيمة لها ويعودون بأحمال حقيقية من الذهب على جمالهم . » وهكذا كانت الواجهة الغربية ذات أهمية عظيمة للاقتصاد النقدي في العالم الاسلامي : فعن طريقها كانت تصل موجة الذهب التي كانت تسمح بضرب مقادير ضخمة من الدنانير وبالتالي تداولها ، وكانت تقوم مؤسسات ضرب العملة أو دور السكّة ، ومنها الكلمة الايطالية زكا Zecca ، في سجلماسة وفي ورقلة ، أي عند مخارج طرق الذهب السوداني .

الواجهة الشمالية الغربية :

وهنا يجب أن يميز ثلاثة آفاق تجارية هي : بيزنطة ، ومنطقة الانهار الروسية والغرب النصراني. وكان الافق الاول هو بيزنطة ، وكان الميزان التجاري للعالم الاسلامي من هذه الناحية ايجابيا ، مع هذا الاختلاف وهو أن الذهب الوارد لم يكن ذهباً نقياً ، بل ذهباً مسكوكاً ، على شكل نوميزمه بيزنطية . وتعود أهمية التجارة في هذا المجال الى قيمة موضع العالم الاسلامي الذي كان يطوّق الامبراطورية البيزنطية من الشرق ومن الجنوب ، والذي كان يلعب دور وسيط اجباري بالنسبة للمنتجات المصنّعة وللمواد الاولية الثمينة التي لاغنى عنها في صناعات الترف البيزنطية ولكل السلع الواردة من آسيا ومن افريقيا .

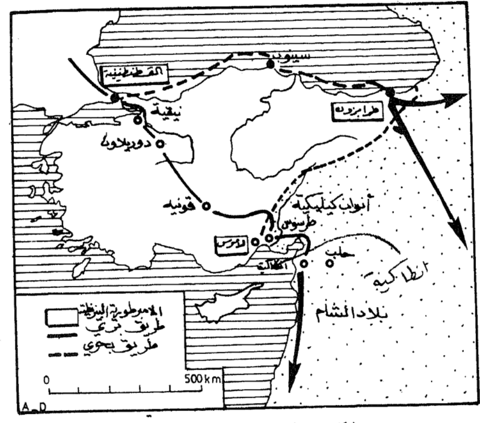
وتبدو العلاقات بين العالم الاسلامي وبيزنطة من نمط العلاقات نفسها التي كانت قائمة مع الصين: أي علاقات بين مجالين متطورين ونظامين يتمتعان بمدنيّة عالية[1]. وكانت التجارة التي تشدّ الدولتين الى بعضهما منتظمة بمعاهدات وخاضعة للاشراف والتوجيه، أي كانت من نظام ماقبل المركنتلية Prémercantilisme

(1) Cf. CONSTANTIN VII Porphyrogénète (912 - 959), De Ceremoniis aulae byzantinae libri II. Ed. et trad. A. VOGT. Paris, 1967; De administrando imperio. Ed. G. MORAVCSIK. Trad. angl R. J. H. JENKINS. Budapest, 1949; Le Livre du Préfet. Ed. NICOLE. Genève, 1893. Trad. fr. Genève, 1894 .

وكانت تمارسها في القسطنطينية جاليات من التجار السوريين الذين كان لهم فيها مسجدهم ، في حي مجاور لكنيسة القديس ايرينه خارج السور ، وهو تنظيم يذكرنا بنظام حـي الصقالبة في سان ممّاس ، الواقع هـو أيضاً في الارباض الخارجية • ولكـن كانت هناك جاليات من تجار عراقيين وفرس وأرمـن (في طرابزون خاصة) وبلغار وطليان يلعبون جميعاً دور وسطاء في هذه التجارة •

وكانت تتصف هذه التجارة المستمرة بمواسم كبيرة متميزة ، مثل معارض (بازارات) طرابزون ، مثلما كانت تحوي مراكز رئيسية للالتقاء • وفيما عـدا القسطنطينية يجدر بنا أن نذكر منها لاموس بشكل خاص ، الواقعة على نهـر يحمل الاسم نفسه ، والذي كان يرمز على طول ساحل الاناضول ، للحدود بين التخم الاسلامي عند طرسوس وبـين ولاية كيليكية البيزنطية • وكانت تقـام معارض لاموس بمناسبة تبادل الاسرى بين المسلمين والبيزنطيين ، أي الروم • ومن الجانب البيزنطي يجب أن نذكر حضور المتسوّقين اليونان المختصين ،الذين تقوم مراكزهم في القلسطنطينية أو في طرابزون ولا سيما مستوردو الحرير الخام metaxopratoi ومسـتوردو الاقمشة الحـريرية Pradiopratai ومستوردو العطور myrepsoi

وكانت هذه التجارة منتظمة بحيث تكفل للتجار المسلمين تصـريف كامل بضائعهم ، مهما كانت كميتها ونوعيتها ، فإذا تخلّت نقابات التجار البيزنطيين المشترين لأجل عن جزء من البضائع المعروضة من قبل التجار المسلمين ، فإن على حاكم المدينة أن ينقلها الى السوق وأن يبحث لها عن تسويق مناسب • وهكذا كانت تبدو التجارة البيزنطية تجارة مدينة (مديونة) في الاسواق البيزنطية الكبرى اذ كانت تجارة وسطاء عليها أن تحافظ على ميزان مدفوعاتها بين تجارة استيرادية أساساً من الجانب الاسلامي وبين تجارة تصديرية أساساً من الجانب البندقي أو



شكل ٢٧ ـ طرق ومراكز التجارة البيزنطية

الآمالفي(١) ، وكانت القسطنطينية تلعب دور تاجر عبور transitaire بين الشرق والغرب ودور موزع وأخيراً دور صانع مصدِّر . وكانت تمارس هذا الدور الاخير على شكل منتجات مصنوعة بمواد أولية مستوردة من العالم الاسلامي .

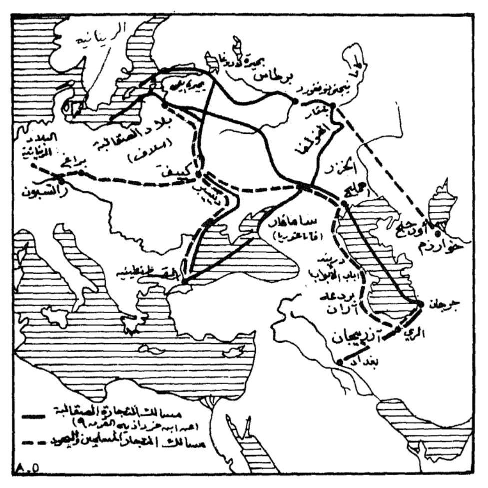
وكانت تتألف السلع التجارية التي ترغب فيها التجارة البيزنطية ، والقادمة من العالم الاسلامي ، تتألف من الحرير والاقمشة الحريرية والحجارة الكريمة، واللؤلؤ ، والعاج ، والتوابل ، والعطور ، والطيوب ، والآبنوس ، والصدف،

(١) نسبة لمدينة Amalfi وهي ميناء على البحر الابيض المتوسط على مسافة ٥٠ كم جنوب شرق نابولي. وقد كانت لمدة طويلة مدينة مستقلة في العصر الوسيط ومنافسة للبندقية .

ومن ناحية أخرى بعض الاقمشة الانيقة كثيراً ، والتي كان سر صناعتها محفوظاً بحرص شـديد مثل البروكار ذي البـريق المتموج ، أي أقمشـة أبو قلمون hypocalamon • وبالاضافة الى ذلك نذكر الكتان المستورد من تراقيا ومـن مقدونيا بواسطة تجار الكتان othoniopratai ، والمواشي من أرمينية البيزنطية ، وهي بلاد مشهورة بتربية الماشية ، والمختصة بالابقار وبأغنام المور ، ذات الاصواف البنّية اللون ، والتي كانت تزود القسطنطينية بالصوف واللحم • وفي الوقت نفسه كانت تصدر أعداداً كبيرة منها الى بلاد الشام الشمالية الاسلامية • واجمالا كانت تجارة هذه المنطقة تؤدي لنزيف ضخم من الدنانير البيزنطية ، أو النومزماته، لفائدة العالم الاسلامي ، اذن كان هناك عجز في الميزان التجاري البيزنطي والذي كان يزيده استفحالاً المبالغ التي كان يدفعها أباطرة بيزنطة جزية للخلفاء • غير أن هذه الخسائر النقدية كانت تتعوض بالمشتريات التي كان يقوم بها الطليان والصقالبة من الاسواق البيزنطية •

أما الافق الثاني من الواجهة الشمالية الغربية فكان منطقة الانهار الروسية، التي كانت تطل عليها الاقطار الايرانية ابتداء من بحر آرال حتى بحر قزوين ، ابتداءً من خوارزم ، مع مدينتها أورجنج ، الى أرّان ، أي بلاد ماوراء القوقاز ، وعلى الاخص مدينة بردعة ودربند (باب الابواب) مثلما تضم بلاد السهوب مع خلفيّتها المؤلفة من الغابات الشمالية الكبرى التي كانت تحوي حاشيتها بضع فتحات عريضة على مناطق مكشوفة • تلك هي أنهار طويلة بطيئـة الجريان ، تشكل طرقاً ملاحية ممتازة ، قادمة من قلب النطاق الغابي لتصب في البحر الاسود وبحر قزوين وأهمها الفولغا ، الدون ، الدنيبر ، في حين تتجه أنهار أخرى نحو الشمال مثل اللوفات والبحيرات التي تسمح بالوصول الى بحر البلطيق • وتكون عمليات الانتقال من حوض نهري لآخر ميسورة بواسطة القوافل Volok أو الحمالين وهكذا كان بحر الخزر والبحر الاسود وبحر البلطيق عبارة عن معالم دروب متفاغمة وتظهرها خارطة الادريسي متواصلة بواسطة طرق مائية وكانت الاساطيل النهرية

ناشطة على هذه الانهار ، سواء بواسطة زوارق مصنوعة من جذع شجرة واحدة أي monoxyle أو بواسطة مراكب كبيرة ، مثل سفن التجار الاسكندنافيين الكبيرة والتي ورد وصفها في المصادر العربية . وهكذا كان يتم الترابط بين التجارة الاسكنديناقية السلافية ، وبين تجارة العالم الاسلامي التي كانت من مهمة الاقوام



شكل ٢٨ ـ تجارة منطقة الانهار الروسية

التجارية القديمة من ايرانيين أو متأرينين في بلاد خوارزم أو (Chrosmie) في جرجان Hyrcanté وأذربيجان Atropatène

وقد وصف ابن خرداذبة في أواسط القرن التاسع طريق التجار الروس :

« وكان الروس الذين ينتسبون الى أقوام الصقالبة ينطلقون من أكثر مناطق صقلبة Esclavonie بعداً نحو بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) ويبيعون فيه جلود الجندباشتر (كلب الماء) والثعلب الاسود وكذلك السيوف . وكان أمير الروم يتقاضى العشر على بضائعهم ... ومن ثم كانوا يقصدون بطريق عودتهم، عن طريق بحر سماخار، مدينة اليهود فاناغوريا Phanagoria على البحر الاسود، ومن هناك يعودون الى بلاد الصقالبة ، أو أنهم يهبطون نهر تنائيس (الدون) ونهر الصقالبة (الفولغا) ويمرون بمدينة حمليج (اتل) ، عاصمة الخزر حيث يأخذ ملك البلاد منهم العشر . ومن هناك كانوا يبحرون في بحر جرجان (الخزر) ويتجهون نحو ذلك المكان أو الآخر على الساحل الذي على مدى أبصارهم . وكانوا ينقلون بضائعهم على الجمال من جرجان أو من الري[1] حتى بغداد . وهنا يعمل الخصيان الصقالبة كتراجمة في خدمتهم ، ويدّعون أنهم نصارى ويدفعون الجزية على هذا الاساس » .

وهكذا وردتنا شهادة عن وصول التجار الروس الاسكندنافيين حتى بغداد. ولكن هناك العديد من المصادر الموثوقة تماماً التي تبرهن على وجود تجار مسلمين على طول الدروب التي تربط العالم الاسلامي بشبكة الانهار الروسية . فانطلاقاً من خوارزم كان هناك طريق يصلهم عبر السهب ببلغار ، عند التقاء نهر الفولغا بنهر الكاما ، وهي عاصمة بلغاريا الكبرى ، قرب الموقع الذي قامت عليه فيما بعد مدينة قازان الحالية تقريبا . وكانت مدينة بلغار تحوي جالية اسلامية لهامسجدها ودار سكة نقود على طراز وأسماء الخلفاء العباسيين في القرن التاسع . وكان هناك طريق آخر يصل التجار المسلمين ابتداء من جرجان وأذربيجان وأرّان مروراً ببحر قزوين أو بالطريق البري المار ببردعة ودربند (باب الابواب) ، يصلهم بالعاصمة الخزرية حمليج (إتل أو اتيل أو إيثيل itil) الواقعة عند

---

(١) موقع قرب طهران الحالية .

مصب نهر الفولغا[1] ، حيث كان يقوم هنا كذلك حي خاص بالمسلمين الذين يؤلفون ثلث سكان المدينة • ومن اتل كان يتم الاتصال ببلغار صعوداً على نهر الفولغا ، ثم بلاد برطاس عند مقرن نهر الفولغا بنهر أوكا في المنطقة التي قامت فيها مؤخراً مدينة نيجني نوفغورود • ولكن من الممكن أيضاً الاتجاه انطلاقا من نهر الفولغا الادنى نحو نهر الدون ، ومن ثم نحو كيافه (كييف) ومنها كان يؤخذ الطريق الشمالي نحوبحر البلطيك ، أو الطريق الجنوبي ، نحو البحر الاسود وبيزنطة ، أو الطريق الغربي الذي يواكب جبال الكربات مروراً بمدينة براغ ويؤدي ، بعد الوصول الى الدانوب الاعلى ، الى الاقطار الرينانية حيث تشير المصادر لوجود النقود السامانية في القرن العاشر • ولنذكر في معرض حديثنا أن هذه الطريق الاخيرة هي طريق اليهود الرادانيين الذين كانوا ، كما سبق وأشرنا آنفاً ، يأتون من مناطق نهر الرين والدانوب الى براغ والى جبال الكربات والى كييف ، وأخيراً الى بلاد الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في أواخر القرن الثامن •

ولم يقتصر ذكر هذه المسالك فقط على المراجع والموضحة عن طريق علم الجغرافيا نفسه فحسب ، بل تدعم مسارها بِلُقى العملات الاسلامية التي تتراوح تواريخها بين القرن السابع والحادي عشر ، ولاسيما العملات السامانية في القرن العاشر • وكانت العملات المذكورة تقتصر تقريباً على نقود فضية ، أي الدراهم ، التي تشهد على تداول نقدي فضي • أما الذهب فتشهد عليه بضع قطع نقود ، ولكن المراجع تذكره بشكل خاص ، اذ كان يتحول غالباً الى حلي ، لايزال بعضها

(١) Le site d'Itil a souvent été identifié avec l'emplacement de l'actuelle Astrakhan, mais aucun vestige de l'ancienne capitale Khazare n'a jamais été retrouvé. L. N. GUMILEV a proposé récemment d'expliquer cette disparition par l'élévation du niveau de la mer Caspienne à partir du IXe siècle et par les submérsions qui en furent la conséquence. Cf. S. SZYSZMAN, « Découverte de la Khazarie », Annales E.S.C., 1970, p. 820 et la bibliographie donnée .

وهي مدينة استراخان الحالية والتي تطلق عليها بعض المراجع اسم حاج طرخان •

موجوداً في المتاحف الروسية والاسكندنافية ، أو يعاد تصديره الى القسطنطينية مما يسمح بشراء منتجات الصناعة البيزنطية •

وكانت بلاد الصقالبة تصدر للعالم الاسلامي العبيد الذين يحولون الى خصيان ، وكذلك الفراء ، وعسل وشمع الغابات الشمالية ، والسيوف الواردة من الغرب الكارولنجي الى بلاد الصقالبة والتي كان يعاد تصديرها منها نحو الشرق الاسلامي ، وخيول وجلود بلاد بلغار • وكانت تمر كل هذه المنتجات من بلاد خوارزم ، أو من دربند ، باتجاه المدن الكبرى في ايران وفي بلاد ما بين النهرين،وفي المقابل كان العالم الاسلامي يصدر بعض المنتجات ، مثل الاقمشة البراقة ، والاواني المختلفة ، ولا سيما قطع النقود ، كالدراهم الفضية ، والقطع الذهبية بنسبة أقل • هذا ولا يمكن تفسير الازمة في معدن الفضة ، وهو معدن نقدي ، في كل آسيا الوسطى وايران خلال القرن الحادي عشر ، بالاوضاع الجديدة الناجمة عن توسع الاتراك السلاجقة والبولفوتس Polvotses فحسب بل بالنزيف الناجم عن التجارة مع بلاد الانهار الروسية: فهنا كان الميزان التجاري للعالم الاسلامي يتعرض لعجز صارخ •

هذا وقد كان الغرب ، أخيراً ، هو الافق الثالث والاخير على الواجهة الشمالية الغربية • وتقع المبادلات هنا فيما وراء بيزنطة التي كانت شبكة علاقاتها تبدو هنا وكأنها متكيّسة ضمن التيارات الكبرى المنطلقة من العالم الاسلامي • وكانت تقوم التجارة في هذه الحالة مع أقوام أوروبية كان لا يزال مستواها الاقتصادي متخلفاً ، وتنحصر في مطالب صادرة عن المراكز الحضرية في اسبانيا والمغرب • وكانت تتألف من منتجات الغابة : كالفراء ، وأخشاب بناء السفن ، والرقيق والمعادن والاسلحة التي أشرنا قبل قليل الى تصديرها نحو الشرق ، على طرق أوروبا الوسطى والبلطيك والانهار الروسية باتجاه عواصم الشرق ، وعلى الخصوص بغداد ، مثلما كانت تأخذ الاتجاه الغربي ، عن طريق جرمانيا وبحر الشمال وبلاد الغول الكارولنجية حتى مدن الغرب الكبرى ، ولا سيما قرطبة•

وفي مقابل المنتجات الاوروبية كان العالم الاسلامي يقـدم عملاته الذهبية أو الفضية ، وبعض منتجات الترف ، ولاسيما الاقمشة التي كانت لا تخضع لوساطة بيزنطة • وكانت هذه الواجهة أيضا تشكو من عجـز شديد بالنسبة للميـزان التجاري الخارجي الاسلامي •

وكان وسطاء التجارة هذه أولاً اليهود ، وعلى الاخص يهود ناربونة ، الذين تقع جاليتهم ضمن السلسلة التي تمتد من الاقطار الرينانية والموزية[1] الى الممر الروداني • وكان هؤلاء اليهود الناربونيون يقصدون بلاد اسبانيا الاسلامية عبر ممرات جبال البيرينيه أو بحراً حتى طرطوشة ، ثم الى افريقيا الشمالية أو كانوا يقصدون موانىء البحر الابيض المتوسط الشرقي مباشرة •

والى جانبهم كان يلعب تجار المدن البحرية الايطالية دوراً متعاظما ، وعلى الاخص مدن البحر الأدرياتيكي مثـل باري ، ولاسيما البندقية ومدن البحـر التيريني : مثل سالرنو وجايتا Gaête وبشكل خاص آمالفي ، التي كان أبناؤها يثبتون وجودهم منذ نهاية القرن العاشر في مختلف ميادين تجارة البحر الابيض المتوسط الاسلامي مثـل المرية وتونس والاسكندرية وفسطاط ـ القاهرة ، وانطاكية ، والقدس طبعاً حيث كان يرتبط وجودهم بحركة الحج الكبرى الى بيت المقدس ، والتي كانت مصحوبة بمعارض سنوية وصفقات هامة ، وفي ايطاليا كانت معارض بافيا Pavie (شمال ايطاليا) شهيرة ولا يقصدها البنادقة وسائر الطليان الآخرين فحسب بل كان يرتادها أناس من خلف الجبال ، ولا سيما الانكلو سكسون القادمون من ممرات جبال الالب ، والخاضعين للاتاوات على العبيد وعلى السيوف وعلى القصدير •

وفي الاتجاه المعاكس كان المشارقة ، ولا سيما اليهود ، كانوا يقيمون في الموانىء الايطالية وفي منطقة اللانغدوك السفلى • ولقد رأينا أن جوهر الصقلّي،

---

(١) نسبة الى نهر الموز في شمال شرق فرنسا وفي بلجيكا •

فاتح مصر لحساب الخليفة الفاطمي ، كان من أصـــل يهودي من جنوبي ايطاليا واعتنق الاسلام • وقد علمنا ذلك من كتاب تاريخ الحاخام احيمعاس ، من أهل مدينة أوريا الواقعة بين برنديزي وتارنت • وعن طريق هؤلاء المشارقة انتقلت التقنيات التجارية وبعض الطرائق الصناعية ، كنسج الاقمشة الفاخرة ، والصباغة والصناعة الجلدية ، والتي سمحت بنهضة تجارة وانتاج المدن الايطالية ابتداءً من القرن الحادي عشر • وهكذا لعب هؤلاء المشارقة دور معلّمين مدرّبين قبل أن يحل محلهم منافسوهم النصارى •

وهناك آخر طريق يستحق الذكر ، وهو طريق المحيط الاطلنطي فقد كان يتصل بما تسميه النصوص العربية بريطانيّة أو برطانيا والمقصـــود بها انكلترا الانكلوسكسونية والبلاد السلتية • وابتداء من « بريطانيا » كانت تصل السفن الـــى آرموريكا (شبه جزيرة بريتانيا الفرنسية) وخليـــج غاسقونيا والموانىء الاسلامية على المحيط وهي لشبونة والقصر ، حيث كان يتم انزال الرقيق الانكلو سكسوني وحيث كانت تفرغ حمولتها من القصدير والفراء والسيوف •

* * *

وهكذا تدلنا هذه الواجهات التجارية المختلفة على وجود حِزَم من الطرق النافذة الى العالم الاسلامي والتي تستمر حتى المراكز الفعّالة في الاقتصاد وهي المدن الكبرى المرتبطة ببعضها البعض بشبكة كاملة نشيطة من العلاقات •

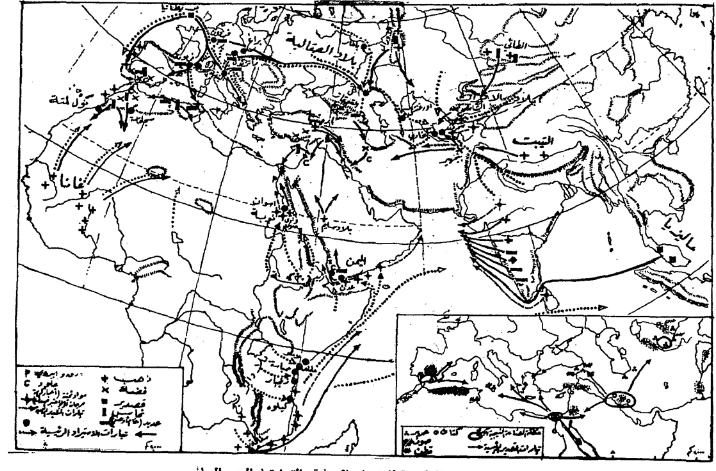
وكان الشريان الاعظم في هذه الاتصالات هو طريق القوافل الكبير ، أي الجذع العظيم الذي يربط آسيا الوسطى ابتداء من سمرقند وبخارى ونيسابور بالريّ وثم ببغداد ، ثم بواسطة نهر عيسى ، بالفرات وعقفته عند بالس ، وبحلب وانطاكية وبموانىء الساحل الشمالي • وكان هناك فرع يتجه نحو الجنوب الشرقي

يؤدي الى دمشق وعسقلان وبيلوز Péluse[1]،ومن ثم الى دلتا النيل فالاسكندرية وفسطاط ــ القاهرة ثم عن طريق برقة الى القيروان ، وبعد هضاب المغرب المرتفعة الى فاس والى «موانىء العبور» على مضيق جبل طارق والى مــدن الاندلس مثل اشبيلية وقرطبة • وترفد هذا الجذع الكبير شبكات أخرى هامة من الطرق الارضية والنهرية أو البحرية : كطريق الانهار الروسية وبحر قزوين والريّ ، وطريق المحيط الهندي والخليج العربي والبصرة وبغداد ، وعن طريق البحر الاحمر الى عيذاب أو القلزم ووادي النيل فالقاهرة ، والطرق العابرة للصحراء الكبرى باتجاه المغرب ، وطــرق الغرب النصراني نحو اســبانيا وموانىء البحر الابيض المتوسط الاسلامي •

هذا ولم تكن كل هذه الطرق بالتأكيد من صنع المسلمين • ففي معظم الحالات عملت فتوحاتهم على تغطية شبكات سابقة أو أجزاء من طرق سبق أن كانت مسلوكة منذ القديم ، ولكنها طمســت وتقطعت أوصالها بفعــل غزوات «البرابرة» كالفندال • وعلى أثر تشكل العالم الاسلامي تلاحمت هذه الطرق وتم تلاحم رقع تجارية ظلت حتى الفتح معزولة عن بعضها بعضاً الى حد ما • وقد أدى نشوء العالم الاسلامي الى ترابط مجال الصحراء الكبرى ــ السودان بالدارات الاقتصادية الكبرى ، والذي ارتبط بتأثير توسع البربر في اتجاه الجنوب ابتداءً من القرن الرابع وكذلك ارتباط مجال الانهار الروسية الآخذ بالانتظام منــذ عهد بعيد بتأثير عناصر سلافية وفينية واسكندنافية • وقد أدت مطالب الاستهلاك في المدن الكبرى في العالم الاسلامي ، من ناحيــة أخرى ، الى يقظــة النشاط الاقتصادي في الغرب الهمجي الاوروبي ، والذي انطلق فيه التداول النقدي ، والتجارة والحركة العمرانية حينذاك بتأثير هذا التحريض الخصيب •

---

(١) وهي قرب موقع الفرما والتي قامت بجوار اطلالها بورسعيد وكانت على الفرع الشرقي من النيل • وكانت مزدهرة في العصر الروماني • وجرت بجوارها معارك عديدة مع الفرس ولاسيما في اعوام ٥٢٥ و ٣٧٤ و ٣٤٢ ق٠م٠ وقد احترقت في عصر الصليبيين •



شكل ٢٩ ـ التيارات الرئيسية للمنتجات الحرفية والتجارة في العصر العباسي

الحدث الإسلامي في تاريخ العالم

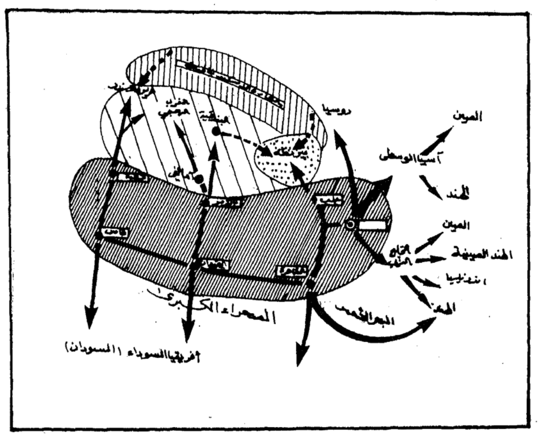
لقد درسنا العالم الاسلامي ، في مناسبات عدة وكأنه مجزءاً الى عدة رقع متمايزة هي : منطقة البرازخ ، ايران وآسيا الوسطى ، والغرب الاسلامي ، وهو تقسيم ضروري لتوضيح العرض ، ولكنه يبدو أيضاً توزيعاً معقولا . فكل واحدة من هذه المناطق الثلاث المدروسة تنطبق على اطار جغرافي بارز دوماً ، يتطور في مجال بلغ درجة مختلفة من التطور الاقتصادي ، وفوق جزء مختلف من تراث الحضارات القديمة . ترى هل يجب علينا عند توصلنا الى نوع من خلاصة ان نبحث عن المخطط العام أو عن الشكل الاجمالي ؟ الحقيقة هي أن العالم الاسلامي بين القرن الثامن والحادي عشر لم يكن نقطة انطلاق لتاريخ طويل فحسب ، هي الحضارة الاسلامية ، بل كان أيضا نقطة الوصول ـ وحتى ذلك الوقت كان يمثل الاوج ـ بالنسبة لتاريخ أكثرطولا بكثير ، هو تاريخ الحضارات العمرانية في الشرق القديم ، وهي أقدم الحضارات المعروفة في تاريخ الانسانية ، والتي اندمجت لفترة ما في امبراطورية الاسكندر المقدوني .

فقد حدثت هنا احتكاكات في الزمان ، مثلما جرت احتكاكات في المكان : فنظراً لموقع العالم الاسلامي المركزي في قلب العالم القديم[1] ، ونظراً لهيمنته على منطقة البرازخ بين مجالين بحريين كبيرين هما المحيط الهندي والبحر الابيض المتوسط ، ونظراً لامتلاكه الطريق القارية الكبيرة ، طريق السهوب والصحارى والواحات التي كانت تصل بين آسيا الوسطى وافريقيا الغربية ، أقول كان العالم الاسلامي حينذاك على علاقة مباشرة

---

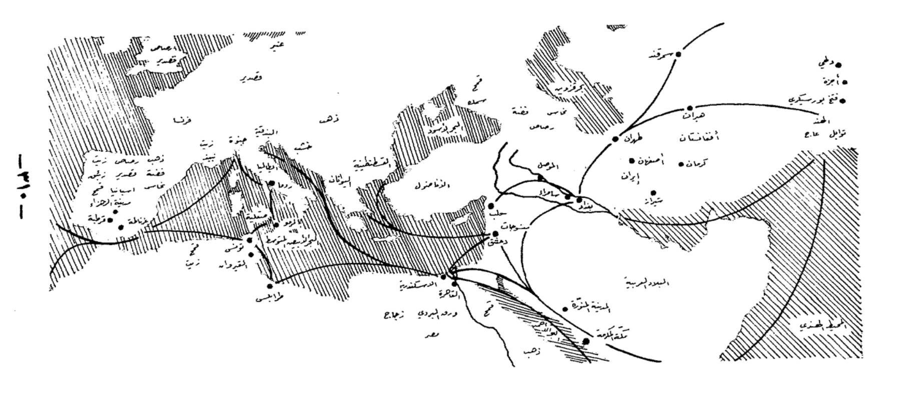
(١) يذهب بعض المفسرين الى ان الآية الكريمة القائلة « وجعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ... الآية » . انما تعني ايضا ان موقع العالم الاسلامي هو في قلب العالم المأهول .

مع مراكز عمرانية كبـرى ومتمدنة ، اذ كان يقوم بمبادلات مثمـرة ورابحة ، مبادلات الند للند ، مع الهند والصين وبيزنطة • ولكن العالم الاسلامي كان أيضاً على علاقة مباشرة مع العوالم الفتية البدوية والغابيَّة ، والتي لا تزال بربرية أو متبربرة : كالسهوب التركية ، ومنطقة السهوب الروسية ، والعالم الاسود ، والغرب النصراني ، والتي نشر عليها اشعاعه هذا كما استمد منها قواها الحيَّة • أي كان العالم الاسلامي جسراً بين العوالم الهامشية المجاورة •



شكل ٣٠ ـ امتداد العلاقات التجارية واشعاع العالم الاسلامي اقتصاديا بين القرنين الثامن والحادي عشر

ومن هذا ندرك أهمية الطرق التي تشرح لنا مسـيرة المؤثرات في تقدمها السريع أو البطيء ، المستمر أو المتقطّع ، من خلال هذا النطاق المتميـز الذي يشكله العالم الاسلامي حتى القـرن الحادي عشر ، هذا كما نستشف انتشار



شكل ٣١ – طرق التجارة الاسلامية القديمة ومراكزها

المكتسبات المتراكمة في أقطار الشرق القديمة باتجاه الغرب ـ أي حتى الغرب الاسلامي وماوراءه ـ بعد تحويزها واغنائها على أثر تفاعلها ضمن نفس الرقعة المكانية ، وتسرب المؤثرات الجديدة التي جلبتها طرق التجارة البعيدة ، ابتداء من الهند وآسيا الوسطى والصين •

ومن هذا أيضاً جاءت أهمية الشبكة العمرانية ، أي شبكة المدن • فقد امتدت بين كل مدينة وأخرى وشائج ثقافية واقتصادية • وكان الطريق يعمل كأداة في نقل المؤثرات الحضرية ، وهذه الشبكة من العواصم الكبرى هي التي تؤلف الهيكل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للعالم الاسلامي • وكانت مراكز القوة على هذا المحور الكبير بين القرن الثامن والحادي عشر الميلادي هي بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وبالرمو ، وتشهد هذه المحطات الكبيرة على الطريق الذاهب من سمرقند الى قرطبة على الوحدة العجيبة لحضارة توفيقية تركيبية، حضارة يتجول فيها الناس والسلع والافكار على نطاق واسع والتي تفرض نفسها فوق أرضية قديمة اقليمية وريفية أو بدوية • ومن هذا تتجت فيما بعد أهمية الاقتصاد النقدي : كضرب الدنانير الغزيرة الناجمة عن تدفق الذهب الجديد وازدهار الاقراض الذي يضاعف من تداول السلع • ويشير ابن خرداذبة في القرن التاسع الى أن تعاظم الثروة والصفقات التجارية كان من الكبر بحيث يستطاع رؤية قطع النقود وهي تتناقلها الايدي في أكثر المدن صغراً ، والتي لم تكن تعهد قبل ذلك وسيلة للتبادل سوى المقايضة • وهكذا ينجم عن نطاق التبادل النقدي المتسع تفوق المدن المتزايد على الارياف والبوادي•

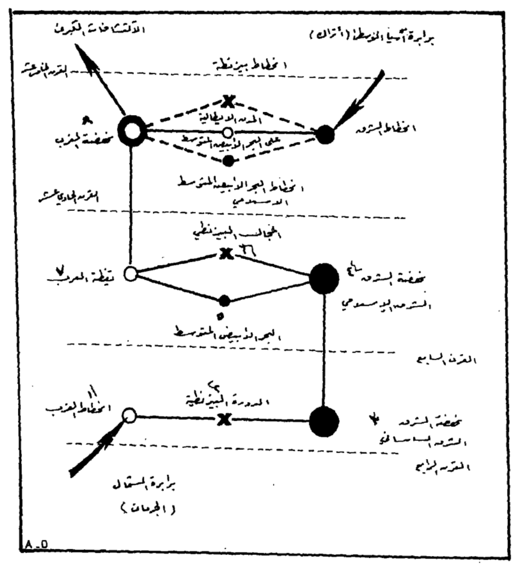
غير أن للاقتصاد القائم على الدينار قوته وضعفه،فهو يتعلق بالتجارة،مثلما يتعلق بصيانة الطرق وبقائها ، ويرتبط كذلك بالسيطرة على العلاقات البعيدة التي استطاع العالم الاسلامي بفضلها الحصول على المنتجات التي يفتقر اليها والتي كانت ضرورية جداً لاقتصاده ولحضارته المتوسعة ـ ويأتي على رأسها الذهب

والخشب والاسلحة والرقيق ــ أي حضارة واقتصاد قاما على الشراء بالذهب ومن مسافات بعيدة • ولكن ما أن يطرأ الضعف على هذه المواصلات النائية : كأن تنحرف هذه الطرق عن مسارها أو تنقطع ، أو أن يأتي الذهب بصورة أقل انتظاماً ، حتى يطرأ انخفاض في التشنج العام ، وتتواتر الازمات المتسلسلة ، والانحطاط العمراني ، وعندئذ يكون من المستحيل مقاومة أطماع البرابرة المرتبطة بتجنيد المرتزقة في الجيوش النظامية،وتنقلب طرق التجارة الى طرق غزوات ، ويتفتت الكيان بمجموعه •

وفي الواقع أخذت الازمات تداهم العالم الاسلامي ابتداء من النصف الثاني من القرن الحادي عشر الى جانب الاضطرابات والغزوات الهمجية وفي أعقابها انحطاط العمران وانقطاع التيارات الاقتصادية ، فتحولت أحياء برمتها من بغداد والقاهرة الى أطلال ، وأقفرت القيروان كي تحل المهدية في وظيفتها ، كما هجرت قلعة بني حماد لمصلحة بجاية ، وسقطت فاس بأيدي المرابطين ، وتلاشت خلافة قرطبة كي يحل مكانها ملوك الطوائف • وقد صاحب انقطاع الطرق انشطارالعالم الاسلامي الموحد الى « عوالم » مجزأة هي « العالم الاسلامي التركي » و«العالم الاسلامي المصري» و «العالم الاسلامي المغربي» و «العالم الاسلامي الاندلسي»، وطفت على السطح الخصائص الاقليمية ، والارضيات القديمة ، التي كانت قائمة قبل الفتح الاسلامي الكبير ، والتي صهرها هذا الفتح ، فأعطت « الحضارة الاسلامية »•

وبعد القرن العاشر انحرف مركز ثقل العالم الاسلامي عن محوره • فمن ذلك الحين لم تعد المراكز المحركة والمشعة في اقتصاد آخذ بالتوسع المستمر واقعة في الشرق ، أي في مدن العالم الاسلامي الكبرى ، بل هاجرت الى الغرب وغدت من الآن فصاعداً مستقرة في المدن التجارية الكبرى في ايطاليا وفي بلاد الفلاندر وفي منتصف المسافة على الطريق التجاري الكبير الذي يربطها ، أي في معارض

منطقة شمبانيا الفرنسية حيث كانت تتم مبادلة منتجات الاقطار الشمالية مع سلع أقطار البحر الابيض المتوسط.هذا ورغم حدوث توقفات فجائية وصدمات وفترات ظَفَر وفترات انحطاط فقد غدت القدرة الاقتصادية وقوة التوسع المادي والنشاط الخلاق ، أقول غدت منذ ذلك الوقت ولقرون عديدة من نصيب أوروبا الغـــربية .



شكل ٣٢ ـ مخطط انقلاب القوى في العالم بين القرن الرابع والقرن الخامس عشر

إلا أن العالم الاسلامي ظل ، حتى مع انحطاطه الاقتصادي ، مستمراً لمدة طويلة في اشعاعه الثقافي في دنيا العلوم والطب والفلسفة : فقد ظل يلعب في ميدان الطب ، على الاخص، دوراً هاماً ليس في حركة النهضة الاوروبية فحسب ، بل حتى القرن التاسع عشر ، ذلك أن معظم المؤلفات الكبرى التي استمرت في تفوقها كانت تنتسب الى الحقبة الواقعة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر .

فقد كانت الحضارة الاسلامية بين الصين والهند وبيزنطة والكيانات البربرية في القرون الوسطى — من تركية وزنجية وغربية — وذلك خلال الفترة الواقعة بين نهاية الامبراطوريات القديمة وحتى يقظة الدول العصرية ، أقول كانت الحضارة الاسلامية في مجدها الاول عبارة عن بوتقة تاريخية وجغرافية ، وعبارة عن مستوى تقاطع ولقاء ، وعبارة عن ظرف زمني فسيح ، أو عبارة عن موعد بطولي خارق .

* * *

لم يكن باستطاعة هذا الكتاب أن يرى النور لولا زملاء موريس لومبار في القسم السادس من المدرسة العملية للدراسات العليا وهم : فرنان برودول،جاك لوغوف ، وآندريه ميكل ، هذا فضلا عن جاك برتان وجانين ريكورا من مختبر الكارتوغرافيا ، كما تكرم ج. جويار ، و ب. لوتلييه ، و ب. توبير ، بتقديم مذكرات محاضراتهم لسد بعض ثغرات النص الاصلي .

المحتوى

الصفحة

الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الجزء الثاني

القوة النقدية والانماط العمرانية

الفصل الخامس

الفصل السادس

الصفحة

لائحــة الخـرائط والمخططـات

الصفحة

الصفحة



THE HISTORICAL GEOGRAPHY OF THE ISLAMIC WORLD

During the First Four Centuries

Al-Jughrāfīyah al-Tārīkhīyah li-al-ʿĀlam al-Islāmī

by: Mūrīs Lūmbārd
tr: ʿAbd al-Raḥmān Ḥamīdah

الجغرافيا التاريخيّة

للعالم الإسلامي

كتاب نادر، يمثّل وجهة نظر غربيّة متحررة من الأفكار الاستعمارية، ومن نظريات التّعالي والسّيادة والسّيطرة، وقد رأى الدكتور المترجم نقله إلى اللّغة العربيّة من الوهلة الأولى التي وقع فيها في يده، لتبيان وجهة تفكير عالم أوربي كبير، وهي وإن خالفت بعض آرائنا أحياناً، فهي قمينة بأن تُقرأ بعناية فائقة، فليس كل ما لا نرضاه من الآراء خليقاً بالطرح والإهمال، إذ ليس من حقّنا أن ننظر من باحث غير مسلم أن يتبنّى كلّ معتقداتنا، بل يكفيه ثناء أنّه نأى عن التّحامل وتوخى الموضوعيّة قدر استطاعته.

والواقع أن هذا الكتاب يضعنا أمام عناصر قوّة العالم الإسلامي مثلما يبيّن لنا نقاط ضعفه سواء في الماضي أو في الحاضر، تلك النقاط الأخيرة التي يجب على كلّ الذين نذروا أنفسهم للنّهوض بأقطارهم خاصّة وبعالمهم الإسلامي عامة أن يعملوا على تلافيها وتداركها لتحقيق عمليّة الإقلاع، وللتّخلّص من لزوجة التّخلّف الّتي تشدنا إلى ما يسمّى بالعالم الثالث، أو عالم الجنوب، وسواهما من التّسمية التي تشير إلى الأمم المستضعفة.

كتاب هام، يجد فيه القرّاء عامّة، والمهتّمون منهم بالجغرافية خاصة الفائدة المرجوّة.



DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/


ISBN 1-57547-549-9
9 781575 475493